وهم الراية

قصص الواقع المأساوي

بنكهة الحلم الوردي

قصص قصيرة

مجموعة قصص " وهم الراية "

هي مجموعة قصصية يكتبها الأسير "عبد الله غالب البرغوثي" في سجون الاحتلال الصهيوني، والمعزول في غرف العزل الانفرادي منذ عام 2003 وحتى يومنا هذا، يكتبها لابنته "تالا" التي تركها وهي تبلغ أربعة أعوام، ولابنه "أسامة" الذي كان يبلغ عامين، ولابنته "صفاء" التي كانت تبلغ يوم اعتقاله خمسة وثلاثين يوماً.

يكتب "عبد الله البرغوثي" لأطفاله من داخل زنزانته، كي يقص عليهم ما كان يود أن يرويه لهم بلسانه لولا أسره... يكتب لكل طفل حُرم من والده أو والدته بسبب الأسر، أو بسبب الفراق.. لعل هذه الكلمات تكون بلسماً يداوي الجراح.

الأسير عبد الله غالب البرغوثي

الفهرس

رقم القصة	اسم القصة	الصفحة
(1)	جمانه ... وهم الراية	
(2)	أبو شرار والحطب	
(3)	ظل من بعيد	
(4)	الطاحونة والطحين	
(5)	أيقونة الصليب المقدس	
(6)	الشجرة المباركة	
(7)	النبتة الضارة	
(8)	الديك يبقى ديكاً عنوان بديل مقترح (الاطفال الديوك)	
(9)	فراشة ولكن	
(10)	القطة والأمل	
(11)	سقوط الأقنعة عنوان بديل مقترح (تاله اية ابنة انتِ !!)	
(12)	ورود والسحر الوردي	

مقدمـة

عبد الله غالب البرغوثي...

أسير فلسطيني

لكي أفرّ من مقبرة الأحياء ... من زنزانة العزل الانفرادي الخاص الذي أحيا ميتاً بها منذ عام 2003 وحتى يومنا هذا، فلقد قرّرت أن أكتب... ولكن وللأسف فلم يكن هناك ما أكتبه سوى قصص تمثل الواقع المأساوي الذي عشته، وعاشه بعضٌ من رفاقي في درب المقاومة، ولكي أخفّف وقع تلك القصص، أضفت إليها نكهة من الحلم الوردي هروباً من واقعها المر.

فإصبعي الذي يكتب هذه الكلمات عبر إمساكه بالقلم، هو نفس الإصبع الذي ضغط على الزناد المرة تلو المرة، لكي يزيل وهماً لراية واهمة، ولكي يقضي على نبتة ضارة، ولكي يقاوم ذلك العدو الصهيوني وأعوانه من أذناب الاحتلال... فلولا تلك الأذناب لما استطاع الاحتلال المحافظة على توازنه.

عبد الله البرغوثي

صاحب أعلى حكم في القضية الفلسطينية

المحكوم بـ 67 مؤبد "5200 عام"

الاهداء

اهدي هذا الكتاب وما بداخله من قصص الى ابنتي تالا والى ابنتي صفاء والى ابني اسامه الى زوجتى الجميلة المحبة التي كرست حياتها لتربيةِ اطفالي بعد ان اسرت على يد قوات الاحتلال .

زوجتي التي كانت وما زالت الام والاب لاطفالي الذين لم يتمكنوا من زيارتي في زنزانة العزل الانفرادي التي امكث بها منذ عام 2003 .

شكراً لك يا زوجتي الحبيبة يا من اعانتني على هذا الحمل الصعب في الزمن الصعب.
اهدي هذا الكتاب لكل من ساهم في ان يخرج الى النور ... الى النور قبل ان يدخل في ظلمات زنزانة الأسر المظلمة ...

عبدالله غالب البرغوثي
زوج فائده البرغوثي ووالد تالا وصفاء وأسامة

" قصة رقم 1 "

وهم الراية

جميلةٌ هي بعينيها الواسعتين وشفتيها الورديّتين، وشعرها نبيذي اللون مجعّداً كأنه موج بحر، يعزف لحنَ حبّ جميل، لم تكن قصيرةً بل كانت ممشوقة القوام، كأنها فرس تمشي بعزة وشموخ، تضع وشاحاً أحمراً ليس لرمز الحب، إنما لرمز نهجٍ سياسي آمنت به، وقدّمت له كل ما يمكن أن يقدم، أما أجمل ما يلفت الناظر لها هو ذلك الصليب الأيقونة، وقد زيّن بصدف الحجر المرصّع بخشب الزيتون، والذي يتدلى بجواره أيقونة ترمز لحنظلة.

حنظلة، أيقونة الشهيد ناجي العلي الذي حفر بريشة رسومه الكاريكاتورية أجمل قصائد التصدي للظلم والفساد والاحتلال ... فاجتمع عليه كلهم رغم اختلافهم فيما بينهم، أجمعوا ليكسروا ريشته وكسروها، ولكنها أنبتت ألف ريشة وريشة، أصبحت جناحين يحلّق بهما طائر الحرية في سماء وطن الأحرار رغم سياط الجلاد وغدر الغادرين.

تمشّت كما تتمشى اليوم بثبات وبثقة، حتى تصل إلى موقف الباص لتصعد إلى الجامعة... تجلس لتقرأ في كتاب لدرويش، وتقلَّب، وتقلَّب حتى يصل الباص إلى جامعتها، فتنزل كما صعدت بثقة وثبات، لكن... لكن بقلبٍ مشتاق إلى لقاء من تحب... تحبه بصمت، فهي لم تقل شيئاً منذ عامين، منذ أن دخلت إلى الجامعة وكان هو ذلك المنسق الطلابي، الذي أرشدها كما أرشد باقي طلاب السنة الأولى إلى منشآت الجامعة، أعجبت به، بهدوئه وثباته وقدرته على إدارة الجولة في أنحاء الجامعة بنجاح، رغم محاولة بعض طلاب السنة الأولى مضايقته بأسئلتهم الغبية تارةً، والوقحة تارةً أخرى.

كانت جمانة بمجرد دخولها من بوابة الجامعة، تطلق العنان لعينيها لتبدءا عملية بحثٍ مكثّفٍ عنه، وعن مكان جلوسه، رغم أنه يكبرها بعامين اثنين فقط ، إلا أنها كانت ترى فيه الفيلسوف

الثوري التقدمي... الذي لا يشق له غبار، ما أن تراه حتى تهدأ عيناها عن البحث وتركزان عليه، تتأمله من بعيد، وكأنها تتأمل ملاكاً نزل يتنزه على أرض الجامعة.

تحاول اختلاق الحجج للتحدث معه دون جدوى، فهو كالصخر يحيط نفسه بهالة من القدسية الثورية... تخشاه وتحترم تلك الهالة، وكأنها هالة فوق رأس ملاك... ملاك كان اسمه ملاك، وكانت تقول لنفسها اسم على مسمى هو ملاك، وتصرفاته تصرفات ملاك، وحتى تلك الراية الثورية التي كان يجاهر برفعها كانت راية ملائكة... لا يخطئون بل لا يمكن أن يخطئوا أبداً، وكيف يخطئ ملاك... ذلك الملاك.

تدرجت في التنظيم وأصبحت عضواً فاعلاً، أصبحت قريبة من ملاك فكراً لكنه لم يكن قريباً منها قلباً، فما أن اقتربت من محيط ملاك حتى اكتشفت زيفه، وكذب تلك الهالة الفاسدة التي كان يحيط نفسه بها، فلقد اتضح لها أن ملاك ما هو إلا زير نساء، وذئب يتفنّن باصطياد ذوات الرداء الأحمر، فهو ثوري زائف ويحمل رايةً زائفة، لا تمت لراية الثوار بصلة، فالراية الحمراء راية ثورية، حاربت في كل الميادين ولم تنكس رغم انكسار وتحطم منابعها عبر الأعوام الماضية... حزنت وبكت، كل ذلك بصمت وبلا ضجيج، داوت جراح قلبها ببلسم الثورة والعمل الثوري الصادق المخلص.. وسرعان ما كشف أمر ذلك المسمى ملاك، واتضح للجميع أنه ليس سوى شيطان، فهو ليس زير للنساء فقط، وإنما لص من لصوص أموال الثورات، فألقي به إلى مكانه المناسب وهو مزبلة الثورة.. فغادر البلاد بحثا عن مكان آخر ليكمل دربه ويبحث عن راية يوهم بها السذج والسواد وليوقع بهم بحبال مؤامراته الغبية، تلك المؤامرات التي ما عادت تنطلي على أحد حتى على السذج... والهواء.

مضت الأيام وكأنها أوراق كتاب نقلبه، تخرجت جمانة من جامعتها، وأصبحت محاميةً ناشطة في قضايا الدفاع عن الأسرى... ولكن يالسخرية القدر، فلقد أصبحت هي أسيرة خلف قضبان الأسر بعد أِن ضبطت وهي تنقل رسالةً من إحدى الأسيرات اللواتي كانت تدافع عنهن، ولسوء حظ جمانة أن تلك الرسائل وما بداخلها كانت كفيلة بسجنها عاماً كاملاً.. خرجت بعد ذلك وهي تحمل في داخلها فلسفةً جديدةً للثورة... عيناها ما تزال واسعتين، وشفاهها ما تزالان ورديتين، وحتى ذلك النبيذي شعرها ما زال مجعداً، كأنه موجُ بحرٍ يعزف لحن حبّ جميل... لم يكن هذا الحب إلا لفلسطين خالصاً، كالذهب الخالص.

غادرت باب المعتقل وهي تمشي ممشوقة القوام، فرس تمشي بعز وشموخ...

جميلة أنتي، هكذا قال لها زوجها: جميلةٌ أنتي كما أنتي دوماً، تعانقا وانطلقا إلى حفلٍ صغيرٍ كان قد أعدّ بمناسبة خروجها من الأسر.

احتفلت ولم تحتفل، فلقد كانت رغم ابتسامتها البادية على وجهها، تحمل الألم في داخلها على فراق أخواتها الأسيرات. عندما حل المساء بكت بصمت على وسادتها حتى لا تنغص على زوجها فرحته بخروجها من الأسر.. رغم أنه كان هو الآخر أسيراً فيما مضى، فهي تعرفت عليه وأحبته وهو ما يزال خلف القضبان... كانت تدافع عنه، ولكنها لم تنجح بتبرئته، وسجن ليس بجريمة ارتكبها، وإنما لأنه ثائر يرفض الخنوع للاحتلال.

خطبها وهو ما يزال خلف القضبان، وأقاما حفل زفافهما في إحدى أجمل كنائس فلسطين... فكل الكنائس جميلة، أليست أماكن عبادة وتضرع لله.

ما أن تذكرت ذلك اليوم، حتى مسحت دموعها التي قد دمعتها حزناً على صديقاتها اللواتي ما زلن خلف القضبان.

قالت: اليوم بعد أن أسرت فأنا لن أستطيع الحضور إلى المحاكم العسكرية التي يقيمها العدو الصهيوني للأسرى الفلسطينيين، فقرّرت أن تولي الجانب السياسي الوقت الأكثر، وتضعه على رأس أولوياتها، فزوجها يوسف كان هو الآخر سياسياً نشطاً ثورياً طاهراً نقياً.

وطوت صفحة أخرى لتترك الأيام تمضي، وعاد العائدون، عادوا إلى أرض الوطن بعد اتفاق مع العدو... عادوا ليس ليقاوموا ويثوروا ضد الاحتلال، بل عادوا كما يقولون ليبنوا مؤسسات الوطن !!!

وعاد معهم، بل وعلى رأس إحدى تلك المؤسسات المراد بناؤها في الوطن .... ملاك... ملاك لص أموال الثورة، عاد ويحيط به الحرس والمرافقون، عاد بوجهه الملائكي وقناع الوهم، وراية الزيف ترفرف خلف مكتبه الفخم... عاد ملاك الشيطان.

ذهلت جمانة مما سمعته من إحدى صديقاتها وهي تقول لها عبر الهاتف: جمانة، احزري من عاد إلى فلسطين اليوم؟ فقالت: لن أحزر، إن أردتي أن تقولي قولي، وإن لم تريدي فلا وقت لدي، فأشغالي كثيرة جداً وأنا مشغولة جداً... قالت: ملاك... ملاك الشيطان قد عاد، أقسم بالله، والله ملاك الشيطان قد عاد.

صمتت جمانة قليلاً، كيف؟ ولماذا؟ ألم يترك الوطن بعد فضيحته وبعد سواد وجهه بعد أن كشف أمره وأمر سرقته لأموال الثورة؟.

لقد عاد ليبني مؤسسات الوطن، هكذا قالت صديقتها عبر الهاتف... فردت جمانة: تعالي إلى مكتبي الآن فوراً، أريد أن نتكلم، أرجوك لا تتأخري، فأنا بانتظارك. فردت صديقتها: كيف؟ ألم تقولي أنك مشغولة جداً، وأن أشغالك (لفوق رأسك) ؟ ضحكت وقالت: سوف أحضر حالاً، فأنا أعلم كم يهمّك خبر ملاك الذي كان في ما مضى ملاكك...

أقفلت صديقتها السماعة، وانطلقت إلى مكتب جمانة، هناك التقينا وتحدثتا بالتفصيل الممل عن ملاك، وعن كيفية صعوده في سلم أحد التضحيات التي لم يكن يعيبها سوى أنها تحوي شخص مثل ملاك، ذو مائة وجه ووجه، لكي تسوق برنامجها الواهن إلى الناس البسطاء.

ووجد ملاك في ذلك التنظيم المجهري الصغير فرصة لركوب موجة الثورة من جديد، فحصل تزاوج وتلاقي للمصالح ليس إلا تزاوج مصلحة وتلاقي الفاسد بالفاسد.. عادوا إلى فلسطين بفسادهم وبقاذوراتهم... لماذا؟ ليبنوا مؤسسات الدولة !! وأيّ دولة ونحن لم نتحرّر بعد، أنحضر الحذوة قبل الحصان قالت جمانة فردت صديقتها سارة: بل قبل الحمار. فضحكت جمانة وضحكت سارة، وهما ترددان: عاد ملاك، ملاك الشيطان... قد عاد.

أسرعت جمانة بعد أن غادرت سارة المكتب إلى عملها، إلى أوراقها، لتكتب مقالاً صحفياً تفضح فيه حقيقة ذلك الشيطان لص الثورة المسمى ملاك، كتبت وكتبت، وحملت المقال إلى الصحيفة، تلك الصحيفة التي تحمل من الوطن أحسن أسمائه، وسلمت المقال إلى رئيس التحرير مباشرة... وطلبت منه أن يقرأ، فقرأ المقال، بل أضاف عليها بعض الكلمات ليسهل فهمها للقراء... شكرته جمانة وودعته على أمل أن يأتي الصباح لتقرأ مقالها... أتى الصباح وأتت الصحيفة ولكنها أتت بلا مقال، بل أتت بقصيدة تمجد وتهلل بالثائر الهمام، ملاك بطل الأبطال، وفاتح الديار.

مزقت الصحيفة، ألقت فنجان القهوة وألقت على كتفها حطتها الحمراء.. غضبت، شتمت باعلى صوت، لكن لم يرد عليها حتى صدى الصوت، فبيتها كان صغيراً جداً، بيت متواضع يعود إلى والد زوجها ، سكنت به بعد زواجها لأنها تريد أن تسكن في المدينة قريبة من الأحداث، وقريبةً من مسكنها وقريبة كما تقول من المطبخ السياسي.

اتصلت بمدير التحرير فلم يجب على هاتفه، فلم تنتظر، بل ركبت سيارتها وانطلقت إلى مقر الصحيفة فلم تجده هناك، بحثت عنه ولكنها لم تجده، وعندما حل المساء وكانت قد هدأت قليلاً، علمت أن رئيس التحرير أمضى يومه عند ملاك، فقد تلاقت مصالحه مع مصلحة ملاك، وحدث الزواج، زواج المصالح والمال، فلقد أغدق ملاك على ذلك الحشرة رئيس التحرير، بالكثير من المال عبر عمولات وإعلانات وهمية... فتلك اللعبة هي من أسهل الألعاب التي يجيد ملاك لعبها.

وذلك رئيس التحرير، كان هو الآخر يجيدها ويحب أن يلعبها، ولعبته المفضلة كانت الابتزاز... ابتزاز لصوص الثورة، وبعد تلاقي الشيطان مع (الميزر) قررا أن ينقضا على جمانة، ذلك الشيطان ملاك كان يعلم جيداً أن ماضيه سيكون حاضراً أمامه بمجرد أن يعود إلى فلسطين، فكما يقال "فلسطين أرض مقدسة، ولا يمكن أن يبقى فيها ما دام السر يدور حول لص من لصوص الثورة".

ولأنه يعلم ذلك جيداً، فلقد أعد العدة وجهز نفسه جيداً متسلحاً بكل أنواع الأسلحة اللازمة للدفاع عن نفسه، بل كل الأسلحة اللازمة للهجوم على خصومه، رغم أنه قد وصل منذ يومين اثنين فقط لا غير، إلا أن عيونه وبطانته وصلت قبله بشهرين لتمهد الطريق أمامه، ولتفرش له السجاد الأحمر ليدوس عليه بحذائه القذر.. كما داس على دماء الشهداء الذين نهب أموال ذويهم بعد أن تحايل عليهم، فلم يكتف شيطاننا ملاك من نهب أموال ثوارنا الأحياء، بل تمادى عندما كان خارج فلسطين، فجمع الكثير الكثير من التبرعات بادعاء أنها تبرعات إلى أسر الشهداء، ولكنها ذهبت إلى ملاهي الليل بمعاقبها من خمر وفساد، فشيطان ملاك كان يتقن فن الفساد والإفساد، وما إن عاد إلى أرض الوطن ليبني المؤسسات، حتى بنى مقهى على الطراز الغربي، وخلال أسابيع من افتتاح ذلك المقهى تحول بقدرة قادر إلى مرتع وملتقى من ملتقيات الفساد... فهو مُلك لشيطاننا ملاك الفاسد المفسد.

ولم يكتفِ بذلك، بل جمع حوله عدداً ممن يمكن وصفهم بحثالة الثورات، فجعل منهم بعد أن أغدق عليهم المال وبما يجود به مقهاه القذر... أدوات يحركها كيفما يشاء، يبطش بها متى يشاء...

بعد أن أوقف نشر المقال عن طريق ذلك المبتز مدير التحرير، وقبل صدور العدد الثاني، أصدر شيطاننا ملاك أمره الأول إلى حثالة الثورة.. كان أمراً حقيراً دنيئاً، ولكنه إذا ما قيس بما فعله بعد ذلك سوف تراه أقل المصائب شراً... أحرقوا سيارتها، سيارة من؟ سيارة جمانة... أمر.. فنفذوا أمره.

هنا استيقظت جمانة على صوت اللهب الذي كان يصدر من السيارة المحترقة التي تقف في موقف المنزل. لكن شيئا آخر استيقظ لدى جمانة عندما رأت ذلك المنظر، وتلك السيارة، استيقظ بداخلها القرار الواضح القاطع بالصمود والمواجهة، ففي اليوم الذي لم ينشر فيه المقال، وعندما أدركت أن الشيطان ملاك عاد قوياً، اقتنعت بما قالته لها صديقتها سارة وزوجها الثوري والأسير السابق... اقتنعت أنه يجب عليها ان تتروى ولا تتسرع، فالأمور أصعب مما تظن، تلك الكلمات قالها لها زوجها وأكدت عليها أعز صديقة لها سارة، فقنعت ونامت ليلتها.. أما وقد استيقظت على ذلك الدخان الذي تصاعد من سيارتها ودخل بيتها، إلى حجرة نومها إلى منامها إلى حلمها الذي كان حقيقة.. حقيقة قالت جمانة: عاد، عاد من جهنم ليبطش وليفسد جنة الأرض...

أدرك زوجها ما حل مباشرة، ولكنه حاول إقناع زوجته أن ما حصل قضاء وقدر، وأنه لا علاقة لملاك بما حدث، متعللا بأن ملاك دخل إلى فلسطين منذ يومين لا أكثر... قال ذلك وهو يعلم أن ملاك من يقف خلف الحريق، لكن زوج جمانة هو ثوري عاقل، من ذلك النوع الحكيم ذو النظرة العميقة المتفحّصة، ذو قراراتٍ مدروسة لا انفعالية متسرعة... لم تبكِ جمانة ولم تصِحْ غضباً على ما قد حرق، بل توجهت إلى رئيس الصحيفة وقالت له: قل لصديقك ملاك أن رسالته قد وصلت... لم تهدد ولم تتوعد، فقط رسالة قد وصلت... رسم مدير تحرير الصحيفة على وجهه ملامح الدهشة والاستغراب ورد: أولاً ملاك ليس بصديقي، ثانياً عن أي رسالة تتحدثين؟ قالت على الفور: قل له ما قلته لك لا أكثر ولا أقل، قل أن رسالته وصلت، وصلت بشكلٍ واضح.

لم يبلغ رئيس التحرير تلك الرسالة لملاك، لأنه يريد أن يبقى خارج اللعبة، فهو أضعف من أن يدخل في مثل هذه المواجهة... صحيح أنه أجَّر قلمه بل باع قلمه لملاك، ولكنه يعلم أن صوت جمانة سوف يصل إلى من تريد أن تسمعهم صوتها رغم أنفه وأنف ملاك... لكن أكثر ما حيره خاصة بعد أن وصله خبر حرق سيارة جمانة، هو أن جمانة لم تهدد ولم تكن غاضبة، بل كانت هادئةً حازمةً عندما طلبت منه إيصال رسالتها إلى ملاك.

ملاك شرب كأسه مبكراً هذا الصباح معلناً انتصاره مرتين متتاليتين على جمانة... حرب قذرة لكنها حرب صامتة.

عندما وصلت له رسالة جمانة التي قالت بها أن رسالة ملاك قد وصلت بطريقة ما، ظن الشيطان
أنه انتصر... ولكنه أراد أن يلقن جمانة درس أكبر وأكثر قسوة ليجعل منها عبرة لكل من يحاول المساس به، ظنّ ذلك لكنه اعتبر أن جمانة قالت ما قالته ضعفاً وخوفاً.

وقبل مضي أسبوع واحد على حرق السيارة، حرق ملاك مكتب جمانة للمحاماة... حرقه هو... أما هي فلم تفعل شيئاً، لم تفتح فمها بكلمة واحدة، صممت وصمت معها زوجها الأسير المحرر.. الأسير صمت ليس ضعفاً وجمانة صمتت ليس ضعفاً، لا والله، لقد صمتا قوةً ويقيناً وتدبيراً.. تدبيراً أن ردهما قادم، ردّ لن يكون بعده رد.

جمع الأسير المحرر عدداً من رفاقه الأسرى المحررين، ورفاقه الثائرين، وقبل طلوع الفجر الذي تلا حرق مكتب زوجته بيومين، داهم منزل ملاك الشيطان وانتزعه من بين حراسه، بل انتزعه عارياً من فراش الرذيلة، جره إلى الشارع، جره كما خلقه ربّه عارياً، لا يكسو جسده شيء، ألقى به في صندوق سيارة أحد الرفاق وانطلقوا إلى المسلخ، كما كان يحلو لهم تسميته، لم يكن مسلخاً للحيوانات العادية، بل كان مسلخاً لتلك الحيوانات التي نبتت من بين أضلع البشر، فبطشت وداست على من تظن أنهم ضعفاء.

جُرَّ الشيطان ملاك إلى هناك مثلما يجر الكلب المسعور إلى موته، ظن ملاك أن نهايته قد اقتربت، فعرض عليهم المال... الكثير من المال... ظلوا صامتين، لم يتحدثوا معه، لم يصفعوه على وجهه، لم يوجهوا اللكمات، أجلسوه على الكرسي، ووجهوا له الكاميرا، كاميرا للتصوير، وأضاءوا الكشاف على وجهه.

صمت ملاك قليلا، لكنه أدرك دون أن ينطقوا ما أرادوا قوله له، فبدأ يتحدث ويقص قصة حياته منذ اليوم الأول وصولاً إلى يومنا هذا... قال... وقال، اعترف بكل شيء ، الظاهر والمخفي، ذلك المخفي الذي لم يكن أحد قد علم به... ذلك المخفي الذي كان وقعه عليهم عندما سمعوه أقسى وأصعب مما تحتمله العقول، تلك العقول الثورية الطاهرة.

ظل ملاك يتحدث أمام الكاميرا عارياً من كل شيء، من أخلاقه، من دينه، ومن وطنيته، ومن ملابسه... كانوا يضعون الشريط تلو الشريط، لكنه كان يكمل حديثه غير مكترث من أن الكاميرا لم تكن تعمل في تلك الأثناء... لم يكن يراهم ولا يشعر بوجودهم، كان في عالم آخر، شعر ملاك أنه هناك.. هناك في الجحيم.. في جهنم... رغم أن الجو كان بارداً وقارصاً، إلا أنه أحس أنه يحترق بنيران ما اقترفت يداه... ما هي إلا لحظات هي لملاك التي أظن أنه يمر بها كأنها حلم كابوس.

بعد عدة ساعات، زادت عن ست وثلاثين ساعة، كان خلالها يواصل الكلام دون كلل، دون ملل، لم ينم، لم يطلب طعاماً أو ماء، كان يشرب إن قدموا له زجاجة الماء، أو أعطوه الطعام فيأكل، لكنه يطلب السجائر، لم يكن يكتفي ببضع لفافات من التبغ، كان يشعل اللفافة من اللفافة ويتحدث، ظلّ على هذا الحال حتى سقط من على كرسيه على الأرض، ليتكوّر حول الكرسي كأنه كلب حقير فارق الحياة... لم يكن قد مات، هذا ما قاله لنفسه عندما استيقظ بعد ساعات طويلة، استيقظ ليقول أنه لم يكن قد مات، لم يكن قد مات، ظل يقول أنا ما زلت حياً ولم أمت.

عندما سقط أرضاً، أدرك الثوار أنه سقط من التعب بعد أن أفرغ كل ما كان يحتويه عقله في ذاكرته العفنة، ورغم أنها عفنة إلا أنها قوية، قوية جدا، مثل ذلك الجبن العفن الذي يأتينا من خلف البحار، جبن قوي الطعم والرائحة، لكنه عفن وعفونته هي من أكسبته ذلك الطعم المميز.

وكذلك كان الشيطان ملاك، فعندما كان يروي حكاياته كان يشدهم فيستمعون له بكل الحواس... لم يعذبوه، بل لم يصفعوه حتى صفعة واحدة، لكنه قال وقال، وسقط أرضاً، فتركوه وأخذوا آلة التصوير وتركوا المكان، تركوا المسلخ بعد أن سلخ الملاك جلد الملاك بصهر أنفاس شيطان عبقري عبثي لم يمت.. ألم أمت؟ قالها ووضع قطعة من القماش أو خرقة كانت ملقاة على الأرض، وركض باتجاه الشارع، كان الظلام قد حلّ عند إيقاظه، ولم يكن يدري ما الساعة، أوقف سيارة تاكسي وطلب من السائق أن يوصله إلى العنوان، إلى بيته هناك، حين كان الكل في انتظاره، فقد طال غيابه حتى أنهم اعتقدوا أنه قد قتل، فهم يعرفون حقيقته جيدا، لكنهم كانوا مثله لصوص ثورة، لا أكثر ولا أقل.

نزل من السيارة وتوجه إلى البيت رافضاً أن يكلمه أحد، دخل مباشرة إلى الحمام، استحم ولبس أفضل الثياب، تناول الطعام، أفضل الطعام، وذهب ليجلس معهم حيث كانوا ينتظرون... يتساءلون أين ذهب؟... من خطفه؟... بل من يملك الجرأة على خطفه؟.

لماذا لم يقتلوه فهو كلب لص ثورة، كيف عاد وبأي حال؟، فعادوا يتساءلون، وتساءلوا، تارةً بصوت عالٍ مسموع وتارة بصوت هامس، كلهم لصوص ثورة، وكلهم يتساءلون هل جاء دورنا؟ هل أنا من سيتم خطفه يوم الغد أم أنني ما زلت لص ثورة صغير ولم أكبر بعد مثل ملاك... الذي كبر... وكبر كثيراً، لكن عودة ملاك جعلتهم يرتاحون قليلا ويهدأون.

قبل أن يسأل أحد ملاك عن ما حدث معه، نظر إليهم بنظرة واثقة متحدية، وصاح: مزحة، ليست سوى مزحة سمجة من أحد أصدقائي، قطع عليهم السؤال حتى، عن التفاصيل، طلب منهم أن يصطحبهم إلى مقهاه ليسهروا هناك، انقادوا معه مثل الخراف خلف كبش الخراف، سهروا وشربوا وسكروا وعادوا إلى منازلهم... مزحة لا يمكن أن تكون مزحة... تلك الجملة رددوها في أعماقهم ولم يجرؤوا على النطق بها...

مضت عدة أيام دأب خلالها ملاك على تنظيم الحفلات والسهرات سواء في مقهاه أو في منزله، وظل يدير مؤسسته، بل مؤسسة الوطن الذي عاد لكي يبني به المؤسسات.

أسبوع واحد مر قبل أن يعيد ترتيب حساباته من جديد، وبدأ بالبطش بمن ظن أنهم يقفون خلف عملية خطفه، لكنه استبعد من تلك الحسابات جمانة... استبعدها نهائياً، فلقد ظنّ أنه عندما وصله خبر أنها تقول أن رسالته قد وصلت، وبعد أن أكد على رسالة حرق السيارة برسالة أخرى وهي حرق المكتب، ظن أن ذلك يكفي، وأنه لم يعد هناك خطر من جمانة...

ووجه آلته، آلة فساده وإعلامه إلى كل من ظنّ أنه يكنّ له العداء... وكانوا كثر..

زوج جمانة أراها التسجيل المصور لاعترافات ملاك المفصلة، شاهدت بصمت وسجلات ملاحظاتها بدقة وحذر، أراد أن يكون كل ما تكتبه دقيق جداً وخاصة الأسماء التي كانت تعود للصوص ثورة آخرون قد عملوا مع ملاك، بدأت بعد ذلك تنشر ما تكتبه بخصوص ملاك تحت اسم مستعار في صحيفة خارج فلسطين، صحيفة لم تصل لها بعد سطوة ملاك...

رغم أن اسمه لم يكن مكتوباً، أي أنه كان يعلم علم اليقين أن ما يكتب هو تلك الكلمات التي نطق بها هو.. حاول الوصول إلى اسم الكاتب لكنه لم يتمكن من ذلك، رغم كافة محاولاته، وعلى العكس، فإن تلك المحاولات جعلت الصحفيين العاملين في الصحيفة يفسرون ذلك على انه اعتراف وإقرار أن ملاك هو صاحب الاسم المستعار المقصود في تلك المقالات، مما جعلهم يبدءون بالهمس وبإطلاق الإشاعات الواحدة تلو الأخرى، مما حول ملاك إلى مهووس فاقداً لعقله ودهائه واتزانه، وأصبح يبحث عن الكاتب بكل الطرق والوسائل والمال والتهديد، رغم أن الصحيفة كانت هناك خارج فلسطين، إلا أنه استطاع أخيراً الوصول إلى معرفة اسم الكاتب... بل اسم الكاتبة جمانة.

وما أن علم حتى أصدر أمراً بتصفيتها فوراً، علمت جمانة أنه قد علم، بل أن جمانة هي التي سهلت وصوله لمعرفة اسمها.

حضر غربان الليل إلى منزل جمانة وزوجها الأسير المحرر، لكن جمانة لم تكن هناك، من كان هناك هم رجال الثورة، فألقوا القبض على أولئك الغربان... كانت دائماً جمانة تسأل زوجها لماذا لم تقم بقتل ملاك بعد أن اعترف بما ارتكب من جرائم بحق فلسطين من سرقة ونهب وسطوة على ذمم الضعفاء؟ وكان يجيبها بجملة واحدة: ما دام ملاك لم يقتل أحداً فأنا لا أرى أن من الصحيح قتله، فالمال سوف يعود يوماً إلى مستحقيه بعد معرفة الحقيقة، أما ملاك فلم يقتل، ولذلك لن أقتله.

بعد أن علم ملاك أن غربانه أصبحوا في قبضة زوج جمانة، وبعد أن فشلوا في الوصول إلى مكان أولئك الغربان وإلى مكان اختفاء جمانة وزوجها... هدأ قليلا، لعله يستطيع عبر التفكر الهادئ الوصول إلى حل لتلك المصيبة... لتلك المزحة، وأية مزحة... في تلك الأثناء انتشرت الشائعات عما حصل مثل انتشار النار في الهشيم.. فابتعد عن ملاك من كان حوله من لصوص الثورة، لأنهم تأكدوا أنها لم تكن مزحة... مجرد مزحة كما قال لهم ملاك... تواصلت المقالات بالخروج إلى العلن بشكل أوضح وبإشارات دالة على أن المقصود هو ملاك... ازداد غضباً وحقداً، لكنه أيضاً ازداد ضعفاً وجهلاً.

فأدرك أن ساعته قد اقتربت، وأنه لا مناص من الحساب، لم يرد الهرب خارج فلسطين، بل لم يستطع لأنه ظنّ أن الأجهزة الأمنية قد تعتقله إن حاول الهرب، لكن تلك الأجهزة الأمنية كانت مشغولة هي الأخرى بحفظ أمن الاحتلال، وملاحقة الثوار والمقاومين، فلقد بنيت هذه الأجهزة الأمنية مثلما بنيت غالبية مؤسسات بناء الدولة... بنيت على الفساد والإفساد... ذلك الفساد الذي توسع وانتشر حتى أصبح أكبر من كل شيء، وأقوى من كل شيء، إلاّ من الانتفاضة، تلك الانتفاضة الفلسطينية التي انطلقت ضد ما أقدم عليه شارون من تدنيسٍ للمسجد الأقصى، وضد أولئك الفاسدين المفسدين.

عند انطلاق الانتفاضة خلطت الأوراق، فقاتل زوج جمانة الأسير السابق وقاتل معه رفاقه فاستشهد واستشهدوا، أما جمانة فلقد وصل إليها ملاك، ذلك الشيطان، وصل إليها مع لصوص الثورة فقتلوها، فماتت.

أما ملاك، فأصبح مستشاراً عند فلان، ولم يكتف ، بل قفز في غفلة من الزمن ليصبح وزيراً، ولم يكتف بل قرر القفز والقفز حتى صار أميناً للسرّ، أميناً لسر، سر شيء لم يعد له وجود، فأعادوا إحياءه للقضاء على المقاومة بعد أن قضوا على الثورة... فالثوار كانوا قد أصبحوا شهداء أو أسرى، والمقاومون أريد أن يصبحوا هم أيضا شهداء أو أسرى عند العدو أو عند بناة مؤسسات الدولة... دولة الفساد والإفساد... دولة أمين السر والشيطان الفاسدة.

قُتلت جمانة شهيدة، وقتل زوجها ورفاقه الشهداء، واليوم يراد أن تقتل فلسطين، كل فلسطين حتى يحيا أولئك الشياطين بثياب الملائكة، فلتسقط رايات الوهم... ولتحيى جمانة وفلسطين.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 2 "

أبو شرار والحطب

تثور النار إن خنقت بالحطب
وتحرق كل من للحق اغتصب
فكيف لا يثور أبو شرار وقد غضب
على دم شعبه الذي ينسكب

فكيف لا يثور على الاحتلال.. على الظلم والظالمين... على الاضطهاد والمضطهدين...

ذلك هو "عبد الرؤوف أبو شرار" أو كما يسمونه عبود أبو شرار، لا أدري، ولا أريد أن أدري أين ولد، فهو كان هناك عندما أسرْت واقتدت إلى السجن، كان يكبرني بعام واحد، ولم يكن هو قد تجاوز عامه الرابع عشر، كان شبلاً من أشبال فلسطين، يجيد إلقاء الحجارة والزجاجات الحارقة، يتيم ربَّته جدته، لكنها ماتت فربته عمته، فتزوجت وسافرت، بقي وحده في بيت أبيه منذ أن كان عمره أحد عشر عاما، ومنذ ذلك الحين ترك المدرسة وأصبح همه الوحيد في هذه الدنيا هو مطاردة جنود الاحتلال أينما كانوا وبكل الوسائل.

كان يجيد الضرب بالمقلاع والمنقاف، لكنه لم يكتف، فأصبح رغم عمره الصغير يجيد صنع وإلقاء القنابل الحارقة، فطورد واعتقل، دخل الأسر وخرج..

خرج أكثر كراهية للعدو المحتل، وأكثر إصرار على النيل منه، ففي الأسر قام ذلك العدو والوحش الصهيوني بتعذيبه أشد عذاب، ضرب وشتم ثم تجويع... ثم ذلك البرد القارص الذي كان يمضيه دون أن يحصل على غطاء يغطي به جسده الضئيل، فعبود أبو الشرار، كان ضئيل الحجم قصيراً في تلك الفترة، أما أنا عندما التقيته في أحد مرات سجنه، فرغم أنني أصغر منه عمراً بعام واحد، إلا أنني كنت أضخم منه، لا أدري أكان السبب أنني كنت سميناً وممتلئاً بعض الشيء، فأنا وحيد أمي، وكانت أمي تدلّلني كثيراً وتطعمني أكثر وأكثر.

سُجنت لأنني ألقيت بضع حجارة وأنا في داخل أرضي وأرض والدي وجدي، بعد أن حاول المستوطنون مهاجمتنا هناك، فدافعنا عن أنفسنا، فحضرت قوات الاحتلال واعتقلتني أنا وأبي.. وحتى جدي الطاعن في العمر، لم يسلم من الاعتقال، فاعتقل هو الآخر. أبي وجدي اقتيدوا إلى سجن الكبار البالغين، أما أنا فكان نصيبي أن أرى عبود أبو الشرار في سجن القصر، سجن الأطفال الصغار، سجن أشبال الثورة.

ما اسمك..

لم أجب...

ما اسمك...

ما دخلك أنت باسمي؟

قلت لك ما اسمك.. وأتبع سؤاله لي بنظرةٍ قوية.

قلت: لا اسم لي، فأنا مجرد شبل قاصر.

ضحك وقال: ما دمت قلت أنك شبل، فمرحباً بك في عرين الأسود، أنا أخوك عبود... عبود أبو الشرار، محكوم علي بثلاثة أشهر، وباقي لي أقل من شهر واحد، وبالمناسبة هذه السجنة رقم.. والله لا أدري ما رقمها، ربما تكون العاشرة، على كلٍّ لا يهم... من أي قرية أنت.

قلت: من قرية الأشبال.

عاود الابتسام وقال: أما أنا فمن قرية أبو الحطب، ألا تعرفها؟ قلت: أعرفها، فأنا أيضا من نفس تلك القرية التي يملأ الحطب أرجاءها.

ضحك وضحكت ثم قال: عن جد أنت من نفس قريتي؟ قلت: نعم، أنا من نفس قريتك يا أبو شرار. لماذا لا أعرفك؟ وكيف لم تعرفني؟ أنت لم تعرفني أما أنا فعرفتك.

عن جد عرفتني.

ألم أقل لك إنك أبو الشرار؟

نعم، قلت.

أين عرفتني، في المدرسة أم أين؟

ليس في المدرسة، فأنا لم أدرس بمدرسة القرية إلا منذ عامين، وأنت تركت المدرسة منذ زمن.

وما أدراك؟ ومن أنت؟

قلت لك إنني شبل... مجرد شبل.

يالله عليك قل لي من أنت.
أنا اسمي وسام، ابن الأستاذ علي الحطاب، أصغر منك بعام، هذا ما قاله لي والدي فوالدي يعرفك جيداً عندما كنت تلميذاً في مدرسة القرية، وهو الذي حدثني عنك.
يعني أنت بتكون ابن عم خالة أمي.

صحيح أنا ابن عم خالة أمك، الله يرحمها، بالحضن يا ابن عمة خالة عم أمي.
بالحضن يا خالة عم عمة أمي...

ضحك وضحكت، تعانقنا.. لقد كان هناك خلاف بالماضي بين فرع عيلتو وفرع عيلتي، رغم أننا أقارب بشكل وبآخر، هنا بدأت صداقتنا ومن هنا تعرفنا على بعضنا البعض.

أمضينا قرابة الأسبوعين مع بعضنا داخل الأسر، أكلنا وشربنا حزنا وغضبنا، وتصادقنا.

أطلق سراحي بعد مرور الأسبوعين، أما هو فأطلق سراحه بعد ذلك بعشرة أيام تقريباً.

في هذه المرة كنت أنتظره على باب المعتقل، فلقد وعدته بذلك.. ففرح كثيراً وخاصة أنه لم يكن أحد ينتظره في السابق لدى خروجه من المعتقل.

الحمد لله على سلامتك.
الله يسلمك، شو اللي معك، شو اللي حامله.
زي ما وعدتك جبتلك ساندويشتين فلافل وعلبة كولا مش هيك وعدتك... ووعد الحر دين.

طيب هات ناولني بطني بصوصو من الجوع. اتفضل بالهناء والشفاء.

أكل عبود الساندويش وشرب علبة الكولا، ونحن نمشي نحو مدينة رام الله، فهو لم يحب أن يركب بالمواصلات، أحب أن يمشي... لم يكن المعتقل يبتعد كثيراً عن المدينة، فهو يقع على أطرافها...

خلال العشرة أيام التي كنت قد سبقته فيها بعودتي إلى بيتي من الأسر، أقنعت والدي ووالدتي بأن يسمحا لي أن أستضيف عبود عندي، في البداية عارضا لأنهما لا يريدان مشاكل، فعبود إما داخل وإما خارج من المعتقل.

قلت لها: هو مجرد طفل، والله هو مجرد طفل، عبود ما زال عمره أربعة عشر عاماً بلا أب وأم، وجدته ماتت، ولم يعد هناك من يرعاه، فلذلك تجدان يفرغ طاقته نحو الاحتلال... رغم أن الاحتلال يستحق أن يفرغ به الرصاص وليس الحجارة فقط كما يفعل عبود...

لا أدري، هل أقنعهما كلامي أم أشفقا عليه أم علي من كثرة توسلاتي لهما طول الأيام الماضية.

أراد أن يعود إلى منزله بعد تلك الجولة التي قمنا بها في مدينة رام الله، فلقد تجولنا في سوق الخضار، واشتريت له مثلجات من محل اسمه " ركب" ، لقد مشينا في أسواق وشوارع رام الله حتى حلول المساء، وعندها أراد العودة إلى منزله، لكنني رفضت وقلت له إن والدتي أعدت له عشاء خاصاً بمناسبة خروجه من الأسر... رفض لكنني تمكنت من إقناعه، وصلنا إلى بيتي، استقبلته أمي وجدتي بالسلام الحار، فقبل يد جدتي فهي بمقام جدته.

أعطتني أمي ملابس جديدة، فأعطيتها لعبود وقلت له إنه يستطيع الاستحمام قبل وصول والدي وجدي لتناول العشاء.

فذهب للاستحمام وعاد مرتدياً تلك الملابس.. تلك الملابس جعلت منه شخصاً آخر، شخصاً أقرب للشاب أو للرجل من الطفل الذي عرفته في الأسر، ورأيته اليوم صباحاً، لقد أصبحت له هيبة واضحة.

عندما حضر جدي ووالدي، وضعت أمي الطعام فتناولناه، توقعت أن يكون همجياً عابثاً أثناء تناول الطعام، إلا أنه كان خجولاً بطيئاً ولا يمد يده إلى الطعام حتى يلح عليه أحدنا. وكان أكثرنا إلحاحاً عليه جدتي، أكل وأكلت، بعد ذلك جلسنا كلنا تحت دالية العنب، ذلك المعرش الذي يغطي مدخل منزلنا.

أمسكت جدتي بذراعه وقالت له: اسمع يا ستي يا عبود، إنت من اليوم وطالع راح تنام عنا وتوكل عنا، رح تنام في غرفة وسام، طيب؟ وإلا والله يا ستي يا حبيبي بكسر عليك هالعكازة، ضحك وظن أنها تمازحه، لكن جدي كرر عليه ما قالت جدتي بصوت حازم، فلم يجد عبود مناصاً من الاستجابة لأمر جدي.. نعم، لأمر جدي، فجدي لم يطلب منه بل أمره، فجدي هو بشكلٍ أو ما جده أيضاً.

بعد أن انتهت السهرة، وبعد أن شربنا الشاي، وبعد ذهاب والدي ووالدتي للنوم، وكان جدي وجدتي قد سبقاهما إلى ذلك، قال لي عبود الليلة وبس، فهمت ما يعني أنه لن يبات في منزلنا سوى الليلة... فقلت له لا، الليلة وكل ليلة، أنت عبود أصبحت فرد من أفراد أسرتنا، واحد منا وفينا، لم يجادل، أعتقد أنه أراد ذلك، أراد أن يصبح له عائلة من جديد، فلقد لاحظت عليه ذلك، لاحظت كيف تحوّل عبود الطفل الشاب الذي كان في الأسر إلى أسد بكل ما تعني الكلمة من معنى، فرغم ضآلة حجمه إلا أنه كان قوي الشخصية، وكان يُضرب به المثل على شدته وقوة شخصيته، أما عندما حضر إلى بيتنا فلقد كان شاباً ورجلاً هادئاً صامتاً .. هو كان يريد بيتاً وأنا كنت أريد أخاً، فحصل هو على ما يريد وحصلت أنا على ما أريد.

في صباح اليوم التالي، ذهبت أنا إلى المدرسة، وتركته نائماً، ظل نائماً حتى ساعات الظهر، لم يخرج من غرفته، رغم دعوة جدتي له للخروج لتناول الطعام، لكنه رفض وظل في الغرفة، عندما عدت كان والدي قد عاد معي، فهو معلم في المدرسة وعاد جدي من الأرض التي كان يعتني بها.

تناولنا غداءنا، وبعد ذلك عرض والدي على عبود أن يعيد تسجيله في المدرسة، لكنه رفض بشكل قاطع العودة إلى الدراسة من جديد، فعرض عليه جدي مساعدته في الأرض وتعليمه أصول الزراعة والفلاحة، فوافق على الفور.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت أنا إلى مدرستي وهو ذهب إلى أرض جدي... طول عام كامل بقي عبود ملتزماً التزاماً كاملاً مع جدي، والأهم أنه طول ذلك العام لم يلق الحجارة ولم يسجن، أصبح عمره خمسة عشر عاماً ، وأصبح عمري أربعة عشر عاماً تقريباً، أمي التي كانت في البداية تعارض أصبحت الآن تعتمد عليه كثيراً، سواء هي أو جدتي، فلقد كان عبود يقدم المساعدة دون تردد.. والأهم أنه كان بعيداً كل البعد عن المشاكل... عبود لم يكن فقيراً أبداً، فعبود ورث قطعة أرض كبيرة جداً عن والده، وورث عن والدته قطعتين أخريين، ولقد أوكلت

جدته قبل موتها موضوع الاهتمام برعاية تلك الأراضي لأحد الأقارب... ذلك القريب كان رجلاً أميناً... يضع لعبود المال الذي يعود له من تلك الأرض في حسابه البنكي، وكان حساب عبود المالي جيد، بل جيد جداً، ولقد علمت ذلك عندما ذهبنا في العطلة الصيفية إلى رام الله بصحبة ذلك الوكيل للبنك، حيث سحب عبود مبلغاً كبيراً من المال، وقام بشراء مواد خاصة بالدهان من أجل أن يعيد طلاء منزله.

فلقد قرر عبود بعد العيش معنا لمدة عامين تقريباً، أن يعيد طلاء بيته من جديد، وأن يجهّز منزله بالأجهزة الكهربائية التي لم تكن موجودة أصلاً لديه عند وفاة جدته.

طوال ثلاثة أشهر عملنا فيها على تجديد منزله، أصبح خلالها منزله على أحسن وأفضل حال، بل إنه أصبح أفضل من منزلي، فهو منزل كبير وله حديقة أصبحت جميلة جداً بعد أن أعاد عبود زراعتها من جديد، ولقد كلف عبود أحد البنائين فقام ببناء سور حول المنزل، وبذلك أصبح منزل عبود كاملاً مكتملاً من كل شيء. رغم ذلك بقي عبود ينام في بيتنا... فعبود كما قلت لم يكن بحاجة إلى بيت، إنما كان بحاجة إلى عائلة، إلى جد وجدة، إلى أب وأم، إلى أخ، وأنا أيضا كنت بحاجة إلى أخ... فكان عبود أحسن أخ يمكن الحصول عليه.

في تلك الفترة، توطدت علاقة عبود بجدي لحد كبير جداً، فأصبح جدي يعتمد على عبود كثيراً عندما أصبح عمره سبعة عشر عاماً، قررت جدتي أنه آن الأوان لتزويجه رغم معارضته، إلا أنها أصرت وبدأت البحث له عن عروس، أما أنا فما زلت في مدرستي، وما زلت متفوقاً في أداء الامتحانات المدرسية.

تعلم عبود من جدي الصيد، فلقد كان لدى جدي بندقية إنجليزية قديمة، فتعلم عليها عبود مما جعل من عبود وخلال فترة زمنية قصيرة نسبياً، قنّاصاً بكل ما تحمل الكلمة من معنى، فلقد تعلّم كيف يتبع أثر الطرائد، وخاصة أثر الغزلان، وكان يجيد التخفي لكي يكمن لفريسته، أصبح يمارس هوايته الجديدة بشكل جدي، فلقد كان يصلي الفجر مع جدي في المسجد، ثم ينطلق إلى الجبال المحيطة بالقرية لممارسة الصيد.

لم يكن يمر أسبوع دون أن يصطاد غزالاً واحداً أو أكثر، ولكنه كان أيضاً يقوم باصطياد الخنازير البرية، تلك الخنازير التي كانت تتلف المزروعات.

أما الشيء المميز هو أن عبود طلب من جدي أن لا يخبر أحداً عن تعليمه له الصيد، وعندما كان يعود بصيده كان أهل القرية يظنون أن اصطياده عن طريق الأفخاخ، فهو أيضا كان يزرع الأفخاخ لصيد الطرائد، والجميل أن عبود تعلم صنع عدة أنواع من تلك الأفخاخ، فلكل طريدة فخ مخصص لها. استمرت جدتي في البحث عن عروس حتى وجدت، فهي عنيدة جداً ولحوحة جداً.

وافق عبود على الخطبة من تلك الفتاة التي كان اسمها "سعاد"، أصرت جدتي على أن تحتفل بالخطبة احتفالاً كبيراً ، فنصبنا خيام الاحتفال، ودبك الشباب ووزّعنا الكنافة.

رغم خطبته، إلا أنه استمر بنفس الروتين السابق، ولم يغير منه شيئاً ، وعندما كانت جدتي تعاتبه لأنه لا يزور منزل خطيبته إلاّ قليلاً، كان يرد عليها قائلاً: بكرة بتجوز وبتزهق مني وبزهق منها، كل شيء بوقته حلو يا حجة.

في أحد الأيام، عاد مبكراً من صيده أي في حوالي الساعة السابعة صباحاً، فلقد كان صيده وفيراً ذلك اليوم، وضع الصيد بعد أن سلخ لحم الغزال وقطعه عند أمي وجدتي، لكي يعدانه على الغداء، ولأن ذلك اليوم كان يوم جمعة، فانطلق إلى الأرض لمساعدتنا أنا وجدي ووالدي لأننا كنا نعود يوم الجمعة مبكرين قبل موعد الصلاة.

عندما وصل إلينا، لم نكن نقوم بحراثة الأرض ولا قطف الثمار، كنا نتعرض للضرب المبرح من قبل مجموعة كبيرة من المستوطنين، والمسلحين كانوا يضربوننا بالعصي وبأعقاب البنادق، كانت دماؤنا تسيل من كل أنحاء أجسادنا، وصل عبود وعلى الفور بدأ بالركض باتجاهنا، وقبل أن يتمكن من الوصول لنا، وصلت له عدة رصاصات أصابته في أماكن مختلفة من جسده.

لم يتوقف المستوطنون الصهاينة من الاعتداء علينا، بل زاد ذلك الاعتداء شدة، وتحول إلى إطلاق للنار، أصيب والدي وجدي، أما أنا فلم أصب، فرّ المستوطنون وملأ جيش الاحتلال أرجاء القرية وكلّ المكان.

تم نقلنا كلنا إلى المستشفى، وقبل حلول المساء تمّ الإعلان عن استشهاد جدي ووالدي، واعتقلت أنا وعبود رغم إصابة عبود بعدة رصاصات، ورغم إصابتي بعدة كسور.

شُيعت جثامين الشهداء بحضور الآلاف من سكان القرية، وسكان القرى المجاورة كلهم كانوا هناك، إلا أنا وعبود، كنا ورغم حالتنا نخضع للتحقيق طوال أيام متتالية، وقبل أن نشفى من جراحنا، حكم علينا الحاكم العسكري بالسجن مدة عام ونصف، كل ذلك حدث دون أن نعلم أن جدي ووالدي قد استشهدا.

عندما علمنا بذلك، كنا داخل أحد السجون، ولقد أخبرنا بذلك أحد الأسرى القدامى، فمثل تلك القصص تصل إلى أي أحد.

أول ما قام عبود بفعله عند وصول ذلك الخبر هو أنه دخل على الحمام وكسر عصا المكنسة، وجعلها أقرب ما يكون لنصل السكين، وبمجرد دخول أحد الضباط الذين يقومون بعد الأسرى ثلاث مرات باليوم، قام عبود بطعنه عدة طعنات فقتله بتلك العصا التي كانت أفضل ألف مرة من أي خنجر أو سكين، انهال الجنود السجانون على عبود بالضرب المبرح بالعصي، ورغم أن عبود لم يتعافى من جراح الرصاص الذي أصابه، ورغم أن عبود كان ينزف وبغزار، إلا أنهم استمروا بضربه بعد أن قاموا بإخراجه من الغرفة التي كنا فيها، تعرضت أنا وكل الذين كانوا في تلك الغرفة للضرب أيضاً.

بعد ذلك تم وضع عبود في زنزانة انفرادية، بقي فيها قرابة العام الكامل، ثم تم إخراجه بعد أن حكم عليه بالمؤبد، والمؤبد في المحاكم الصهيونية هو تسعة وتسعون عاماً للأسير العربي الفلسطيني... أي طول الحياة.

عند خروجه من زنزانة العزل، التقينا أنا وهو وأمضينا ما يقارب الستة أشهر، تم إطلاق سراحي بعدها، وبقي عبود وحده في الأسر، عدت إلى منزلي الذي أصبح أقرب ما يكون لبيت عزاء لا ينتهي، فحتى المهنئين الذين كانوا يهنئونني بعودتي وبخروجي من الأسر، كانوا يعزونني أولا باستشهاد جدي، ووالدي، وجدتي، فلقد ماتت جدتي حزناً على مقتل جدي ووالدي وعلى أسري أنا وعبود، بقيت أنا وأمي التي أصبحت لا تتكلم إلا قليلاً جداً، فالحزن قتل قلبها والأسى ملأ صدرها.

أردت الهرب من ذلك الواقع الأليم، فصببت كل اهتمامي على الدراسة، نجحت في الثانوية العامة، وقبلت في الجامعة، وقبل أن أنهي الفصل الأول، كنت قد انضممت إلى إحدى فصائل

المقاومة ذات التوجه الإسلامي، فلقد اتخذت ذلك القرار منذ زمن، منذ أن كنت في الأسر، حيث كان عبود قد سبقني إلى الانضمام إلى ذلك الفصيل المقاوم..

مضت الأيام، بل مضت الأسابيع والأشهر، مضى عام على انضمامي للمقاومة، وأصبحت في السنة الجامعية الثانية.

أما عبود فلقد تخرج من جامعة الأسر، تخرج وبامتياز، فلقد حفر عبود وعدد من أخوته الأسرى نفقاً من داخل غرفتهم في السجن إلى أحد الحقول المجاورة، واستطاع عبر ذلك النفق أن يفرّ هو وكل من كان معه في الزنزانة... خرج للحرية، وليس هناك هدف أو سبب يجعله يتمسك بالحياة، سوى مقاومة الاحتلال، بكل الوسائل وبكل قوة.

بمجرد هروب عبود ومن معه من قبضة الاحتلال، بدأت الملاحقة والمطاردة، في تلك الأثناء كان عبود أعد العدة وهيأ في الخارج كل ما يحتاجه من أماكن للمبيت ومن وسائل قتالية، ووسائل للنقل والمواصلات، فلقد خرج عبود ومعه خطه كاملة أعدها ومن معه من أجل مقاومة الاحتلال بطريقة ناجحة وناجعة.

فلم يعد عبود ذلك الفتى الذي يلقي الحجارة فيعتقل على الفور، ولم يعد ذلك الشاب الذي يهجم بصدره العاري للتصدي للمستوطنين المسلحين فيصاب، وينجو من الموت ليحكم عليه ظلماً بعام ونصف، ولم يعد أيضاً ذلك الشاب الذي قام برد فعل قوي جداً جداً عندما قتل الضابط بالعصا فحكم عليه بالمؤبد.

أصبح عبود أبو الشرار رجلاً مقاوماً متديناً، يعرف دربه ويعرف كيف يقاتل عدوه، فلقد صنع الأسر من عبود نوعاً من المقاتلين المتميزين، فتعلم كيف يصبح جندياً منضبطاً.

أول ما فعله بعد خروجه من الأسر هو أن أرسل لي لك أحضر لمقابلته، وفعلاً حضر على الفور، وكلمة على الفور تعني بعد عدة أيام من المراوغة والتمويه على عيون عملاء الاحتلال لكي أتمكن من تبرير غيابي عن منزلي وعن والدتي.

والدتي التي ما أن علمت بخروج عبود حتى قالت لي: لقد حان الوقت يا بني لأن تخرج أنت أيضاً من الجامعة ولتبدأ بمقاومة قوات الاحتلال والمستوطنين، أمي تلك المرأة التي مزّق الحزن قلبها، ودفعتني بكل قوتها إلى درب المقاومة.

كانت تتحدث لي بكل ثقة وقوة وحزم، لا أعلم إن كانت تنتظر مثل تلك الفرصة أم أنها كانت تعد لمثل تلك الفرصة، فأنا كنت أخشى أن أقدم على أي عمل يؤدي الى اعتقالي، ليس خوفاً علي وإنما خوفاً عليها هي، فلقد كنت أعتقد أنه في حال عودتي إلى المعتقل سوف تسوء حالتها، وقد يحدث لها ما سبق وأن حدث لجدتي، أي ببساطة أن تموت حزنا عليَّ، لكنها كانت حزينة مع احتفاظها في داخلها بمقدار كبير من الكراهية لذلك العدو الصهيوني.

هي أرادت لي أن أقاوم، وأنا أردت أن أقاوم، أما عبود المقاوم فأراد شيئا آخر، أراد أن يسلم علي وأن يوصيني بأمي، وأن يعطيني أوراق ملكية أرضه ومنزله في القرية.

رفضت ذلك وقلت له لن أعود، فلا تحاول، ولا تتعب نفسك، أنا هنا لكي أبقى، ابتسم وقال: إذاً قبل أن تبقى اذهب إلى القرية وقم بيع كل ما أملك، وأنا سوف أذهب إلى البنك لأسحب ما أملك من مال، وعندما ننتهي من البيع أكون أنا قررت ما سوف نفعل.

عدت أدراجي للقرية، وعن طريق تلك الوكالة التي أعطاني إياها عبود، بعت بشكل سري ودون إثارة أي نوع من الضجة ما كان يملكه عبود، وأحضرت المال له حيث كان ينتظرني، وفي تلك الأثناء كان عبود قد اشترى عددا من الأسلحة المختلفة، وعدد من السيارات.

أعد عبود العدة للمقاومة بشكلٍ مدروس ومحسوب، عبود أبو الشرار أصبح قائداً وأصبحت كل أجهزة أمن العدو الصهيوني تلاحقه، أما هو فكان يلاحقهم بتنفيذ العملية تلو العملية، لم يكن عبود يكل أو يمل، بل على العكس كان يوقع في لك العدو من قوات جيش ومن مستوطنين، أكبر الخسائر وأفدحها على الإطلاق.

وعندما لا يكون هناك هجوم يذهب كما يقول للصيد... يصيد شيئا آخر ليس الغزلان أو الخنازير البرية كما كان يفعل قبل أسره، وإنما صيد تلك الخنازير البشرية، وكان لا يعود إلا بالصيد الوفير.

أما أنا فلقد أصبحت مطارداً أيضا، أساعده في كل أموره وأقاتل معه جنباً إلى جنب.

عندما كان يمكنني العودة إلى قريتي متخفياً، كانت أمي دائماً وقبل أن تسألني عن أحوالي، تسألني عن أحوال عبود.

في إحدى المرات، أحضرنا والدتي عندنا لكي تسكن عدة أيام، فكانت اسعد أيامها، كانت تعد لنا كل أنواع الطعام التي كنا نشتاق إليها، بعد أيام قمنا بإعادتها إلى القرية، لكنها عندما عادت، لم يعد ذلك الحزن معها، فلقد شفي قلب أمي وكف عن النزف حزناً على والدي وجدي وجدتي، عادت فخورةً سعيدة، عادت متحديةً صلبة، لقد أحست أمي أنها أخذت بثأرها ممن قتل أحبتها، بل أحست أنها ثأرت ممن قتل أحباب فلسطين.

طوال تلك الفترة كانت قريتي تتعرض للمداهمة من قبل جنود قوات الاحتلال، وبالأخص فقد كان منزلي من أكثر الأماكن تعرضاً للمداهمة، لا لشيء سوى للتخريب والترهيب والتنكيل.

فهم يعلمون أنني وعبود لم نعد إلى القرية منذ أن بدأنا مقاومتنا لهم، أما الأهم فهم أولئك المستوطنون، فلم يعد لهم وجود إطلاقاً في منطقتنا، فلقد لقناهم الدرس تلو الدرس، وكنا نهاجم المستوطنات التي تحيط بقريتنا والقرى المجاورة باستمرار دون كلل أو ملل.

عندما لم يتمكن جيش العدو الصهيوني من الوصول إلي وإلى عبود، قام بأكثر أعماله نذالة ودناءة على الإطلاق، فلقد قاموا بمهاجمة منزلي بحجة وجودي بداخله، وبدؤوا بإطلاق النار والقذائف باتجاه المنزل طوال الليل، بحجة أن هناك من يقاوم بداخل المنزل، وأنهم يردّون عليه.

أما في الحقيقة، فلم يكن في المنزل سوى أمي.. أمي وحيدة بعد أن فقدت الزوج والأب والأم، وبعد أن طردوا الابن الوحيد، والابن الآخر عبود، كانت وحيدة مع مجموعة من صور الشهداء بلا حول ولا قوة، وبدون إنذار بدؤوا بإطلاق النار... وصبوا حمم مدافع الغدر والكره الصهيوني المتجذر ضد كل ما يمت لفلسطين بصلة، لم يكتفوا بذلك بل أحضروا جرّافة لكي تهدم المنزل فوق جثة أمي، فحوّلت الجرافة المنزل إلى كومةٍ من الحجارة المدمّرة.

بعد ذلك، أعلنوا عبر مكبرات الصوت أنهم قد قتلوا المخربان عبود ووسام.. في البداية، صدّق أهل القرية تلك الكذبة، ولكن سرعان ما ظهر زيفها، فعندما أزال أهل القرية الركام، لم يجدوا غير جثمان أمي... أمي أم وسام وعبود، زوجة الشهيد وابنة الشهيد.

وما أكّد لسكان القرية كذب تلك الرواية الدنيئة التي روّجها الاحتلال، هو نحن، فلقد حضرت مع عبود إلى القرية وحضر معنا عدد كبير من المسلّحين، وسرنا حاملين جثمان أمي لنصلي عليه ثم لنضعه بجوار أبي وجدي وبجوار من سبقوها من شهداء رحمة الله على كل الشهداء في أي مكان وأي زمان.

أدرك القرويون كذب الادعاء الصهيوني، وأدركوا شيئاً آخر، أدركوا أن ردنا سوف يكون رداً قوياً مزلزلاً، هذا ما قالوه صغارهم وكبارهم... أما نحن فلم نقل شيئاً، ولم ننطق بأي كلمة بعد أن انتهينا من تتبع جثمان أمي، ذهبنا نحو منزلنا لنلقي عليه نظرة، فلم نجد أي منزل.. وجدنا كومة، كومة من الصخور المحطمة.

تلك المرة الوحيدة والأخيرة التي بكيت فيها، بكيت بحرقة وألم على فراق أمي، فالبكاء على الأم لا يمكن منعه مهما حاولنا.. حتى عبود بكى وبكى.. وبكيت، وبكيت.

الردّ قادم، هكذا قال أهل القرية، الرد قادم.. أعددت أنا وعبود حزامين ناسفين، وارتديناهما حول خصرينا، وانطلقنا وحيدين نحمل بنادقنا، داهمنا أحد معسكرات الجيش، وبدأنا بإطلاق النار وإلقاء القنابل اليدوية، بعد ذلك حاصرنا عدداً من جنود الاحتلال وفجّرنا نفسينا بأولئك الجنود، وذلك العسكر هم من قتلوا أهلي ودمّروا منزلي وقريتي.. فجرنا أنفسنا، فكنا استشهاديين.. أخلصنا النية لله، فأعاننا الله على النيل من عدونا، بل من عدو أمتنا العربية والإسلامية، ذلك العدو الذي احتل أرضنا بعد أن أعطى من لا يملك لمن لا يستحق، بعد وعد ذلك اللعين بلفور الذي أعطى أرضنا التي لم يكن يملكها للصهاينة الذين لا يستحقون.. إلى أولئك المتآمرين ناكثي الوعود وخائني العهود، أولئك الصهاينة من قتلوا أبي وجدي، واليوم قتلوا أمي وأم عبود.. عبود أبو الشرار.

قد يظن البعض أن الحطب يمكن أن يخنق الجمر، وذلك غير صحيح، فلو هبّت نسمةٌ واحدة من الريح، لتحوّل الجمر إلى شعلةٍ.. إلى شرار.. إلى نار تثور وتثور.

تثور النار إن حقنت بالحطب
وتحرق كل من للحق اغتصب
فكيف لا يثور أبو شرار وقد غضب
على دم شعبه الذي ينسكب

كيف لا يثور على دم جده وجدته، وكيف لا أثور أنا على دم أمي وأبي، كيف لا نثور كلنا على فلسطين التي تنهب يوماً بعد يوم.. فلسطين التي تستنجد بنا كلنا.. كلنا.

عبد الرؤوف أبو شرار ثار وألقى الحجارة، ثم الرصاص، ثم فجّر نفسه.. لعله يترك خلفه شرارةً واحدةً تعيد إشعال الثورة في ارض الرباط.. أرض المرابطين.. فلسطين.. فلسطيننا فلسطينكم.

أليس الرسول عليه السلام وجّه وجهه إلى أولى القبلتين؟ ألم يعرج من هناك من حائط البراق من فلسطين؟... أليست القدس هي ثالث الحرمين؟؟ شدوا الرحال إليها، إنها تستغيث بكم.. أسرجوا سراجها بالزيت.. بالزيت أو بالدماء إن لم تجدوا زيتاً.

منذ ذلك اليوم، الذي هدم فيه الاحتلال بيتي على جثة أمي لم يعد اسم قريتي قرية أبو الحطب، فلم يعد هناك حطب بل هناك جمر ونار وأبو الشرار... أصبح ذلك هو اسم قريتنا "قرية أبو الشرار" أصبحت قريتي منبعاً للشرر الذي يلهب ثورة شعبي.

أصبحت قريتي قرية الأشبال الذين تحوّلوا إلى أسودٍ.. أسود دافعوا عنها بشرف، واستشهدوا بشرف.

عندما كتبت وصيتي رفض عبود كتابة وصيته وعندما ألححت عليه بالسؤال عن سبب رفضه لكتابة وصيته، قال لي كلمة جعلتني أدرك من هو عبود أبو الشرار.. عبود الذي قال وهو مبتسم الوجه، الوصية تترك للأحياء من بعدنا، أما أنا ما الذي أتركه من بعدي، فوالداي ماتا ووالداك استشهدا، وجدي وجدتي لحقا بهم، فلمن أترك الوصية... أنا وصيتي هو جسدي الذي سوف تصبح عظامه شظايا تتناثر لتقتل عدوي.. عدوي الذي تجبّر وطعن.. وصيتي سوف تصل إلى كل من أحب.. فلسطين والقدس والأقصى بمجرد أن تصل روحي إلى السماء، إلى هناك بإذن الله.. إلى جنات الخلد عند من أحب.

وصيتي هي أنا وأنت يا وسام، وما فعلناه هو الثورة على الظلم والطغيان... هي أن لا نقبل الذل، وأن نستشهد رافعي الرأس مكبرين بصوتٍ عالٍ.. الله أكبر.. الله أكبر، قال لي عبود ذلك ولم يكتب وصيته، فأردت أن أكتب ما قاله ليصل إليك أنت.. وإليكِ أنتِ.. إلى كل حرّ.. إلى كل شبل إلى كل ثائر.. إلى الأحرار.

هذه كلماتي قبل استشهادي واستشهاده... هي لكم، أمانة في أعناقكم... إياكم ثم إياكم والركوع لغير الله...

أخواكم وسام وعبد الرؤوف أبو الشرار.. أبناء قرية أبو الشرار والثورة والثوّار.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 3 "

ظلٌ من بعيد

أنهيت دراستي الآن.. غداً صباحاً يجب أن أواجه امتحان مادة الرياضيات، وهي مادة لا أحبها، وأعتقد أنها لا تحبني هي الأخرى، فعندما أنظر إلى الأشكال الهندسية مثل تلك الأشكال البسيطة كالمربع، فأنا أرى بداخله عينين براقتين تنظران إلي بحدة، فأزيح وجهي مخبئاً عينيّ بعيداً، وإذا صادفت دائرة مثلاً فإنه على الفور تعود تلك العينان الحادتان مع امتزاجهما بنوعٍ من المكر.

أكره الأشكال الهندسية وأكره الرياضيات، وها أنا أقفلت كتابي، فلقد أكملت دراستي، فلعلي غداً أواجه ذلك الامتحان الذي أمقته.

وضعت رأسي على الوسادة، وتركت النافذة مفتوحة، فحرّ الصيف يقتلني لكن لا بأس به، فهو أفضل من الشتاء الذي لا أوده ولا يودّني.

آهٍ من تلك الشمس التي سوف تدخل غداً بعد الفجر، لتتسلل من النافذة دون إذن، ودون استئذان, آهٍ منها.. سوف تلقي على وجهي بأشعتها الحارقة التي أمقتها هي الأخرى، ولكنها هي... وهي فقط من توقظني من نومي، فأمي تتركني لأنها إن أيقظتني سوف توقظ ما تسميه هي آلاء أميرة التذمر، آلاء التي لا يعجبها العجب، فتتركني أمي للشمس، وأنا أترك نفسي أيضا للشمس.

نسيت أن أقول لكم إن اسمي هو "آلاء"، آلاء وفقط أنا لا أتذمر، ولا أتأمر.

فأمي مثل كل الأمهات لا يعجبها العجب، ولا الصيام في رجب، أبت أنني أنا ككل البنات...

ويلك أيتها الشمس، لماذا لم تشرقي اليوم؟ أين كنتِ ؟ وما ذلك الظل الذي يحول بيني وبينك؟ ألا تعلمين أنني يجب أن أستيقظ باكراً كي أصل باكراً وأنهي امتحاناتي باكراً ؟ ويلكِ مني أيتها الشمس.

بتلك الكلمات بدأت نهاري، فلم أستيقظ على موعدي المحدد، لكن الشمس كانت مكانها هناك بعيدة قريبة، ترسل أشعتها كالمعتاد، ولكن هناك كان ذلك الظل... الظل... ويلك مني لماذا أتيت؟ ومن أين أتيت؟

لن أستظل بأي ظل، الآن سوف أسرع لأستقل الباص، لعلي ألحق امتحاني، فاليوم آخر الأسبوع، وغداً سوف تكون العطلة، وعطلتي عطلتين، فرحتي فرحتين، فلقد اجتزت امتحان الرياضيات وسوف أنام طويلا.

صعدت في الباص، ولكنه بعد أن كان مسرعاً أول عدة كيلومترات، أبطأ، بل توقف ذلك الغبي، توقف وسوف أتأخر، ألا يكفيني ذلك الظل، وها أنا الآن مع سائق حافلة يبطئ ويبطئ فيتوقف، أو يكاد يتوقف.

ما هذا الذي تقوله؟ وكم عدد المصابين؟ وما الذي حصل؟ قل لي بالتفصيل. هذا ما سمعت سائق الحافلة يقوله وهو يتحدث عبر هاتفه النقال.

ثم بعد ذلك استدار ناحيتي وناحية ركاب الباص وقال: لقد تعرضت الحافلة التي تقل فتيات الجامعة لحادث، وهناك ثمان طالبات نقلن إلى المستشفى، وأما باقي الطالبات فيعالجن في مكان الحادث.

لم أسأل عن التفاصيل لكنني قمت وعلى الفور بالاتصال بعددٍ من هواتف صديقاتي اللواتي كن في الباص، وها أنا أنتظر مريم لترد فهاتفها يرن.

ألو مريم، أنا آلاء، شو اللي صار؟ قولي بسرعة.. شو أقول؟ ولك قولي بسرعة شو اللي صار.. طيب، طيب، ثمانية بالمستشفى والباقي هنا حولي يبكين ويتوجعن، وأنا الأخرى أبكي وأتوجع، لكن إنتِ وين؟ قالت هي...

أنا هنا في الباص الثاني، فلقد تأخرت بسبب الشمس... لا، لا، أقصد بسبب ذلك الظل الغبي.. ياللا سلام أنا قادمة...

تركت الباص وسرت مشياً على الأقدام حتى وصلت إلى مكان الحادث، عندما وصلت كانت الأمور هادئةً نوعاً ما، فلقد كفت البنات عن البكاء بعد أن علمن أن من تم نقلهن للمستشفى هنّ بحالة جيدة ولا خطر عليهن.

رأيت مريم وعانقتها، فهي أعز صديقاتي منذ أن كنا ندرس بروضة الأطفال... بعد العناء سألتني على الفور لماذا تأخرت؟ لقد حسبت أنك ذهبت قبلي إلى الجامعة لتدرسي قليلا قبل الامتحان. هل تعلمين أن سمر التي جلست مكانك في الباص نقلت إلى المستشفى وأظن أن يدها وأرجلها قد كسرتا... آه منك يا محظوظة.

قبل أن أجيب، قلت شكراً للشمس التي... لا شكراً للظل الذي أظل علي فلم أستيقظ، نعم، شكراً للظل، ولا وألف لا للشمس، فلو أنها أيقظتني لكنت هناك في المشفى أجبّص يداً وأجبّص قدماً، شكرا للظل... نظرت إلى مريم وقالت: والله إنك مجنونة، شو شمس وشو ظل، وأكملت: الله يشفيكِ... يلا على العصفورية يا هبلة على العصفورية.

ضحكت فضحكت رغم ألمها وإصابتها البسيطة...

اتصلت أمي وهي تبكي وتصيح... يا يامه يا حبيبتي، يا آلاء قولي.. قولي يا يمه شو صار فيكي، قولي يا حبيبتي ولا تخبي علي، قولي مشان الله قولي.

أنا ما كنتش بالباص إللي صار معه الحادث، أنا كنت بالباص الثاني... قالت أكيد يا يمه... قلت: والله أكيد.. قالت: طيب خلص سلام بلاش يخلص كرت الجوال...

سمعت مريم المكالمة، فقد كنت أضع سماعة على أذني وسماعة على أذن مريم.. ضحكت وقالت: الآن فقط عرفت أنت جايبة هذا الهبل إللي فيك من وين... وأكملت اقلب الطنجرة على تمها بتطلع البنت لأمها.

يا هبلة يا بنت الهبلة... ضحكت، فعاودت هي أيضا الضحك من جديد.

شو رأيك ما نرجع على البيت وما نروح على الجامعة، شو رأيك أنروح على نابلس؟ والله العظيم إنك هبلة. قالت هي... قلت أنا بالله قومي خليني أوقف تكسي ونروح نفطر وننبسط احتفالاً بسلامتك واحتفالاً بإيدي ورجلي إللي ما انكسروا... قالت: طيب زي ما بدك، بنروح على نابلس بنفطر وبعدين بنطلع على مستشفى رافيديا علشان نطمئن على البنات.. طيب... قلت: أيوه هيك بدي إياك ترجعي مريم الهبلة زي ما كنتِ... تعرفي إني فكرتك اعقلتي بعد الحادث... رددت هي: ولك وقفي تكسي وبطلي حكي، اتحركي.

أوقفت سيارة تكسي متجهة إلى مدينة نابلس، وسرعان ما وصلنا إلى هناك، فقريتنا كانت تقع على أطراف تلك المدينة الجميلة.

على الدوار، نزّلنا على الدوار، قلت لسائق التاكسي... فأنزلنا هناك على الدوار، فقطعنا الشارع باتجاه مطعمنا الخاص، وهو مطعم يبيع مختلف أنواع الساندويشات.

فطلبنا اثنتين وبدأنا نأكل... لم نكن نتحدث عندما كنا نأكل... فأنا وهي كنا لا نتحدث لأننا كنا منشغلات بمراقبة المارة... فتلك عادة وهواية نمارسها منذ اليوم الأول الذي نتناول فيه طعامنا في ذلك المطعم، عندما حضرنا لكي نسجل أنفسنا بجامعة النجاح الوطنية، وفي ذلك اليوم أكلنا وشاهدنا الناس المارين في شوارع نابلس، فتلك المرة كانت الأولى لي ومريم لأن نحضر إلى نابلس، وحيدتين بدون أمي أو أخي أو أمها أو أخيها، لقد شعرنا في تلك المرة الأولى بنوعٍ خاص من الحرية.. في ذلك اليوم تجولنا في شوارع وأزقة نابلس، البلدة القديمة ابتدأنا من معاينة صناعة الصابون، مروراً بمحلات صناعة الكنافة... الكنافة النابلسية، تلك الكنافة المصنوعة بالجبنة البيضاء المحلاة بالقطر والمزينة بالمكسرات... آه من طعمها الرائع...
يلا خلصي ساندويشتك، بدنا انروح نوكل اكنافة... قلت لها.

قالت: والله إنك هبلة، في حد يوكل كنافة بعد هالمصيبة، بعد الحادث، ياللا على المستشفى ياللا...
قلت: بالله عليكي يا مريم، بنوكل اشوية كنافة وبعدين بروح أطل على البنات في المشفى، بالله بالله عليكي.

قالت: طيب.. طيب... أصلا أنا لازمني غدا بعد هالخوفة إللي خفتها بالحادث... اسمعي اطلبي الك أوقية كنافة واطلبي إلي أوقية وكمان طاسة.

قلت: طاسة؟
قالت: آه طاسة... طاسة رعبة ولك.

قلت: حاضر زي ما بدك.
ذهبنا إلى إحدى محال الحلويات، فأكلنا الكنافة بذلك الجبن الذي يمطّ، وذلك القطر الذي يقطر، زاكية والله زاكية قلت... قالت: طبعاً زاكية مش كنافة نابلسية؟؟

تركنا محل الحلويات ومشينا قليلاً، ثم ذهبنا إلى المشفى، هناك كان أهل القرية كلهم قد ملئوا المشفى، وكانت هناك أم مريم غاضبة على مريم، فقد ظنت أن مريم من الفتيات المصابات اللواتي نقلن إلى المشفى، رغم تطمين مريم لأمها، إلا أنها بقيت تبكي... لا أدري هل كانت تبكي لأن ابنتها مريم لم تصب أو لماذا... آه من الأمهات يغضبن فيبكين، ويفرحن فيبكين... قلت لها: يا خالتي يا أم مريم، مدام الله سلَّم إلك مريم، شو رأيك بعد ما اطمأنينا على البنات، وهاي مريم ما شاء الله زي القرد... وإلا أقولك زي القط بسبع أرواح؟ إن إحنا كمان انروح نروِّح.

قالت: ولكي إنتي حسابك هناك عند أمك.

تركت المشفى بعد أن مررنا على أحد محلات الحلو لنشتري عدة كيلوجرامات من البقلاوة... فلقد كنا نعلم أن المهنئين بسلامة مريم سوف يملئون ذلك المساء منزلها.
وصلنا القرية بعد العصر بقليل، نزلت مريم وأمها من التاكسي وقلت لها: سوف أحضر مساءً، لا تأكلوا كل البقلاوة، بقيت بالتاكسي حتى وصلت إلى منزلي.

أمي كانت تنتظرني على الباب، تنتظر وهناك دموع مختبئة بعيناها، رغم أنها تكلمت معي عبر الهاتف الجوال أكثر من عشرين مرة منذ الصباح، ورغم أنها تأكدت أنني لم أكن في ذلك الباص أصلا، ورغم أن أم مريم طمأنتها، إلا أنها كانت واقفة حابسة دمعتها وتنتظرني، لم تكلمني، بل احتضنتني وعانقتني طويلاً، أحسست ببكائها الصامت... أبعدتني عنها وقالت بصوت غاضب: ولك، ولك يا هبلة، ليش ما رجعتي على البيت على طول... لازم اتروحي على المستشفى؟ ولا أقول لك؟ امنيح إنك رحتي على الستشفى علشان تتطمني على صاحباتك طالعة لأمك بنت أصول... ابتعرفي الواجب.

كانت أمي تسأل وتجيب نفسها بنفسها، فتلك الأسئلة والأجوبة بالتأكيد كانت تدور برأسها منذ ساعات الصباح، فهي أمي وأنا التي ربيتها، أقصد هي أمي وهي التي ربتني... فأنا وأمي كنا مثل الصديقتين، فأمي قد تزوجت وهي بعمر السادسة عشر وأنجبتني قبل أن تكمل عامها السابع عشر، فلذلك نحن قريبتان في العمر وحتى في التفكير والتصرفات، وإذا ما مشينا في السوق والتقت بي إحدى صديقاتي في الجامعة، فإنها لا يمكن أن تصدق أننا أم وابنتها، فأمي ما زالت تحتفظ بقدر كبير من جمالها وأناقتها.

فأنا الآن أبلغ من العمر سبعة عشر عاما، أما هي فتبلغ من العمر ست وثلاثون سنة.. أمي من النوع المرح الذي لا يبحث عن المشاكل أبداً، وأبي أيضاً كان من ذلك النوع. أما ذلك الغبي أخي الذي يصغرني بعام واحد سليم، فهو أبو المشاكل منذ أن كان في بطن أمي، نزل ونزلت مع المشاكل.

فهو إن لم يجد أحد ليتقاتل معه فإنه يتقاتل مع ذباب وجهه، كما كانت تقول له جدتي... تلك لجدة التي أعشق الاستماع إلى حكاياتها ولقصصها التي لا تنتهي أبداً، فجدتي لا تنضب من الحكايات، فهي نهر يجري بلا توقف، كانت منذ صغري تقص علي تلك القصص التي يكون أبطالها دائماً من الفتيات... الفتيات فقط لا غير، فكل قصص وحكاوى جدتي لا رجال أبطال بها أبداً...
لذلك أعتقد أنني اكتسبت قوتي وثقتي بنفسي من تلك القصص، بل من جدتي، لا بل من أمي، فأمي أيضاً كانت دائماً ترى فيَّ الأميرة التي سوف تحقق كل الأحلام لي ولها.

ما أنت انتهت أمي من عناقي وعتابي، حتى جاء دور جدتي التي فعلت معي نفسي ما فعلت معي أمي، إلا أنها زادت تأنيبي، فلقد قرصتني قرصة جعلتني أتألم قليلاً، وقالت بمزح: المرة

القادمة إن حدث ما حدث لا سمح الله، بترجعي على البيت بتطمنينا وبعدين بتروحي على المستشفى، طيب يا آلاء... قلت أنتي بتأمري يا أحلى وأروع جدة بالدنيا، بس إنتي كمان المرة الجاي بلاش تقرصيني يا تيتة يا عسل.

عندما حلّ المساء، اصطحبت أمي وجدتي إلى منزل مريم... وأمضينا طول السهرة ونحن نضحك على ما فعلناه أنا ومريم في ذلك الصباح.

لكنني قبل أن أعود إلى بيتي قالت لي مريم: صحيح امتحان الرياضيات اتأجل إلى ما بعد إجازة الأسبوع، يعني اليوم وبكره وبعده راحة، ويوم الأحد جهزي حالك للامتحان... ما أن أكملت جملتها حتى أصبحت غاضبة... غاضبة بشكل ما، وسعيدة بشكل ما، ظللت خلال طريق عودتي مع والدتي وجدتي إلى منزلنا صامتة، أفكر بذلك الظل الذي أنقذني من ذلك الحادث... أكنت أحلم مثل عادي.. أم ماذا...

عندما وصلنا إلى البيت عاودت جدتي وأمي تقبيلي مرة ثانية، لكن هذه المرة بدون عتاب وبدون قرصة من جدتي، دخلت بعد ذلك إلى غرفتي فجلست على المقعد خلف طاولتي وأمسكت دفتر مذكراتي، ودونت كل ما حصل معي في ذلك اليوم... المشمس... أقصد المظل.

أطفأت النور ووضعت رأسي على الوسادة ورددت تلك الكلمات التي كنت قد قرأتها منذ زمن بعيد جداً، الحياة هدية من الله سبحانه وتعالى، ولكل مشكلة حل... لذلك توكلت على الله وسوف أعيش سعيدة.. فأنا من ذلك النوع الذي يرى النصف المليء من الكأس، ويأمل أن يملئ النصف الآخر.

فذلك الأمل بيوم جديد أكمل به ما لم أستطع إكماله اليوم، هو ما يدفعني لأقبل على الحياة ويجعل حياتي تسير نحو المستقبل بلا كلل ولا ملل.

انتهت عطلة نهاية الأسبوع، واستيقظت باكراً بعد أن دقّ جرس ساعة المنبه، فلم أعد أعتمد على الشمس خوفاً من الظل... رغم أن الظل قد أنجاني بفضل الله، إلا أنني كنت ما عدت أرغب أن أترك الأمور كما كانت قبل تلك الحادثة، التي وقعت لهن ولم تقع لي.

آهٍ يا ويلي، فبمجرد صعودي إلى الباص وقبل أن أسلّم على مريم، قالت لي: إن شاء الله جاهز للامتحان؟ قلت: جاهزة للرياضيات، وللدوائر والمثلثات، اسمّع الك.. واحد زائد واحد...
قالت: اثنين... هبل.
قلت: واحد اسمه مريم.
قالت: وواحد اسمه آلاء.

ضحكت، ضحكت... كم أكره الرياضيات.

رغم أنا كنا طالبات في السنة الثانية من الجامعة، إلا أننا كنا بلا هموم تشغل بالنا... حتى أنني ما زلت في بعض الأحيان أعتقد أننا ما زلنا في روضة الأطفال.

بعد أن وصل الباص هذه المرة بسلام إلى مدينة نابلس لنصل نحن أيضا بسلام إلى الجامعة، وبعد أن مرّ امتحان الرياضيات أيضا بسلام، خرجت بصحبة مريم لنبحث عن مكان نجلس فيه بساحة الجامعة... بحثنا عن مكان بلا شمس، مكان تصله الظلال، فلم نجد فبقينا واقفات في ظل غيمة ضلت طريقها في سماء الصيف الصافي.

سرعان ما تجمع حولنا بسبب ذلك الظل عدد من الفتيات لنبدأ بعد ذلك الحديث منتقلين عن ما حصل يوم الخميس الماضي، وعن ما حصل اليوم في ذلك الامتحان... لنصل إلى حديث من نوع آخر، حديث لم أكن ممن يحبونه وهو الحديث عن الانتفاضة وعن مآسيها، وعن ذلك الدمار والموت الذي يلاحق كل من يسكن بفلسطين... فلسطين المحتلة وفلسطين الأسيرة.
هو حديث لا أحبه، أهرب منه، لكن هذه المرة هو من لحق بي بسبب تلك الغيمة التي باتت هي الأخرى تطاردني، فبسبب ظلها اضطررت لسماع الحديث، لكنني بقيت صامتة، أما مريم فهي لم تكن مثلي، فهي رغم ما بها من طفولة، إلا أنها كانت في بعض الأحيان قوية.. قوية جداً، فهي ناشط فاعلة في إحدى فصائل المقاومة... توزع المنشورات تارةً، وتعد وتساعد في انتخابات مجلس طلبة الجامعة، وتتظاهر في ساحات الجامعة إذا دعت الحاجة إلى التظاهر ضد حدث ما، وما أكثر الأحداث هنا في الجامعة في نابلس، في فلسطين المحتلة.

رغم ذلك الاختلاف بيننا إلا أنني كنت أساعدها في بعض الأحيان، وخاص في موضوع توزيع المناشير، ليس لأن ما بداخل المناشير يهمني، ولكنني كنت أريد أن تنتهي مريم من تلك المهمة بسرعة عبر مساعدتي إياها، كي يبقى لنا متسع من الوقت لكي نقف أو نجلس لنثرثر كعادتنا.

مريم تعلم جيداً عدم اهتمامي بتلك المواضيع التي أسميها مواضيع موجعة للرأس... وجالبة للمشاكل. فلذلك لم نكن تحاول أبداً إقحامي في مثل تلك الأمور، بل كانت حاول إبعادي عن تلك الأنشطة... لم أكن أدري ما دافعها أهو لإراحتي أم لإراحة نفسها من الجدال معي.

عدت إلى البيت بعد ذلك اليوم لوحدي دون أن تعود مريم معي، فلقد قالت لي أنها مشغولة اليوم بأمرٍ هام... لم توضح ذلك الأمر ولم أسأل حتى لا أثقل عليها.

وصلت إلى بيتي، تناولت بعض الطعام، وبدأت بمناكفة جدتي كما أفعل دائماً، وكان موضوع المناكفة لهذا اليوم أنني قلت لها أن أحد حراس الجامعة يبحث عن عروس، وهو ليس كبير في العمر وليس صغير أيضا، أي أنه مناسب لجدتي. فقلت للحارس: أن لي جدة تناسبه وأنه مرحب به ببيتنا يوم الخميس ليرى، حتى لعله يحصل نصيب وتعجبه ويعجبها، فيحصل الزواج، ما أن أكملت تلك الجملة من المناكفة حتى رأيت ذلك الحذاء الذي كانت جدتي ترتديه يطير نحوي، لكنه أخطأني، فألحقته جدتي بكاسة بلاستيكية وهي أيضا أخطأتني.

فعاودت قول ما قلته مرة ثانية، وأضفت عليه: لا تنسي أن تذهبي للكوافير مبكراً يوم الخميس... لأن يوم الخميس هو يوم انشغال الصالونات بالعرايس الحلوات.. زيك يا جدتي يا عسل.
ضحكت جدتي وقالت: آه من جيل هالأيام... جيل قرود وساعدين مش جيل غزلان وعصافير... الله يرحم أيام زمان، فرددت عليها: يا حجة، يا حجة، إذا ما عجبك هذا العريس هناك أبو جحى ماتت مرته الثالثة ويدور على رابعة، وأنتي أكيد راح اتعمري معه كم سنة وبعدين راح يودّع ويلحق نسوانو الثلاث إللي ماتوا...

لم ترد جدتي واكتفت بالابتسامة.

دخلت غرفتي أعيد استذكار المحاضرات التي درستها اليوم، وأعيد كتابة المحاضرات التي فاتتني يوم الخميس، وما أن انتهيت من الحاضر والماضي حتى بدأت أذاكر في محاضرات المستقبل، محاضرات يوم غد، ذلك الغد الذي لم يأتي بعد، وأظنه لن يأتي أبداً... أبداً...

بعد أن أنهيت مذاكرتي حضرت والدة مريم لسؤالي عنها، ولكنني قلت لها أنها ربما ما تزال بالجامعة مشغولة بنشاط تعليمي ما. فقالت لي: أن الوقت متأخر وأن المساء قد حلّ، وأنها

اتصلت بهاتف مريم فوجدته مغلقاً، وإن أخاها ترك عمله وذهب إلى الجامعة فوجدها مغلقة، فمن أجل ذلك حضرت عندكِ يا ابنتي آلاء لكي تقولي لي أين مريم...أين مريم... بدون لف ودوران قولي وين صاحبتك... احكي.

أجبت بعد أن منعت عيوني من السماح للدموع بأن تنهمر، وقلت: والله يا خالتي لا أدري، ولا أعلم، فلقد تركتها بالجامعة بعد أن قالت أن لديها نشاط جامعي، وغير ذلك لا أدري أي شيء.

نظرت إليَّ بغضب وحزن، ولكنها لم تصدق كلامي، رغم أن أمي وجدتي عاودتا سؤالي، ورغم أنني أجبت بنفس الإجابة فلم يصدقني أحد لا أم مريم ولا أمي ولا جدتي، فهن يعلمن أن سرِّي عند مريم، وأن سرّ مريم عندي.

بعد ذلك عادت أم مريم إلى منزلها، وبقيت مع أمي وجدتي اللتان لم تكفان عن استجوابي... فقررت أن أتركهما وأعود إلى غرفتي لأختلي بنفسي، ولأبدأ بالبحث عن مريم عبر الهاتف، فاتصلت بكل صديقاتي بالجامعة ولكنهن أجمعن على أنه لا أحد يعلم منهم شيء عن مريم، فعاودت الاتصال بأم مريم لأخبرها أن أي من صديقاتنا لا تعلم عن مريم شيء، شكرتني على اتصالي.

رغم أن موعد نوم جدتي قد مضى عليه عدة ساعات، إلا أنها لم تنم، بل حضرت إلى غرفتي لتجلس على طرف سريري بهدوء بدون أن تكلمني وبدون أن تنام، فتبعتها أمي لتجلسا بجوار بعضهما البعض على سريري، ليبدآ بالهمس بكلمات لا أسمعها لضعفها ولانشغالي بإجراء العديد من الاتصالات لعلي أصل لشيء.

تعبت وتعبت عيناي، فلقد تجاوزت الساعة منتصف الليل بكثير، إلا أن أمي وجدتي لم تنعسان، فلقد أمضين كل ذلك الوقت وهما حولي، يبدو أنني قد نمت بسبب التعب عدة دقائق لا أكثر، حتى استيقظت على صوت المكبر التي يستعملها جيش الاحتلال وسمعت الجملة التالية، والتي ما زلت أكررها بداخلي حتى هذه اللحظة:
"على كل من يسكن هذا البيت مغادرته فوراً رافعاً يداه إلى أعلى". عندما فتحت عيناي بعد أن أمرتهما أذناي، رأيت جدتي وأمي ما تزالان مستيقظتان، فعانقتاني وكأنهن يودعنني حتى أن جدتي ظلت تعانقني وصولا إلى باب البيت...

البيت الذي كان الجنود يحاصرونه وهو بيتنا، بيتي أنا، ولكن لماذا جدتي تعانقني بتلك اللهفة والحرارة، ولماذا أمي تبكي... فبالعادة يكون أحد إخوتي هو المستهدف من الحصار والاعتقال، ولقد اعتادت أمي ومن قبلها جدتي على محاصرة منزلنا منذ زمن بعيد، واعتدنا كلنا على اعتقال أحد إخوتي لعدة أسابيع، قد تطول إلى أشهر، ولكنه كان دائماً يخرج سالماً متحدياً. لماذا أنا؟؟؟ وما الذي يحدث؟؟.

بعد خروجنا أنا وجدتي وأمي وإخواني كلهم إلى ساحة منزلنا، توجه نحوي ضابط وعدد من الجنود لينزعوني من بين جدتي وأمي، ورغم محاولاتي أمي وجدتي المستميتة لعدم تركي، إلا أنهما لم يتمكنا، فلقد كانت أعصاب البنادق والعصي والغاز المسيل قد ملأت أرجاء المكان، فحولت ساحة بيتنا الهادئ إلى ساحة حرب حقيقية، وخاصة عندما تصدى إخوتي وأبي لمحاولات اعتقالي.

تم اقتيادي إلى سيارةٍ عسكرية، وهناك تمّ وضع كيس أسود عفن الرائحة على رأسي كي لا أرى شيء، وانطلقت السيارة مسرعة وأنا ملقاة تحت أرجل الجنود الذين كانوا بعد أن قيدوا يداي وقدماي يدوسون عليَ بكل ما أوتوا به من قوة.

آهٍ من قلب الأم، لا بل آهٍ من قلب الجدة، كيف علمت أمي وجدتي أنني سوف اعتقل، وكيف.. وكيف.. وألف كيف... يبدو أن قلب الأم والجدة الذي يرى ويعلم ما لا أعلمه، يبدو أن دليل الأم هو من جعل جدتي وأمي لا تفارقاني طوال تلك الليلة.. آهٍ من قلب الأم ودليلها، آه كم هو حنون .

ما أن وصلنا إلى معسكر الجيش حتى تم إلقائي على الأرض بقوة، عند ذلك شعرت أن كل عظامي كانت قد تكسرت، ولم يبقى منها شيء، وأن ذلك الكيس الذي يغطي رأسي ويطوق رقبتي قد خنقني... فغبت عن الوعي.

لا.. لا بل استيقظت على ذلك الماء المنهمر الذي صُبّ عليَّ، استيقظت لأجد نفسي مقيدة برجل كرسي حديدي بدون غطاء الرأس... ما أن استعدت وعيي وفتحت عيناي، حتى انهالت علي الأسئلة من كل صوب وناحية.

تلك الأسئلة التي كانت إجاباتي عنها لا أدري... ولا أعرف شيئا عن ما تقولونه، تلك الأسئلة الي تخللها العديد... العديد من الصفعات المتتالية، إلا أن إجاباتي كانت هي.. هي.. فأنا لم أكن أدري عما كانوا يتحدثون ويدعون.

فلقد قالوا لي: ما علاقتكي بالمخربة مريم؟
قلت: لا أعرف مخربة اسمها مريم...ولكنني أعرف صديقتي وأختي مريم.

قالوا: ما علاقتكِ بالحزام الناسف؟ ما علاقتكِ بذلك المخرب المنتحر؟

قلت: لا علاقة لي بالحزام الناسف، ولا علاقة لي مع أي مقاوم استشهادي.

استمر التحقيق طول أيام عديدة لكن دون جدوى، فأنا لم أكن أعلم أي شيء... سوى أن مريم صديقة لي وأنها متهمة بإيصال حزام ناسف من مدينة نابلس إلى مدينة القدس، وأن هناك على أطراف مدينة القدس كان بانتظارها مقاوم استشهادي استلم منها ذلك الحزام، وأكمل طريقه إلى المدينة المقدسة ليفجر نفسه في إحدى الملاهي الليلية التي يرتادها جنود ذلك العدو بعد عودتهم من مهامهم في إرهاب الفلسطينيين في القرى والمدن.

هو فجر نفسه واحتسبته عند الله شهيد، وأنا هنا لا أدري ما علاقتي... لا فأنا صديقة مريم المقربة يبدو أنه ظنوا أن لي علاقة بمثل تلك الأمور.

بعد ما لقيته من ضرب وتعذيب، تمنيت لو أنني أملك مثل ذلك الحزام كي.. نعم كي أريح نفسي وشعبي من ذلك الاحتلال البغيض.

بعد عدة أيام، تم نقلي إلى سجن النساء، ما أن وصلت حتى استقبلتني الأخوات الأسيرات بكل ترحاب، عالجنَ جراحي الجسدية وجراحي النفسية، فلقد كنَّ يتمتعن بمعنويات عالية جداً، معنويات تعانق السماء رغم تلك الأحكام الجائرة التي قد حكمن بها، فهناك من حكمت بثلاثة أشهر، وهناك من حكمت بستة عشر مؤبد.

هناك القاصر الصغيرة، وهناك الأم، بل أن هناك الجدة التي اعتقلت للضغط على ابنها كي يسلم نفسه، إلا أنها تأبى أن تنكسر وتنهزم أمام السجن والسجان.

وتلك القاصر التي هالها ما رأته من قتل وتذبيح، من دمار وخراب بقريتها، فحملت سكيناً... سكين كانت بالأمس تقشّر به التفاح لتأكله، حملته اليوم كي تأثر من ذلك المحتل، من ذلك الاحتلال البغيض.

بعد جلوسي بالسجن عدة أسابيع، تم إبلاغي عبر إدارة السجن بأنه قد حكم عليَّ بستة أشهر من السجن تحت القانون الإداري. أي ستة أشهر بلا محاكمة، بلا قاض، وبلا محامي، ستة أشهر بأمرٍ من الحاكم العسكري.

ولكن ذلك كان عليَّ أهون من ذلك الحكم الذي صدر بحق مريم وهو عدة مؤبدات... مؤبد مقابل كل قتيل من جنود الاحتلال السكارى... الذين سكروا بعد أن عاثوا في بلادي فساداً ودماراً.

عندما وصلت مريم إلى السجن كانت تسكن بغرفة بعيدة عن غرفتي، ولم أستطع التحدث لها سوى في صباح اليوم التالي، يوم أن التقينا في ساحة السجن.

كانت تتمشى مشيةً عسكرية مثل جندي أو ضابط في ساحة معركة، عرفتها ولم أعرفها، كانت مريم قوية جداً، بل كانت جبارة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، لم تبكي عندما حضنتني وسلمت عليَّ، لكنني بكيت، ظلت ترفع رأسها عاليا غير مبالية بالحكم عليها بتلك المؤبدات.

لقد رأيت مريم أخرى غير التي أعرفها، فلقد كانت مريم.. مريم المقاومة... لقد كبرت مائة عام وعام خلال الأشهر التي أمضتها بالتحقيق... لقد أمضت بداخل زنازين التحقيق ما يقارب الأربعة أشهر، حولتها من مريم ابنة الروضة والجامعة، إلى مريم ابن التحدي والمقاومة، اعتذرت مني على ما سببته لي من اعتقال، فلمجرد أنني كنت صديقتها المقربة ولا لشيء آخر اعتقلت ، وحكم علي بستة أشهر ليس لأنها اعترفت عني... فلم يكن هناك ما تعترفه عني أصلا، وليس لأنني قاومت ولكن لأنني كنت صديقتها، اعتذرت وطلبت مني السماح.

يا لها من غبية، أتطلب مني السماح، ولم يكن لها أي ذنب بما حلّ بي... نعم، لم يكن لها أي ذنب، فالذنب ذنب الاحتلال الذي ملأ الحقد والكره قلبه، هذا إن كان عنده قلبٌ أصلا.
أمضيت فترة الشهرين المتبقين لي في غرفة مريم، كنا نتحدث عن الدراسة وعن المستقبل... أي مستقبل ذلك الذي ينتظرنا، فتاة عمرها تسع عشر عاما وقد حكم عليها بسلسلة من المؤبدات

تقيدها حتى بعد مماتها، أي مستقبل ذلك الذي كانت تراه وردي حلواً جميلاً، وكنت أنا التي يقي لي عدة أيام أراه أسوداً كسواد الليل. لا أدري أكانت تعيش في عالم آخر أم كانت تحلم...

أكانت تهذي عندما كانت تقولي لي أنها سوف تخرج قريباً رغم أنف الاحتلال، رغم أنف السجان.

أنا التي كنت أعد ملابسي بالحقيبة كنت بلا أمل، وكان الحزن يملأ قلبي رغم بقاء ساعات فقط لا غير حتى يطلع الصباح، وأترك السجن لأعود إلى أمي وجدتي، لأعود إلى حريتي، كنت حزينة على فراقي لها، ولكنها كانت سعيدة لأنني سوف أرى نور الحرية بعد ساعات قليلة.

لم ننم تلك الليلة، فلقد بقينا مستيقظتين نتحدث حديث من تودّع صديقتها ولن تراها إلى الأبد، وكم بكينا نحن الاثنتين، أنا آلاء فتاة الروضة والجامعة، ومريم فتاة التحدي والمقاومة، وكم ضحكنا على تلك المزحات التي كنا نناكف بها جدتي.

جدتي، قلت لمريم عن ذلك العريس الذي ادعيت أنه سوف يحضر لخطبة جدتي ،وعن ذلك اليوم الذي أمضت ليلته كلا من أمي وجدتي بغرفتي... بدون سبب سوى قلب الأم.

انقضى الليل وحل الصباح، وما أن أكملت توديع باقي الأسيرات حتى جاءت السجانة لتبلغني بالحضور لمقابلة الضابط المسؤول.

ذهبت، وعدت، عدت كأنني عائدة من الموت، من الجحيم، عدت بعد أن أبلغني أنه جاء أمر من المحاكم العسكرية بتمديد اعتقالي لمدة ستة أشهر جديدة... ستة أشهر بعد أن ظننت أنني سوف أرى نور الحرية بعد ست دقائق.

عدت وعيوني تفيض بالدموع، دموع أبت أن تتوقف، دموع تحرق العيون وتؤلم الجفون.

عانقتني مريم وقالت بمزح: كفي عن البكاء، فلن تمكثي بالسجن لا ستة أشهر ولا حتى ثلاثة، كفي عن البكاء، واغسلي وجهك كي تناول طعام الإفطار، فلقد أعدت أخواتنا الأسيرات طعام الفطور، تحركي يالله تحركي.

بشكل آلي وكأنها قائد عسكري يأمر جندي بسيط، ذهبت لغسل وجهي وعدت لأجلس على مائدة الإفطار. لم أكن أشعر بالجوع أبداً، لكنني أردت أن أبقي فمي مشغولا حتى لا أسأل ذلك السؤال الذي يكاد يخنقني ويحرق جوفي... هربت إلى مائدة الطعام لأبتعد عن مائدة الحوار والنقاش.

عندما حل المساء، وقبل أن أسأل مريم عن ما قالته لي في الصباح من أنني لن أمكث في الأسر لا ست أشهر ولا حتى ثلاث أشهر، بادرت هي بالكلام وقالت: أنتي تعلمي أن المقاومة في غزة استطاعت أسر أحد جنود الاحتلال منذ عدة سنوات... فقلت: أعلم، ولكن ما دخلي به... قالت لي بحزم: اصمتي واسمعي جيداً ما سوف أقوله لكي... كنت أصلاً صامتةً ومصغية إلا أنني زدت صمتي صمتاً.

فقالت خلال أقل من شهر واحد سوف تتم عملية تبادل بين المقاومة وبين عدونا الصهيوني، وسوف نخرج كلنا أنا وأنتي وكل الأسيرات خلال شهر واحد، لا تقولي شيئاً لأحد، مفهوم... مفهوم. رغم أن الخبر أكيد لكنني لا أريد أن تعلم باقي الأسيرات بالموعد حتى لا تحدث بلبلة بينهن قبل الإعلان الرسمي... مفهوم.

لم أسألها من أين لها بمثل هذا الخبر، ولكنني كنت أعلم مدى صدقها ومدى جديتها أثناء حديثها معي.

بعد عدة أيام، تم الإعلان وبشكل مفاجئ عن حدوث اتفاق بين المقاومة الفلسطينية وبين العدو الصهيوني، وتم الإعلان عن إطلاق سراح عدة مئات من الأسرى الرجال وأيضا إطلاق كافة الأسيرات الفتيات.. كنا بداخل المعتقل سعيدات وفرحات، كل واحدة منا رغم فرحها الشديد، إلا أنها فضلت أن تجلس وحيدة بعيدة عن الأسيرات الأخريات، وحيدة لتفكر بثمن الحرية...الحرية التي لم تعد حلما على من حكمت بثلاثة أشهر، ولا حلما على من حكمت بستة عشر مؤبداً، ولا علي وعلى مريم ذات سلسلة المؤبدات، مرت تلك الأيام القليلة التي سبقت موعد تنفيذ الصفقة.

جاء ذلك اليوم... اليوم الذي خرجنا إلى الحرية رغم أنف الاحتلال، رغم أنف الحاكم العسكري، خرجنا بعون الله وحده، الله الذي مكَّن المقاومة في قطاع غزة من قهر وإجبار ذلك العدو على إطلاق سراحنا ركبنا في الباص، لم يكن ذلك الباص الذي حدث معه الحادث يوم امتحان الرياضيات، ولكنه كان باص الصليب الأحمر، ركبنا ونحن مقيدات الأيدي والأرجل، وبقينا على هذا النحو حتى وصلت قافلة الباصات المخصصة لنقل الأسرى المحررين إلى مدينة رام الله.

هناك كانت فلسطين كلها برجالها ونسائنا تنتظرنا، هناك كانت أمي وجدتي، أبي وإخوتي... وأم مريم وأهلها، ما أن توقفت الحافلة ونزعت القيود حتى اندفعنا نحو أهلنا وأحبتنا، نعانقهم ونبكي كالأطفال بين أحضانهم. فنحن الشعب الذي يبكي فرحاً وحزناً.

تعالت الزغاريد، زغاريد جدتي ليس فرحاً بعرسها، ولكن فرحاً بعرس حريتي وحرية الأسرى، تعالت وتعالت حتى وصلت عنان السماء.

في تلك الأثناء، كانت الكلمات غائبة تماماً، وحل محلها نوع آخر من أنواع التواصل أقرب ما يكون للغة الصم والبكم، فلقد كانت الضجة كبيرة جدا، وكان الاحتفال ضخماً، كانوا يتحدثون الواحد تلو الآخر عبر مكبرات الصوت، يقولون ولا أدري، ولا أفهم ما يقولون. فكلامهم لم يكن ذو معنى بالنسبة لي، وبالنسبة لغالبية من أطلق سراحهم، لأننا نحن الأسرى والأسيرات ندرك أن الكلام لا يساوي شيئاً في مواجهة الاحتلال... وأن القوة، القوة وحدها هي التي يرهبها الاحتلال ويحسب لها ألف حساب وحساب.

عدنا من رام الله بعد تلك الكلمات الـ.... ووصلنا إلى نابلس، ومنها إلى قريتي، إلى بيتي، وعادت مريم إلى بيتها، هناك في مدخل القرية كانت الأمهات يرششن علينا الأرز الناشف احتفالاً وسروراً، وكانت الأزهار هي الأخرى ترش علينا، سرنا أنا ومريم جنباً إلى جنب رافعات رؤوسنا، فرحات بعودتنا إلى بيوتنا، إلى الحرية.

ما أن وصلت إلى منزلي، وما أن غادر المهنئون في نهاية اليوم، وبعد أن انتصف الليل، حتى حضرت جدتي وأمي إلى غرفتي التي كنت أتفقدها بعد طول غياب... أتفقد كتبي ودوائري ومثلثاتي.

أمسكت جدتي يدي وقرصتني وقالت: هيك يا آلاء، بتنسجني وبتضيعي علي العريس إللي كنتي جايبتيلي إياه.. هيك؟ ضحكت، فكم كان جميلاً أن أعود إلى جدتي ومناكفاتنا مع بعضنا... أما أمي فكانت صامتة تتأمل وجهي وتتفقدني، وقالت: الحمد لله أنكي عدتي سالمة معافاة.. الحمد لله.

أعلم أنه لم يكن لكِ علاقة بما حدث معكِ ، ولكنني أعلم أيضا يا ابنتي أنكِ قوية، استطعتِ اجتياز تلك الأزمة الصعبة، اعلمي يا ابنتي أنه ما مررتي به كان درساً قاسيا.

أعدت لي أمي عشاءً فاخراً فتناولت الطعام للمرة الخامسة أو السادسة منذ خروجي صباحاً من السجن، فلقد كانت أمي تتمتع بإعداد الطعام لي، فأفطرت مرتين وتغديت مرتين، وتعيشت أيضا مرتين، كلنا كنا سعيدين... فلسطين كلها كانت سعيدة وخاصة قطاع غزة... غزة التي وعدت بأن تقهر العدو، ووفت بوعدها ومرغت ذلك الاحتلال بوحل الهزيمة، غزة العزة والانتصار.

بقي في الأسر بعد خروجنا حوالي خمسة آلاف أسير، ينتظرون الأفعال لا الأقوال لكي يتحرروا ويعودوا إلى الحرية.

سوف أكمل دراستي رغم كرهي لمادة الرياضيات، لأنجح وأتفوق أنا ومريم، سوف نبني ما هدمه الاحتلال... رغم أنفه، وسوف نصل بإذن الله إلى الحرية والاستقلال لفلسطين، كل فلسطين، شكراً لذلك الظل القادم من بعيد، شكراً لثمن المقاومة.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 4 "

الطاحونة والطحين

دخلت إلى غرفته وهي تحمل كأساً من الشاي المعطّر بالنعناع، دخلت تمشي على رؤوس أصابعها، وضعت الكأس، وقبلت رأسه، فقبل يدها، وعادت وهي تنمنم له بالدعاء... دعاء الأم التي تتضرع لله عز وجل لعله يتمم هذا العام بالسلام، فلقد مرّ أحد عشر عاماً دراسيا، وها هي ترى ابنها في عامه الثاني عشر الأخير، ذلك العام الصعب... مفترق الطريق كما يسمونه، فإنه مُسلم لله الأمور، وكانت علاماته عالية مثلما هي حاله في كل عام، فسوف يدخل إلى الكلية التي يحب ويهوى، وهي كلية الصيدلة... تمتمت ولم تكف عن دعائها وتمتمتها طول طريق دخولها إلى غرفته وطريق عودتها إلى سجادة الصلاة لتصلي وتدعو الله.

في تلك الأثناء، فتح الباب بهدوء ومشت تلك الجميلة الهادئة وهي تحمل بيدها شطيرةً من الخبز والعسل، وضع الشطيرة التي كانت قد أكلت جزء صغير منها، وأشارت لأخيها الأكبر أن يأكل دون أن تتكلم، وخرجت وأغلقت الباب بنفس الهدوء الذي فتحت به، تلك هي أخته الصغرى آخر العنقود، كما كان يحلو له تسميتها، آخر العنقود العسل المعقود.

يا عسولة، هذا الاسم الذي كان قد أطلقه عليها، وهو الاسم التي تحب أن تنادى به.

بعد منتصف الليل بقليل، فتح باب الغرفة من جديد، ووضع الأب يده على رأس ابنه، ووضع على الطاولة علبتين من علب القهوة الجاهزة للشرب، كان قد اشتراها في طريق عودته إلى البيت قادماً من عمله، ولقد كان الأب يعمل صيدلياً في إحدى المستشفيات، وكان الابن يحلم بأن يصبح مثل أبيه، ذلك الأب الطيب الهادئ.

قبَّل مالك يد والده وقال له: دعواتك يا أبو مالك... أكمل دراسته وقبل صلاة الفجر غلبه النعاس، فنام ساعتين أو أكثر ليقضي... مصلياً مسرعاً إلى إكمال مذاكرته لدروسه، وما أن اقترب موعد الذهاب لتقديم الامتحان، حتى كانت أمه قد أعدت له الشاي ليشربه قبل ذهابه إلى المدرسة، وأعدت له أخته العسولة شطيرة العسل ليأكلها قبل خروجه من المنزل، أما الوالد فكان ينتظره في سيارة ليوصله إلى المدرسة، وينتظر خروجه من امتحانه... هكذا فعلوا طوال الأيام الأربعة السابقة.

أما هذه الليلة، فلم يكن في صباحها تقديم امتحان، ورغم ذلك فعلوا ما فعلوه في الليالي السابقة.

مالك كان قد ملَّ قليلاً، فخرج قبل صلاة الفجر ليتمشى حول المنزل قليلا ليصلي وينام، فغداً لا يوجد امتحان، إنما الامتحان بعد الغد.

أثناء مشيه نظر إلى أسفل الوادي حيث توجد طاحونة قديمة... تلك الطاحونة التي توقفت عن العمل منذ أعوام طويلة.. منذ أن توقفوا عن زراعة القمح بسبب اعتداء المستوطنين... ومنذ أن بدؤوا يشترون الخبز الجاهز من المخابز الآلية إلى تملأ القرى... رأى سيارة عسكرية تقف بصمت، وما هي إلا لحظات حتى غادرت بصمت، ظل ينظر ويتساءل، ما الذي يحدث هناك في تلك الطاحونة القديمة؟ ماذا يحدث بها ولم يعد بها طحين يطحن؟ يطحن... كرر تلك الكلمة، نعم، هناك شيء يطحن في الطاحونة، لكنه ليس قمحاً ولا طحينا.

وما زاد تلك الشكوك، أنه رأى أحد سكان القرية يصعد من أسفل الوادي ليمر من جانب منزل مالك... مالك الذي تدارى، ورغم تداريه عن أنظار ذلك الصاعد، إلا أنه عرفه، إنه صايل، نعم إنه صايل، قال لنفسه... ماذا يفعل صايل مع الجنود في هذا الوقت قبل الفجر، في ذلك المكان البعيد النائي؟.

أسئلة كثيرة لم يجد عليها أجوبة... دخل المنزل وذهب إلى سرير، لكن النوم كان قد جافاه، وحل محله الأرق الناتج عن التفكير والتحليل.

في اليوم التالي، وبعد صلاة الفجر، ورغم مراقبته للطاحونة، إلا أنه لم يرى شيء، قرر نسيان الموضوع مؤقتاً والاستمرار بدراسته، وهكذا فعل طول أيام الامتحانات، الدراسة، ثم الدراسة، ولا يقطع الدراسة سوى كاسة الشاي أو شطيرة العسل.

أنهى تقديم امتحاناته... وكان مطمئن على نتيجته، إلا أن أمه وأباه وحتى العسولة كانوا قلقين، وسرعان ما تبدد القلق، فقد حضرت النتيجة، وكانت بفضل الله أعلى مما كان وكانوا يتوقعونه، دخل كلية الصيدلة في إحدى الجامعات القريبة من قريته... ومن طاحونة الطحين.

في تلك الفترة، كان عادل، وهو أحد أبناء القرية قد قبل في نفس الجامعة، هو وحسن وسعيد وجمال... وكان هؤلاء الأربعة أصدقاءً قريبين من بعضهم البعض، بعكس مالك الذي لم يكن له أي اهتمام بأمور الصداقة، وكان يحصر علاقاته واهتماماته بشيئين اثنين: الأول هو المنزل والدراسة، والثاني هو مزرعة والده التي يربي بها الوالد الصيدلاني، عدداً من مناحل وبيوت النحل التي تستعمل لجمع العسل.

فمالك كان إما جالس للمذاكرة في المنزل، ويعمل مع والده على الاعتناء بممالك النحل.. وذلك أدى إلى انقطاعه عن زيارة الأقارب أو أصدقاء المدرسة، وذلك لا يعني أنه انطوائي، ولكنه لم يكن من ذلك النوع ثقيل الدم الذي يتدخل في كل شيء، حتى تلك الأشياء التي لا علاقة له بها أو لا يفهم أصلا بها، مثل عادل مثلا، فعادل لا يجلس في مكان واحد أكثر من ساعة أو ساعتين كحد أقصى، فهو دائم الحركة، ودائم السؤال عن أحوال هذا وعن صمت ذاك، وعن تلك هل تطلَّقت، أو هل عادت إلى زوجها؟ يسأل كثيرا ويثرثر أكثر... ورغم هذا الفرق الشاسع بين مالك وعادل إلا أنهما يعتبران صديقين نوعاً ما، وذلك بحكم صلة القرابة أولاً، ولأن منزليهما متجاورين، فكان لزاماً عليهما أن يلتقيا مصادفةً بين الحين والآخر.

كان عادل قد قرر الانتماء إلى إحدى الفصائل الفلسطينية بعد دخوله إلى الجامعة، وهذا فعلاً ما فعلوه هو وسعيد وحسن وحتى جمال، الذي يكره اليأس واليائسين... أما مالك فلم يقتنع بتلك الفكرة، ورغم محاولات عادل وسعيد اللذان كانا في فصل واحد، جلب مالك إليهم إلى فصلهم، إلا أن محاولاتهم كانت دائماً تبوء بالفشل، وبرد قاطع واضح الجامعة للدراسة فقط لا غير، فلا تتعبوا أنفسكم معي أنا هنا طالب أدرس ثم أدرس، كي أدرس وأنجح، ثم أدرس لكي أدرس وأنجح، وأنجح لكي أتخرج.

هو يكرر وهم يكررون، لكنهم لم يكونوا يتخاصمون بل يضحكون، هذا حال نقاشاتهم وخاصة تلك النقاشات التي تجمعهم في حديقة منزل عادل، حيث كانوا يجلسون هناك بعد الجامعة، وعندما يرون مالك عائد ينادون عليه لشرب الشاي، وكان يلبي محرجاً.

ورغم أن حسن وجمال كانا في فصل آخر يعتبر منافس جداً لذلك الفصل الأول، إلا أنهما لم يطلبا من مالك الانضمام لهما أبداً، ورغم الجدل والصياح الذي كان يلف جلساتهما مع عادل سيعد بحضور مالك أو عدم حضوره، إلا أنهم كلهم كانوا أصدقاء بمعنى أو بآخر.

فمالك كانت تسيطر عليه فكرة أن يصبح صيدلانياً باحثاً متمكناً، وكان يتابع تلك الأبحاث التي تخص استخلاص الدواء من عسل النحل، مما جعله يحب الصيدلة وعلومها، ويحب مزرعة تربية النحل.

أما عادل فيريد أن يصبح محامي منذ طفولته منذ أن سمع أمه وبعدها خالته وأباه وهم يقولون له أن لك لسان طول، إن لم تحوِّله للسان محامي سوف يتحول هو، أي لسانك، إلى حبل مشنقة تعلق به. كانوا يقولوا له تلك الجمل وكان يقول: بل سوف أصبح قاضياً يحكم عليكم بالجلوس صامتين لكي تستمعوا لي وتجيبوا عن أسئلتي... فتحولت المزحة إلى حلم قرر أن يحققه ويصبح محامياً، فهو شخص يستطيع رؤية الأمور التي تجري حوله بعينٍ فاحصة رغم كثرة حركته وتنقله بين زيارات هذا أو السؤال عن ذاك.

أما سعيد، فهو الآخر يريد أن يصبح محامياً ليس لشيء، سوى أنه قال لوالده الذي يمكث في الأسر الصهيوني منذ أكثر من خمس عشر عاماً، أنه يريد أن يصبح محامياً كي يدافع عنه ضد الجلاد الصهيوني، فلقد أسر والده وهو لم يكن قد تجاوز عامه الرابع بعد، شجعته والدته وتمسك سعيد بذلك التشجيع واعتبره حافزاً ودافعاً للنجاح في المدرسة، ليتمكن من الالتحاق بكلية الحقوق، ولذلك نجد أن عادل ذو اللسان الطويل قد التقى فكراً، وتوجه نحو الهدف مع سعيد.

أما حسين، فكان متديناً منذ صغره، ولقد غرس والده ووالدته حب الدين وعلوم الفقه وحفظ القرآن تدريجياً، حتى قرر هو وبدون طلب من أحد، أن يدرس في كلية أصول الدين، فدخل تلك الكلية مقبلاً بعقل منفتح، عقل وسطي لا يقبل التطرف والتكفير، عقل لا يتعالى على من هم دونه علماً في الدين، كان واعظاً محبوباً لا يكف عن وعظه للناس عندما يجد الفرصة سانحةً، وكان دائماً ما يقاطع عادل في كلامه إن نطق عادل بكلمة خارج آداب الحديث العام.

عادل كان يتقبل ويقول أمرك، يا شيخ أمرك، ويكمل حديثه، كانا متفاهمين لأنهما صديقين منذ الطفولة، أما جمال، فرغم دخوله إلى كلية الآداب قسم الفلسفة، إلا أنه كان أكثر حد على عادل إذا ما تجادلوا، وكان يكرر في غالب الأحيان: سحقاً للسياسة، وسحقاً للسياسيين.

فجمال ينظر إلى السياسيين باعتبار أنهم تلك المجموعة التي ركبت موجة الثورات وأشعلت الثوريين لتصل إلى كرسي الحكم... لتصل دون أن تنزف قطرة دم واحدة، دون أن تأسر في سجون العدو، دون أن تفقد أحد من أفراد عائلتها، فأبناء تلك الزمرة من اليائسين غالباً تكون

موجودة خارج الوطن تحيا وتعيش وتدرس في جامعات العالم الأول... الأول... يكرر جمال الفيلسوف تلك الكلمة، ويختم: أما نحن فعالم رابع أو خامس، عالم ما زال يعاني من الاحتلال الأخير في هذا العالم الزائف، عالم السياسة واليأس، عالم القذارة والقذرين.

لكل واحد من أولئك الخمسة طريقه ونهجه الذي يسلكه وينهجه، كانوا كل عدة أسابيع يجتمعون عند مالك في البيت، وتلك الاجتماعات كان محركها ومن يرتب لها دائماً عادل، وبمجرد دخول عادل وحتى قبل جلوسه على مقعده، يصيح عاليا يا خالتي أم مالك، هلمي لنا بالعسل، يا أم مالك البطل، هلمي بالعسل، يا أم مالك البطل، فترد عليه خالته أم مالك: ولك مالك بطل وأنتا إللي بصل، حتى لو نقعناك ابرميل عسل... يضحك ويضحكون، فأم مالك كانت ابنة خالة والده، فكان يناديها خالتي وينادوها خالتي.

يأتي العمل مع أخت مالك الصغيرة التي تحمل منه عدة أنواع، فالعسل بالشمع كان أفضل تلك الأنواع التي يفضلونها، فهم كانوا يمضغونه في أفواههم مثل العلكة، أما العسل العادي عسل الورود والأزهار الصافي كانوا يحلون به كاسات الشاي، وكانوا يعتبرون ذلك ترفاً ما بعده ترف.
أما مالك، فكان رغم طبعه قليل الاختلاط يرحب بهم أشد الرحب، ويحاول أن يجعل جلستهم في منزله جلسة مريحة هينة، جلسة دافئة رغم فتور العلاقة ورغم النقاشات السياسية الساخنة بين عادل وسعيد من جهة، وحسن وجمال من جهة أخرى، فمالك كان محايداً بكل ما تعني الكلمة من معنى، فعندما يقولون له ما رأيك بالزعيم فلان وبالرئيس فلان... كان يردد هل تعلمون أن العلماء الباحثون في مجال الأدوية قد تمكنوا من إيجاد دواء للمرض، ذلك الذي كان فيما مضى مرضاً عضالاً؟ يرتبكون لرده فهم يسألون عن الشرق وهو يرد عن الغرب، لكن ارتباكهم سرعان ما يزول عندما يتذكرون أنهم سألوا مالك... مالك قارورة الدواء، هكذا كانوا يقولون له، مالك قارورة الدواء، فالدواء هو ما يهم مالك لا أمراض العصر التي تأتي للإنسان بسبب متاعبه لتصريحات اليائسين وتحليلات المحللين التي ترفع الضغط، وتصيب الإنسان بالصداع، وحتى أنها قد تصيبه بمرض في القلب. لا للسياسة يقولها مالك، وألف لا ، ونعم لعسل عمكم أبو مالك، فيأكلون ويأكل، ويضحكون والعسل يقطر من بين أصابعهم ومن على شفاههم .
تنقضي تلك النقاشات ولا تخلف بعدها إلا الود والمحبة بين أولئك الشبان...

كانوا رغم الاختلافات منطقيين لا عبثيين، لا يهم إلا الجدل الأعمى، الجدل المتعصب... الجدل الحيواني، جدل البقاء في غابة الأقوياء.. كانوا بشر لا ذئاب متصارعة، لا وحوش متذابحة، ليس لها هدف سوى القضاء على الآخر من أجل الرقص على جثته. (هذه الفقرة تريد اعادة صياغه)

بعد مضي العام الأول وبدء العام الثاني بأشهر قليلة جدا، بدأت وانطلقت انتفاضة الأقصى أو كما يسميها البعض الانتفاضة الثانية... تلك الانتفاضة التي بدأت وانطلقت بعد أن دنس ذلك المجرم... مجرم مذبحة مخيم صبرا وشاتيلا إبان حرب لبنان، ذلك المجرم الذي قرر أن يدنس المسجد الأقصى بقدميه النجستين، انطلقت الانتفاضة معلنةً مرحلةً جديدةً من مراحل النضال الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني.

ألقى عادل، الطالب الجامعي الحجارة على قوات الاحتلال، وألقى سعيد وحسن وجمال وحتى مالك... ألقى مالك الحجر تلو الحجر على تلك القوات التي كانت تقتل كل يوم عدداً من الأطفال والشبان وحتى النساء، ليسقطوا شهداء على مذبح الحرية في طريق الحرية، سقطوا وعلى طريقة الحرية، انطلق الشبان الخمسة ليسيروا ملقين حجارتهم على ذلك العدو الهمجي، على ذلك المسخ المسمى احتلال... وأي احتلال، إنه الاحتلال الصهيوني الذي يجثم على صدر الفلسطيني منذ أعوام وأعوام.

انطلقت الانتفاضة وانطلقت الحجارة... وانطلقت الأفكار المقاومة التي تدور في رؤوس الشبان الخمسة، بل تدور في رؤوس كل الفلسطينيين صغيرهم قبل كبيرهم، فنحن الضحايا لن نقبل بأن نموت بذل وبصمت.. سوف تعلو أصواتنا عالياً ، قال عادل ورد جمال، بل تعلو رصاصاتنا عالية مصوبة إلى رؤوس ذلك المحتل المسخ. (الفقرة تريد اعادة صياغه)

رد سعيد: فلتكن الحرب، ولتكن المقاومة بكل أشكالها. قال حسن: على بركة الله، سوف نسير وبتوفيقه سوف نصل إلى أحد الحسنيين، إما الشهادة وإما النصر... مالك.. ذلك الشاب الخامس فضَّل الصمت والتعمق بالتفكير، لعله يرى ما لم يروه أصدقائه، لعله يصل إلى تركيبة الدواء المخلص لمرضى الاحتلال.

فكل شيء عند مالك هو إما مرض يبحث عن دواء، وإما دواء جديد أفضل من الدواء القديم... معادلته واضحة وضوح الشمس. ذهب كل واحد منهم في طرقه بعد أن انتهوا من رشق قوات

الاحتلال، وبعد أن تعبوا وأتعبوا تلك القوات، بعد أن فرغوا ذلك الضغط الداخلي الناتج من ظلم الاحتلال واستبداده.

لم يعد بعد ذلك، لم يعد جمال يشاركهم إلقاء الحجارة، بل كان قد شكَّل خليةً مسلحةً وقادها في سلسلة من العمليات ضد تلك القوات المحتلة.. ولم يتأخر حسن بالانضمام إلى جمال، وحتى عادل وسعيد التحقا بأحد الخلايا المقاومة، وبدأ بضرب العدو... فلقد أدرك الشبان الأربعة أن المقاومة المسلحة هي طريقهم الذي قرروا أن يسيروا به لدحر الاحتلال، أما مالك وهو خامسهم، فلقد قررا قراراً آخر.. قرار يتفق معهم به نحو هدفهم، ولكنه يرى وسيلةً أخرى إلى تطبيقه، وهي وسيلة القضاء على الأعشاب الضارة واستئصالها حتى تتمكن من المقاومة من السير دون تعثر.

تلك الأعشاب الضارة كانت هناك.. هناك في طاحونة الطحن، حيث رأى مالك قبل نحو عامين أثناء دراسته لامتحانات الثانوية العامة، ذلك العميل صايل يقابل ضباط مخابرات العدو، ولأجل ذلك شكَّل مالك مجموعة من أولئك الشبان الصامتين الذين لا نشاط سياسي لهم، ونشاط عسكري، شكل لك المجموعة وأسماها مجموعة الصامتين... كانوا وكان مالك معهم صامتين، الكل يراقب أي تصرف يضر المقاومة والمقاومين، ففتحوا عيونهم وآذانهم...

بدؤوا بمراقبة العميل المفترض صايل، ونجحوا بمتابعته ورصد حركته، رأوه يتسلم ويسلم المعلومات، رأوه يأخذ المال ويترك الرسائل بصمت، رأوا كل لك وبذكاء يقوده مالك حللوا وجمعوا المعلومات.

وما هي إلا أشهر قليلة، كان خلالها نشاط صايل قد زاد كثيرا جداً، وتوسعت شبكته للتجسس والعمالة... كانوا هم أيضاً يوسعون شبكتهم الصامتة لتمتد من القرية إلى المدينة إلى الجامعة.

لم يطلقوا رصاصة واحدة، ولكنهم أدركوا وعلموا علم اليقين من أين تأتي رصاصات الغدر والخيانة.

أما عادل وسعيد، فقد أطلقوا مئات الرصاصات من خلال عملهم المقاوم، وحتى حسن وجمال فلقد فجّرا العبوات، وأطلقا الرصاص تلو الرصاص... حتى تلك الليلة التي كان جمال، ذلك الفتى الجامعي عائد إلى منزله، فاعترضته سيارة أغلقت الطريق عليه، وانهال راكبوه الملثمون بعشرات الرصاصات، تلك الرصاصات التي لم تترك مكاناً في جسد جمال حتى وصلت إليه، لقد

قتلت قوات العدو الصهيوني اليوم المقاوم جمال... جمال تم قتله اليوم على يد قوات الاحتلال الصهيوني.

الفاتحة... الفاتحة على روح الشهيد، هذا ما كان يقوله المؤذن بعد وصول نبأ استشهاد جمال... جمال كاره السياسة وكاره السياسيين، طالب علوم الفلسفة... استشهد.

باتت القرية في تلك الليلة حزينة على استشهاد جمال، ولكن أصدقاءه عادل وسعيد وحسين ظلوا طوال تلك الليلة يفكرون بالانتقام من ذلك العدو الذي احتل الأرض، وهجَّر الشعب، ومن لم يقبل الهجرة قتل... قتل هكذا قال عادل... أما حسن فقال أين مالك؟ فأنا لم أر مالك طول اليوم؟ فرد عليه سعيد: وقد لا تراه بعد يوم الغد، يوم تشييع جثمان الشهيد جمال.

فقال عادل: حتى أنا لم أعد أرى مالك إلا نادراًَ ولا حتى بالصدفة، لم أعد أراه منذ شهور طويلة، منذ أن اندلعت الانتفاضة، أذكر أن آخر لقاء لي ولكم به عندما كنا نلقي الحجارة خلال الأسابيع الأولى للانتفاضة، ومنذ ذلك الوقت لم يعد لمالك وجود... فيبدو أن مالك قد ألقى بعض الحجارة وفضل العودة إلى عالمه الخاص، عالم الدراسة والعسل... عسل أسود... بغضب قال حسن تلك الكلمة... عسل أسود.. ذلك العسل الذي ينسي الفلسطيني قضيته.

بعد صلاة الظهر، صلى المصلون في المسجد وصلوا على الجثمان المسجى أمامهم في المسجد... رفعوا ذلك الجثمان وساروا وسارت القرية ومن حولها من قرى بذلك الجثمان إلى المقبرة، حيث وضعوه وودعوه بالزغاريد تارةً، وبالبكاء تارةً، وبالتكبير وبالوعيد والتهديد بالانتقام، كلهم كانوا هناك إلا مالك، كان الغائب... الغائب الحاضر... غائب الجسد، الحاضر بأحاديث عادل وسيد وحسن، الغائب عن الوعيد بالانتقام، وعن التهليل والتكبير... كان مالك غائباً.. والغياب يولد الجفاء، وقد يكبر ليصبح كرهاً وحقداً أسوداً.

لم يعد عادل وسعيد وحسن إلى بيوتهم بعد تشييع الجنازة، إنما ذهبوا إلى منزل مالك ليسألوا عنه فلم يجدوه، وقالت لهم والدته لعله بالجامعة... فردوا: لا نظن ذلك... ردوا بصوت واحد، لا، لا نظن ذلك، فالجامعة مضربة منذ عدة أيام. صمتت الأم وقالت: كيف ذلك؟ وكل يوم يقول لي مالك عند خروجه في الصباح انه متوجه إلى الجامعة؟ وعندما أسأله في المساء عن دروسه يقول: الحمد لله، كل شيء على أحسن حال.

أين مالك؟ ذلك السؤال الذي يريد الشبان الثلاثة أن يبحثوا عن إجابة له. فقرروا أن يبقوا جالسين في حديقة منزل عادل، كي يروا مالك أثناء عودته إلى منزله ليلاً.

لكن مالك قد أطال العودة هذه الليلة، فلقد كانت عادته أن يعود قبل أذان المغرب على أقصى حد، أما الليلة فلم يعد إلى بعد منتصف الليل... وقبل أن يصل إلى مدخل منزله نادوا عليه، فرفع يده مسلماً عليهم وقال لهم: أنا مستعجل، أريد أن أنام لأن النعاس يقتلني.

عادل قفز من مكانه قبل أن يكمل مالك جملته هذه، وأمسك بيده بقوة، وطلب منه أن يأتي معه لأنه يريد أن يحدثه بأمر هام... هام جداً... هكذا قال له عادل، أما مالك فاستجاب له ولهم وجلس معهم.

فلم ينطق أحد منهم، جلسوا كأنهم أموات... أموات بلا صوت، ولكن بغضب دفين في صدورهم الأربعة.. الأربعة نفسهم، فعادل وسعيد وحسن كانوا غاضبين على مالك، ومالك كان غاضب على شيء آخر، شيء يؤلمه ويحرقه من الداخل حيال صمتهم، أما النظرات فكانت هي الأخرى طويلة... طويلة... طويلة جداً، وقاسية جداً، لم يكسر هذا الصمت إلا مالك عندما قال: حسناً، شفتكم وشفتوني تصبحون على خير. عندي غدا شغل مهم ولازم أذهب لكي أنام.

تلك الكلمات التي قالها مالك كانت الفتيل الذي أشعل الغضب الذي كان بداخل أصدقائه الثلاثة... أنت مش بني آدم، أنت حيوان، مجرد حيوان، قال عادل.. أما سعيد فقال: لا إنت مش حيوان، لأن الحيوان قد يحس ويشعر، أنت حجر.. أما حسن فلم يقل بل بصق على الأرض مشيراً لمالك بالذهاب إلى بيته.

مشى مالك دون أن يرد، فلقد فهم أنهم يقصدون عدم حضوره لجنازة الشهيد وعدم وجوده في بيت الشهيد... مشى والكلمات تجري نحوه كأنها سهام لا تخطئ قلبه، فالسهم كانوا يرسلونه، ويرسلون خلفه عشرات الأسهم. التفت إليهم وعاد أدراجه نحوهم، مشهراً مسدسه نحوهم، وكان تلك أول مرة يروا مالك يحمل سلاح، فمالك لم يحمل أي نوع من الأسلحة طول عمره، حتى سلاح الكلمات، مالك لم يكن يحمله ويستعمله ضد أحد، فكيف إذا كان سلاحاً يطلق الرصاص مصوب نحوهم؟؟؟

صعقوا.. وتجمدوا مكانهم ليس خوفاً فكلهم يملك قطعة سلاح تتدلى من كتفه أو ملفوفة على وسطه، ولكنهم تجمدوا من ذلك الإنسان الوديع مالك، الذي تحول عبر عيونه التي قدحت شراً وهو متوجه نحوهم إلى إنسان آخر... قال لهم: اخرسوا واصعدوا في سيارة عادل، فصعدوا وقال لعادل: اذهب بنا نحو مزرعة العسل. قاد عادل السيارة وجلس بجوابه مالك الذي وضع سلاحه على تابلوه السيارة، ساروا إلى المزرعة بعد منتصف الليل، وعندما وصلوا ترجل مالك ليفتح باب المزرعة لكي تدخل السيارة، ورغم نزول مالك وإبقائهم لوحدهم، ورغم أن عادل كان لا يسكت أبداً، إلا أنهم ظلوا صامتين ينظرون بصمت إلى مالك الذي أشار لعادل بأن يدخل السيارة، ثم أشار لهم بأن يترجلوا منها، فخرجوا ليروا أنهم قد وجدوا أنفسهم محاطين بعدد من المسلحين المقنعين... سلَّم مالك على أحد المقنعين فرد عليه المقنع السلام، وسأله عن سبب عودته، وقال له: ألم تقل أنك ذاهب للنوم بعد أن طلبنا منك أن تذهب لكي ترتاح لأنك لم تنم دقيقة واحدة منذ البارحة.

ظلّ كل من عادل وسعيد وحسن صامتون يتساءلون ما الذي يحدث؟ كيف تحولت مزرعة بيوت النحل إلى ثكنة عسكرية، أهؤلاء جنود للاحتلال أم هم عملاء؟ ماذا يفعل مالك معهم وماذا يفعلون هم بمزرعة والده؟.

صحيح أن والده سافر منذ عام للعمل خارج فلسطين، وترك المزرعة لمالك لكي يديرها بجانب دراسته الجامعية، ولكن ما الذي يحدث؟ وأين مالك؟ مالك الذي لا دخل له بأحد، لا علاقة له بأحد؟ سؤال يليه سؤال وألف سؤال، تدور الأسئلة في رؤوسهم بصمت، وبدون جواب، فلا جواب لسؤالٍ لم تنطق به شفاهنا.

أشار لهم مالك أن يتقدموا إلى الأمام إلى داخل مستودع يقع في أحد أطراف المزرعة، تلك المزرعة التي كانت تبعد عن القرية بعدة كيلومترات، تقع وحيدة عبر طريق فرعي يقود إليها عبر بيارات من شجر التين.

ساروا نحو المستودع ودخلوا، فرفع مالك غطاء كان يغطي به مدخل سري نحو سرداب، فنزلوا ونزل دون أن يتكلموا، ودون أن يلتفت أحدهم للآخر.

أضاء مالك السرداب أثناء نزولهم، فرأوا شخص وقد تم ربطه بجوار شخص آخر، وكان كلا الشخصان ينزفان من شدة الضرب الذي كان قد تلقاه.. من مالك.

أدرك عادل وسعيد وحسن عندما نظرا إلى يدي مالك بعد أن أشعل الضوء أن يدي مالك كانت قد تورمت، وقد رأوا أن تورم يدي مالك كان بسبب ضربه لهذين المربوطين في ذلك القبو... لكنهم ظلوا صامتين...

قال مالك: لقد قلت لكم أنني تعب لأنني والله العظيم لم أنم منذ استشهاد أخي وصديقي جمال، ولكنني كنت مشغول في ملاحقة واصطياد هذين العميلان، هذين الكلبين الجاسوسين، فهما المسئولان عن إعطاء الاحتلال المعلومات حول عمل جمال في المقاومة، وهذا بالذات صايل هو مسؤول وحدة الجواسيس ليس في قريتنا فحسب، بل في المناطق المجاورة، صايل هو الذي كان مقنعاً في تلك السيارة التي كان بداخلها جنود الاحتلال عندما قطعوا الطريق على جمال أثناء عودته إلى منزله، وهو أكد للجنود هوية جمال.

وأما ذلك الآخر المربوط معه فهو مساعده، وهو الذي يرصد تحركاتكم أنتم الثلاثة ولولا اعتقالي له ليلة البارحة لكان مصيركم أنتم عادل وسعيد وحسين هو مصير أخوكم وأخي الشهيد جمال.

رفع مالك سلاحه وسحب الأمان، فرفع كل من أصدقائه الثلاثة أسلحتهم وصوبوا نحو العميلان، وأطلقوا العنان لرصاصاتهم لتمزق جسد هذان الخائنان، فمن يخون وطنه لا مكان له بيننا، نفذت الرصاصات من أسلحتهم وعاد الصمت.. عاد الصمت بعد أن أحال العميلين إلى كومة من أشلاء الكلاب... وعاد الصمت إلى الأصدقاء الأربعة بعد أن عاد كل واحد مهم ليكمل مشواره في طريق مقاومة الاحتلال على طريقته الخاصة.

فلكل واحد منهم طاحونته الخاصة ليطحن بها أعداء الوطن.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 5 "

أيقونة الصليب المقدس

استيقظت "تالا" في الصباح الباكر على صوت جدتها، فلقد كانت تالا تعيش في منزل جدتها في مدينة بيت لحم، مهد المسيح، وكان أبوا تالا يعيشان في مدينة رام الله، بجوار المستشفى حيث كانا يعملان هناك، فلقد كانت أم تالا طبيبة أطفال، وكان أبو تالا طبيباً لعلاج أمراض القلب.

ولأنهما كانا دائماً مشغولين بعملهما في المستشفى، وخاصة الآن، لأن الانتفاضة الفلسطينية كانت تخلّف كل يوم عشرات القتلى الشهداء ومئات الجرحى من الأطفال والكبار، فكان أبوا تالا دائماً مشغولين، فقد كانا يحبان عملهما كثيراً ويحبان فلسطين أكثر، ولذلك أرسلا تالا الطفلة الصغيرة ذات الأعوام السبعة كي تعيش عند جدتها، ولكي تدرس في مدرسة بيت لحم، وكانا يأتيان من رام الله في نهاية كل أسبوع، لكي يريا تالا، ولكي يصليا مع تالا وجدتها في كنيسة الميلاد، تلك الكنيسة التي كانت بجوار منزل الجدة، والتي لم يكن يفصلها عنها سوى جدار صغير.

استيقظت تالا وقبّلت يد جدتها، وتناولت طعام الإفطار، ثم ذهبت لترتدي ملابسها، وبعد ذلك أضاءت شمعة وصلّت، وارتدت عقدها الذي كان يزدان بالصليب المقدس.

عاودت تالا تقبيل يد جدتها، وذهبت مسرعة إلى المدرسة، كانت تالا تلميذةً مجتهدةً، ولكنها كانت كثيراً ما تبدأ بالتفكير حتى تبدأ بأحلامها.. أحلام اليقظة الجميلة، كانت تحلم بالعيد، وهدايا العيد.. كانت تحلم أن تكبر وتصبح أميرةً أو طبيبة، كانت تالا كل يوم تحلم حلماً جديداً، وكانت معلمتها أيضاً كل يوم تصيح عالياً: تالا.. تالا.. أجيبي على السؤال!.

لم تكن تالا تعلم ما هو السؤال، لأنها كانت عبر جسدها في داخل الفصل، ولكن كان عقلها وفكرها يحلقان عالياً في أحلام اليقظة الجميلة، وما إن تسأل المعلمة سؤالها وتكرره مرة أخرى، حتى تتيقن تالا وتجيب على السؤال لتنجو من العقاب.. كانت تالا دائماً ما تمسك الصليب المقدس الملفوف حول رقبتها بيديها، وخاصة إذا كانت تحل أسئلة امتحان أو إن كانت خائفة أو حزينة على بُعد أمها وأبيها، أو حتى عندما تكون سعيدة... وكانت تمسكه بعد أن تنهي صلاتها وكانت تقبّله وحتى تكلمه وتشكو همها إليه.

كانت طفلةً طيبةً مؤمنة، وكانت تنتظر حلول يوم نهاية الأسبوع كي يأتي والداها، ولكي تلعب معهما، ولكي يذهبوا مع الجدة في صباح يوم العطلة "يوم الأحد" لحضور القداس في كنيسة الميلاد.

كانت تالا ترتدي أحلى الملابس وأجملها، لكي تحضر بها الصلاة، وكانت تذهب مبكرةً قبل والديها وجدتها لكي تحجز لهم مكاناً على المقعد الأول، كانت تصلي وتنشد الأناشيد وكأنها أميرة كبيرة، رغم أنها ما تزال ابنة السبعة أعوام.

وفي أحد الأيام قالت لها جدتها إن بعد غدٍ الأحد هو يوم الاحتفال بعيد يسوع الملك، وإن والديها سوف يحضران مبكراً كي يذهبوا جميعاً إلى الكنيسة، من أجل الاحتفال بذلك العيد، عيد يسوع الملك.

وفعلاً، وكما هي عادتها، ارتدت تالا أجمل الملابس، وذهبت مبكرة إلى الكنيسة، وهناك كانت الأخت الراهبة تنتظر على باب الكنيسة، وطلبت من تالا أن تنتظر قليلاً قبل أن تدخل للجلوس على كرسيها، فظنت تالا أن الكرسيّ محجوز لأحد، أحد جاء قبلها، ولكن ظنها كان خطأ، فقلد طلبت الأخت منها الانتظار كي تضع على رأس تالا تاجاً أصفر جميلاً، مزيناً بخمسة صلبان، وضعت الراهبة التاج على رأس تالا، وقالت لها: لقد وضعت على رأسك هذا التاج، لأن اليوم هو يوم عيد يسوع الملك.. ولأنني أحبك ولأنك تحضرين دائماً مبكراً وقبل موعد القداس، وطبعت الأخت الراهبة قبلةً على خدي تالا، وقالت لها: الآن تستطيعين الذهاب حيث تريدين أيتها الأميرة الجميلة.

شكرت تالا الصغيرة الأخت الراهبة، وأرسلت لها قبلةً في الهواء، وقالت لها: شكراً على وضعك التاج على رأسي أيتها الأخت الراهبة.

وما هي إلاّ دقائق معدودة حتى امتلأت الكنيسة بالأطفال والكبار، ولكن الأطفال كانوا متميزين جداً في ذلك اليوم، فقد كان تاج جميل يزين رأس كل طفل منهم.

صلّوا وقدسوا، وبعد ذلك تقدّمت النساء اللواتي كنّ يضعن شالاً على رؤوسهن إلى الأب الراهب ليتناولوا من بين يديه الخبز بداخل الماء الموجود بالكأس الذهبي، وبعد ذلك يضعه في أفواه المصلين، وعندما وصل الدّور على أم تالا وجدتها وضع الأب الراهب الخبز المقدس في فم أم تالا وفم جدة تالا، ولكنه لم يضع الخبز لتالا، بل وضع الكأس الذهبي على رأس تالا، وقبّل رأسها، فلقد كانت تالا ما تزال صغيرة على أكل الخبز المقدّس، إلاّ أن تالا رفضت أن تتحرك، وأشارت للأب الراهب بتواضعٍ وهدوء أنها تريد قطعة من الخبز المقدس، لم يتردّد الأب الراهب فوضع في فم تالا قطعة من الخبز المقدس بعد أن غمسها بالماء.

وهكذا عادت تالا إلى المنزل وهي سعيدة جداً، رغم تأنيب جدتها لها، فلقد قالت لها جدتها أنك ما تزالين صغيرة على تناول الخبز المقدس، إلاّ أن تالا كانت ترد وتقول: أنا اليوم أصبحت كبيرة، كبيرة جداً، فلقد وضعت التاج الأصفر ذو الصلبان الخمسة، وتناولت الخبز المقدس، ولقد قبّلتني الأخت الراهبة اليوم.. تالا أصبحت أميرة، أميرة كبيرة.. ضحكت الجدة وضحك كلّ من والد ووالدة تالا، ضحكوا كثيراً .

ظلت تالا ترتدي ذلك التاج طوال اليوم، وعند حلول المساء، وبعد تناول العشاء، وضعت تالا التاج على أحد الأرفف بعد أن قبّلته، وذهبت إلى جدتها وأضاءت شمعة، وصلّت مع جدتها، ثم ذهبت إلى النوم، وكعادتها قبل أن تنام كانت تالا تحلم أحلام اليقظة، وكانت تفكر بالدخول إلى الجنة عبر الباب الضيق الذي يدخل منه المؤمنون.. نامت وهي تحلم بالجنة الجميلة، نامت وهي تبتسم للطيور التي كانت تحلّق حولها، وللفراشات التي كانت تحط على يديها... نامت نوماً هانئاً.

ولكنها وقبل أن تستفيق كعادتها على صوت جدتها التي كانت توقظها للذهاب إلى المدرسة، استيقظت تالا الطفلة الصغيرة مذعورةً خائفة من صوت الرصاص والقنابل، ومن صوت جنازير الدبابات، فلقد اقتحمت قوات الاحتلال مدينة بيت لحم، مهد سيدنا المسيح عليه السلام، لكي تطارد المقاومين وتلاحقهم وتقتلهم، ولكي تعيث خراباً وقصفاً وتدميراً في المدينة.

استيقظت تالا واستيقظت جدتها، كانتا الاثنتان وحيدتين في منزلهما بجوار كنيسة المهند، تلك الكنيسة الطيبة المباركة التي التجأ إليها المقاومون الفلسطينيون من أجل الاحتماء من بطش قوات الاحتلال التي كانت تملأ أرجاء المدينة، وما هي إلا ساعات حتى كانت الكنيسة قد امتلأت بعشرات الشبان المقاومين، وحتى كانت دبابات الاحتلال تحاصر الكنيسة... تحاصر المهد... مهد المسيح.. تحاصر المقاومين والرهبان والراهبات، وكانت تلك القوات تطلق الرصاص بدون رحمة على كل شيء يتحرك حول الكنيسة... وبعد ذلك، أصبح الجنود يطلقون الرصاص على نوافذ الكنيسة، فاستشهد أحد المقاومين الذين كانوا ينظرون من خلال النافذة.

استمر هذا الحصار واشتد، وأعلن جيش الاحتلال أن المقاومين دخلوا إلى الكنيسة وأنهم يحتجزون الرهبان والراهبات، ولكن سرعان ما خرج بيان من الرهبان قالوا فيه إن المقاومين لا يحتجزون أحداً، وإن المقاومين هم ضيوف على الرهبان، وإنهم لجأوا إلى الكنيسة ليحتموا من بطش قوات الاحتلال.

طوال تلك الفترة كان الأب الراهب والأخوات الراهبات يقدّمون كل ما يحتاج إليه المقاومون من أغطية تقيهم برد الشتاء، ومن طعام ومن علاج لأولئك المقاومين الذين كانوا قد أصيبوا قبل دخولهم إلى الكنيسة، ولأولئك الذين أصيبوا بعد دخولهم إلى الكنيسة.. لقد قدّم الأب الراهب وكل من معه من رهبان وراهبات كل المساعدة دون كللٍ أو ملل ، ولقد كانوا يصلّون ويضيئون الشموع لعل الله ينجي المقاومين وينجي الكنيسة من بطش قوات الاحتلال.. صلّوا كلهم... كلهم، فقد صلّى الأب الراهب ومن معه من كان نصرانياً من المقاومون، ولقد صلى المقاومين المسلمين في أحد أركان الكنيسة... صلّوا هناك، هناك صلّوا في كنيسة المهد.. صلوا وتضرعوا إلى الله أن ينجيهم وينجي الكثير من الدمار، فلقد كانت قوات الاحتلال قد دمّرت أحد المجسمات التي كانت تعلو الكنيسة.

استمرت الأجراس تقرع، واستمرت الشموع تضاء، واستمر المصلون، واستمر الحصار... استمر الحصار وطال، طال كثيراً جداً، فقد بدأ الطعام بالنفاد ، وأصبحت الجراح بلا دواء، وجثامين الشهداء داخل الكنيسة بقيت تنتظر أن تدفن.. كانت الظروف قاسية وصعبة، كان البرد قارصاً، وكان الحصار محكماً، لقد وصلت قسوة الاحتلال إلى أن يأكل المحاصرون أوراق الشجر، نعم أوراق الشجر المزروع حول الكنيسة، ومع ذلك لم يكفّ قناصة الاحتلال عن قنص أولئك المقاومين لمنعهم من أكل أوراق الشجر، مما أدى إلى استشهاد أحدهم، وهو يحاول أن يسد جوعه من تلك الأوراق.

في تلك الأثناء، كان الخوف قد زال من قلب تالا، ولكنه قد بقي في قلب جدتها العجوز، فقد كانت تالا تغافل جدتها لتحبوا دون أن يراها الجنود كي تصل بحبسها الصغير إلى داخل الكنيسة، فلقد كانت تالا قلقة على الأخت الراهبة والأب الراهب، وأرادت أن تطمئن عليهما ، ولم تكن تعلم بوجود المقاومين هناك بداخل الكنيسة.

ما إن رأت تالا المقاومين حتى وجدتهم وقد كانوا متعبين مرهقين من شدة الجوع والحصار.. ذهبت تالا لترى الأخت الراهبة، وجدتها تصلي بهدوء وسكينة، تصلي وكأنها تؤدي صلاتها الأخيرة، وما إن انتهت الراهبة من صلاتها التي كانت طويلة، طويلة جداً، حتى انتبهت لتالا التي كانت تجلس خلفها وهي تصلي أيضاً.

سألت الراهبة تالا ما الذي أتى بكِ إلى هنا يا ابنتي؟، فقالت لها تالا: لقد حضرت لكي أطمئن عليكِ، ولكي أصلي، أليس اليوم هو الأحد، صحيح أنني لم أحضر باكراً مثلما كنت أفعل دائماً، ولكني حضرت متأخرة بسبب الجنود الذين يمنعون المصلين من الدخول إلى الكنيسة.

نظرت الأخت الراهبة إلى تالا، وكأنها تنظر إلى ملاك من ملائكة الجنة، قبّلتها ورسمت بيديها الصليب على صدرها، لعل الرب الحامي يحميها.. ثم طلبت الراهبة من تالا العودة إلى منزلها، وطلبت منها أن لا تحضر إلى هناك حتى ينتهي الحصار.

قالت لها تالا: أمركِ مطاع.. قالت ذلك لأنها كانت تحبّ الراهبة جداً، ولكن تالا عندما أرادت العودة الى البيت وهي تحبو، لم تتمكن، فلقد كان الجنود منتبهين عليها، ولم تستطع مغافلتهم والتسلل عائدة إلى البيت، واضطرت الراهبة أن تبقي تالا معها، وكانت الراهبة بعد أن تنهي صلاتها تحاول مساعدة المصابين بالرصاص.. كانت تالا تنظر وهي صامتة لا تتكلم، موجودة وغير موجودة، حتى نادى عليها أحد المصابين وهو في شبه غيبوبة من شدة الألم والجوع، وقال لها: تعالي يا ابنتي، تعالي بجواري، كان المقاوم من شدة الهذيان والحمى يظنها ابنته.

نظرت تالا إلى الراهبة فأشارت لها بأن تذهب.. ذهبت تالا وجلست عند رأس المقاوم، وبدأت تمسح رأسه بيديها الصغيرتين... كانت تالا، ابنة السبعة أعوام قويةً ثابتةً مؤمنةً، لا تخاف من شيء، فهي كانت تقول لنفسها أنا في بيت الله، وبكنيسة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام، ولذلك فلا خوف.. فإن الرب يرعاني ويحميني.

بعد عدة دقائق بدأ المقاوم يكلّم تالا، ويسألها عن دروسها بالمدرسة وعن أمها، وكانت تالا تجيبه وتطمئنه، وقال لها: إقرئي لي سورة الفاتحة كي يطمئن قلبي... لم تعرف تالا عن أي سورة يتحدث ولكن الراهبة انتبهت وفتحت كتاب القرآن الكريم على السورة الأولى به، وأعطته لتالا لكي تقرأ، فقالت تالا: بسم الله الرحمن الرحيم.. الحمد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيم.. وأكملت قراءة السورة إلى آخرها.

ما إن انتهت تالا من قراءة سورة الفاتحة حتى كانت روح المقاوم تصعد مرتاحة، لكي تعود إلى الله... الله الرحمن الرحيم، صعدت روحه لتفرّ من الحصار والجوع وألم الجراح... لم تدرِ تالا باستشهاد الشهيد، ولكن الأخت الراهبة أدركت ذلك فغطته بقطعة قماش كانت تحملها، ودعت الله أن يرحم الشهيد، وأخذت تالا التي وضعت القرآن الكريم على صدر الشهيد، وعندما سألتها الأخت الراهبة عن ذلك قالت: لكي يقرأ بعد أن يستيقظ من نومه.

ابتسمت الأخت الراهبة ابتسامةً حزينةً على الشهيد وعلى براءة الطفولة، على براءة تالا، وعلى قسوة الظروف... بعد أن سارت تالا والراهبة مبتعدتان عن الشهيد، تركت تالا يد الأخت الراهبة وذهبت مسرعةً نحو الشهيد، وخلعت من حول رقبتها طوقها الذي كان الصليب يزيّنه، ووضعه بجوار القرآن الكريم، فقالت لها الراهبة: لماذا فعلت ذلك؟، قالت تالا: لا أعلم.. فعاودت الراهبة سؤال تالا: لماذا فعلت ذلك يا ابنتي؟.. قالت لها تالا: أقسم لك أنني لا أعلم.

أدركت الراهبة المؤمنة أن هناك قوةً أكبر من المنطق، وأعظم وأصعب من أن تفسّر هذا الذي دفع تالا لتفعل ما فعلته، وأدركت أن الأطفال هم أحباب الله، وأدواته للخير والمحبة، فالأطفال هم طيور الجنة.. وتذكرت الراهبة أنها هنا في كنيسة المهد، مهد المسيح، المسيح الذي كلّم الناس في مهده ليعلن لهم براءة أمه، وليعلن أنه نبي الله.

ذهبت الأخت الراهبة مع تالا، وعندما أصبحت الظروف ملائمة، تسللت تالا عائدةً إلى منزلها إلى جدتها التي كانت ما تزال نائمةً، ولا تدري عن شيء.

بعد أيام أخرى على الحصار، حصل اتفاق على فكّ الحصار عن الكنيسة وعن بيت لحم، بشرط أن يُبعد كل المقاومين الذين كانوا بداخل الكنيسة إلى خارج الضفة الغربية، يبعدوا إلى غزة، إلى أوروبا، إلى أي مكان... بعيداً عن كنيسة المهد في بيت لحم، وعن كنيسة القيامة في القدس الشريف وعن كنيسة البشارة في الناصرة.

في تلك الأثناء، بدأ الرهبان بنقل المصابين من المقاومين إلى الحافلات التي نقلتهم إلى الإبعاد، نقلتهم بعيداً عن أبنائهم وبناتهم، بعيداً عن آبائهم وأمهاتهم.. بعيداً عن بيوتهم التي يسكنوها منذ مئات السنين... كان الكل يودّع الكل، وكان الكل يبكي على الكل.

حتى تالا، كانت تنظر إلى هذا المشهد وهي تبكي مع جدتها، تبكيان على فراق مقاومين احتموا بالكنيسة، تبكيان على ذلك العالم الظالم الذي أغمض عينيه عن مجازر الاحتلال، ذلك العالم البائس الأسير للعنجهية الصهيونية، تلك العنجهية التي جعلت الصهاينة يحاولون قتل المسيح عليه السلام، وليس لشيء، إلاّ لأنه أراد نشر دين الله على الأرض، بعد أن كان اليهود يعيثون فساداً وخراباً في الأرض.

صعد المقاومون، وانطلقت الحافلات بعيداً... بعيداً، رفع الحصار، ورفع الشهداء الذين استشهدوا في الكنيسة، رُفعوا عالياً ليزفّوا إلى مثواهم الأخير، إلى مقبرة الشهداء.. إلى جنات الخلد، إلى السماء، حيث النبيين والصديقين، حيث المسيح عيسى عليه السلام، والصديق محمد عليه السلام، حيث موسى عليه السلام.. إلى الجنة، جنة الخلود، جنة العمل الصالح.
ما أن استيقظت بيت لحم على ذلك اليوم، حتى بدأت تحاول استعادة حريتها، وبدأ الكل صغاراً وكباراً يزيلون آثار هذا العدوان الهمجي القذر... وعلى الفور، ذهبت تالا إلى الأخت الراهبة في الكنيسة، ذهبت وهي تحمل معها مكنسةً، وبدأت تكنس الكنيسة، حتى عادت جميلةً كما كانت دوماً... وبدأت تالا تساعد الراهبات في كنس الطرقات حول الكنيسة، حتى وصلت إلى أحد المساجد، فوجدت الأطفال والكبار ينظفون آثار العدوان عليه، فبدأت تالا تساعدهم، تالا الصغيرة ابنة السبعة أعوام، كانت أكبر من الاحتلال، أكبر من حقده وكرهه، وأكبر من جبروته، كانت تالا أعظم صورةٍ من صور حب فلسطين، حبّ يعني العطاء، العطاء بدون انتظار الجزاء.
فلسطين ما تزال ترزح تحت الاحتلال، ولكننا كفلسطينيين أحرار، بداخلنا الحرية والعزة والكرامة.. ما زلنا نحن النصارى نذكر كيف رفع صلاح الدين الصليب من على الأرض ليضعه في مكانه

عالياً كما كان، وليحافظ على العهدة العمرية التي يحافظ عليها المسلمون في فلسطين حتى يومنا هذا، فنجد في كلّ قرية كنيسة ومسجداً ، يتعانقان بمحبةٍ وبتسامح.

كبرت تالا، وأصبحت معلّمة، ولم تصبح طبيبة كما كانت تريد وهي طفلة صغيرة، أصبحت معلّمة تعلم الأطفال المحبة والتسامح، تعلّمهم العزة والكرامة، تعلّمهم أن يتمسّكوا بحقهم وأن يقاوموا ظلم الاحتلال.

وظلّت تالا تتردد على كنيسة القيامة، كي تصلي هناك مع جدتها ووالديها، وكانت بعد نهاية الصلاة، تذهب لتسلّم على الأخت الراهبة، الأخت التي رأت في أيام الحصار أكثر ما رأته طوال أيام حياتها، رأت الجوع والتصعيد، ورأت العطاء والمحبة، رأت مقاومين متمسّكين بوطنهم، ورأت احتلالاً يريد قتلهم كما حاول قتل المسيح.

نحن فلسطينيون مسلمون ومسيحيون، وسنبقى كذلك حتى قيام الساعة بإذن الله.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 6 "

الشجرة المباركة

في أحد ضواحي مدينة كراكاس الفنزويلية، تعيش عائلة فلسطينية منذ سنين طويلة، كانت هذه العائلة تعيش حياةً هادئةً هانئة، تعيش مندمجةً مع المجتمع المتسامح الذي يتقبل الآخر بقلب مفتوح.

أنس، هذا الفتى العنيد، كان أحد أفراد هذه العائلة، هو فتى صامت، كثير التفكير، مجتهد في مدرسته، محافظ على حضور دروس تعليم القرآن، محافظ على تدريبه في النادي الرياضي، لكنه كان عنيداً ، عنيدا جداً، والدته كانت تقول له إنك اكتسبت صفة العناد هذه من خالك علي، فخالك علي كان عنيداً، متحدِياً للصعاب، عندما كانت تقول هذه الكلمات كانت أم أنس تقولها والدموع تملأ عينيها، فلقد كانت تحب أخاها علي حباً كبيراً جداً، وكانت مشتاقة إلى لقائه، ولكنها لم تكن تستطيع، فعلي هناك بعيداً، هناك في فلسطين المحتلة، هناك في زنزانة الأسر، فلقد أُسر علي من قبل قوات الاحتلال، لأنه قاوم ذلك الاحتلال بكل ما أوتي من قوة ومن عناد وتحدٍ ، فعليّ، هو محامي فلسطيني، درس المحاماة وعلوم الحقوق والقانون الدولي في أوروبا، في إسبانيا، في برشلونة.. هناك درس لكنه إلى فلسطين قد قرر العودة لبدء مشوار الدفاع عن حقوق شعبه المسلوبة من قبل المستوطنين الصهاينة، ومن قبل قوات الاحتلال. عاد علي وهو يحمل بقلبه كل الحب لوطنه فلسطين، كل الاشتياق إلى شجر الزيتون، عاد يحمل بعقله الكثير الكثير من الأفكار الثورية، تلك الأفكار التي استقاها من جيفارا وكاسترو، تلك الأفكار الأمريكية اللاتينية، أفكار مقاومة الظلم ودحر الاحتلال.

لكن علياً صُدم بواقع الاحتلال وجبروت المستوطنين، الذين كانوا لا يبالون بالقوانين المحلية التي وضعها الاحتلال لكي يبرر قمعه للفلسطينيين، فرغم أن المحتلين هم الذين وضعوا تلك القوانين، إلا أن المستوطنين كانوا لا يبالون بها ولا يبالون بأي قانون... سوى قانون القوة، فكانوا يعيثون فساداً في القرى الفلسطينية، يقتلون ويهينون ويحرقون أشجار الزيتون... أو يقتلعونها، كانوا دائماً يقتلعون تلك الأشجار المباركة لكي يحطموا قلوب الفلسطينيين، ويكسروا معنوياتهم، ولكي يرغموا الفلسطينيين على الرحيل... الرحيل وترك بلادهم وأراضيهم، لكن الفلسطينيين رغم كل هذه المعاناة والاضطهاد كانوا ثابتين صامدين.. عنيدين متحدين، وعلي كان أحد أولئك العنيدين المتحدين... فبعد أن استنفذ كل الوسائل القانونية، ورغم أنه حصل على أمرٍ من محكمة العدل

العليا بوقف بناء الجدار... ذلك الجدار الذي كان يلتهم الأرض ويتلوى كالأفعى ليفصل القرى الفلسطينية عن بعضها البعض، ويقطع أوصال الوطن، ذلك الجدار الذي اقتلع مئات آلاف أشجار الزيتون المباركة، لكي يبنى على يد المستوطن وقوات الاحتلال، ذلك الجدار البغيض.

ورغم حصول علي وفلسطين على أمرٍ دولي وحكم قضائي، يفيد أن الجدار غير قانوني، وأنه قد بني على أرضٍ فلسطينية، إلا أن المحتلين ضربوا بذلك القرار عرض الحائط، وقالوا لن نعترف بالقانون وسوف نبني الأسوار تلك الأسوار، وعندما يئس علي من تحقيق العدل بمساعدة القانون، قرر أن يثور... فهو كان دائماً يقول أن غياب الأمن يولد الفوضى، أما غياب العدل فيولد الثورة.

وبتلك الأفكار الثورية، بدأ علي خال أنس بمقاومة الاحتلال، فبعد أن كان يحمل كتب القانون بين ذراعيه، أصبح يحمل البندقية، نعم، حمل ذلك الشاب المتعلم الحقوقي القادم من إسبانيا... إسبانيا ذات التاريخ الاستعماري البغيض... حمل أفكاره الثورية، أفكار جيفارا وكاسترو وثوار أمريكا اللاتينية، وحمل معه سلاحه الى ساحة المعركة، وبدأ ينفذ العملية تلو العملية، لمنع الجنود من بناء الجدار، وكان يحطم أسوار الجدار ويدمر الجرافات التي كانت تهدم وتقلع الأشجار لتبني الجدار، قاتل علي لأنه حر، حر بفكره، حر بمبادئه، قاتل وقاتل حتى اعتقل، ووضع في الأسر، ووضع بداخل السجن، فبعد أن كان علي محامياً حقوقياً يخرج المظلومين من خلف قضبان الأسر، أصبح أحد أولئك المظلومين، أسر ذلك الفلسطيني العنيد.

تجفف أم أنس دموعها وتقول لأنس: أنت عنيد، عنيد مثل خالك ، ذلك العنيد.. أما أنس فكان يرد عليها: وأنت أيضاً يا أمي عنيدة.. عنيدة مثل خالي العنيد، فإن كنت أنا ابن أخته، فأنت أخته، وذلك يعني أنك عنيدة مثله تماماً.

ضحكت وضحك أنس العنيد، كان كل ذلك الجدل يدور لأن أم أنس أكثرت من وضع الزيت على ساندويش الزيت والزعتر التي كانت تصنعها لأنس ليأخذها معه إلى المدرسة، فلقد كان أنس لا يحب الزيت أبداً، أما سبب عدم حبه للزيت، فيعود إلى أشياء كثيرة، منها مثلا، أنه عندما كان يعود من النادي الرياضي، وقد أصيب بشد عضلي، ورغم أن المعالج في النادي الرياضي قد وضع رباطاً على يد أنس، إلا أن أمه كان تفك الرباط من على يد أنس، وتقوم بتدليك يد أنس بالزيت، ولا تكف عن تدليك يد أنس إلا بعد دقائق طويلة، وبعد أن تتأكد أن زيت الزيتون قد تغلغل إلى يد أنس، وبعد ذلك تعيد ربط الرباط كما كان، هذا التصرف كان يزعج

أنس ويقول: لا داعي للزيت ما دمت أضع رباطاً ، ولكن أمه كانت تقول له: هذا الزيت من الشجرة المبارك، من هناك من عند جدك وجدتك من فلسطين، من تلك الأشجار التي زرعها جد جدك قبل مئات السنين، وكانت تبدأ تقص عليه تلك القصص، القصة تلو الأخرى، حتى تنتهي من تدليك يديه، وهذه الحركة كانت تلقائية، وهذا الجدل بين الفتى العنيد أنس وأمه العنيدة، حتى عندما كان أنس يصاب بالمرض والزكام والرشح، فبعد أن كانت تأخذه إلى أفضل الأطباء، وبعد أن تشتري له العلاج وتعطيه إياه، فإنها كانت تدفئ بعض الزيت... زيت الزيتون، وتقوم بتدليك صدره، وتستمر في تدليك صدره حتى ينام.

عند مرضه، لم يكن أنس يقوى على جدال أمه، فكان يدعها تفعل ما تريد بزيتها المبارك. ولكنه بعد يوم أو يومين، وعندما يشفى يبدأ بالقول إنه شفي بسبب الأدوية وليس بسبب الزيت...يقول ويردد: لقد شفيت بسبب الأدوية وليس بسبب الزيت، يا أم الزيت، يا أم الزيت، فلقد كان أنس عندما لا يريد الزيت يقول لأمه: لا أريد زيت يا أم الزيت.

وفي إحدى المرات، وبعد عناد أنس لدرجة أنه رفض أن يأخذ معه ساندويش الزيت والزعتر إلى المدرسة... قررت أمه العنيدة، أم الزيت وأخت علي العنيد، قررت أن تلقن أنس درساً لن ينساه أبداً، قررت أن لا يكون هناك زيت زيتون يقدم لأنس بعد اليوم.

قررت وعزمت العزم... فهي قوية وعنيدة وأنس لم يكن يدري عن خطط أمه شيئاً.

وفي صباح اليوم التالي، سألت أنس وهو يرتدي ملابس المدرسة: ماذا أعد لك ساندويش على الفطور؟ هل تريد الجبن أم المربى أو تريد المرتديلا؟ قل لي يا أنس حتى أعد لك ساندويشة من أحد تلك الأنواع لكي تأخذها معك إلى المدرسة.. رد أنس على الفور، وقال: جبنة. وفي اليوم التالي: مربى، وفي اليوم الذي يليه: مرتديلا، استمر على هذا الحال طوال الأسبوع، ولكنه اشتاق إلى الزيت والزعتر، ولكنه لم يجرؤ على طلب ذلك من أمه.

وفي أحد الأيام، سأل أنس أمه عن مرطبان اللبنة، فقالت له إن كرات اللبنة موضوعة داخل المرطبان، وأنها مغموسة بالزيت، وقالت له إنك لا تحب الزيت، وهذا يعني أنك لا تحب كرات اللبنة، فماذا تريد بالمرطبان؟ قال بعد صمت قليل: لا، لا شيء، فقد أردت أن أسأل...

وما هي إلا أيام، حتى اشتاق أنس للأكل المعتاد، فلقد كان أنس يحب أن يضع حبة أو حبتين من المقدوس في قطعة خبز لأكلها في طريقه إلى النادي، فسأل أمه عن مرطبان المقدوس فقالت له: إنني وضعته على السقيفة مثلما وضعت مرطبان اللبنة، فالمقدوس باذنجان صغير مملوء باللوز والجوز والفستق، وموضوع بداخل مرطبان مملوء بالزيت... وبما أنك لا تحب الزيت... زيت الزيتون، فلقد وضعته بعيداً عنك حتى لا تزعل ولكي لا تغضب، فأنت تعلم أنني ممكن أن أنسى أنك لا تحب الزيت، وأصنع لك ساندويشة من تلك الأشياء التي لا تحبها، ولذلك وضعتها في السقيفة.

صمت أنس... صمت ولقد أدرك أنه في ورطة، ولكنه كان عنيداً، عنيداً جداً، وقال بعناده: شكراً لك لأنك أبعدتي تلك الأشياء عني، فأنا لا أحب الزيت، ولا آكل الزيت... صمتت الأم الذكية، الأم العنيدة، وقالت له بعد صمتها: حسناً، مع السلامة.

ذهب أنس إلى النادي، ذهب ليتدرب، ولسوء حظه أصيب بشد عضلي، وكما هي العادة، وضع له الطبيب الضمادة... وعاد أنس بعد انتهاء التدريب إلى البيت... عاد، لكن أمه قالت له: الحمد لله على سلامتك، ممتاز، ممتاز، لقد وضع لك الطبيب الضمادة بشكل ممتاز.

ذهب أنس إلى غرفته وهو لا يصدق ما حصل، فلقد كان أنس يترفع أن تفعل أمه مثلما كانت تفعل دائماً وعلى مر السنين الماضية، أي أن تقوم بتدليك يده بالزيت، لكنها لم تفعل.

بعد عدة أيام نزع الضمادة وعاد إلى التدريب، عاد وهو يشعر أن الألم ما زال موجوداً، على عكس المرات السابقة، لكنه استحمل الألم، فهو فتى عنيد، عنيد هو ذلك الفتى أنس، ولكن أمه كانت أعند، أعند لكنها لم تكن أقسى، بل كانت تتألم من الداخل، لأنها لم تدلك يد أنس، كانت تتألم لأنها أبعدت تلك الأصناف من الطعام التي كان أنس يحبها، ولكنه كان يعاند ويرفض تناولها لمجرد التمرد أو العناد، لكن أقسى تلك الأيام التى كانت تعصر قلب أم أنس عندما أصيب أنس بالبرد والرشح، صحيح أنها أخذته معها إلى الطبيب وأحضرت له الأدوية، وجعلته يتناولها وسهرت طول الليل بجواره، إلا أنها ما تزال ترى فيه الطفل الصغير، سهرت طوال الليل وهي تتألم، تلك العنيدة لم تكن قاسية، ولكنها أرادت أن تعلم لك الفتى العنيد درساً قاسياً.

شفي أنس لكنه كان مشتاقاً لذلك الزيت الدافئ، مشتاقاً ليد أمه وحنانها.. لكنه عنيد، لم يقل شيئاً رغم إحساسه بخطئه وبغبائه، إلا أنه لم ينطق بأي كلمة، فهو فتى صامت وعنيد، عنيد مثل

خاله علي، هكذا كانت تقول أمه وهي تقول لنفسها إن أخاها علي لا يجد الزيت ليضعه على الخبز الذي يأكله بداخل زنزانته، فأخوها علي يأكل خبزه جافاً بلا زيت وبلا زعتر.

أم أنس كانت حزينة على أخيها، مدركة مدى معاناته، لكنها كانت فخورة بتحدي أخيها للمحتل وصموده في وجه آلة الدمار والحرب الصهيونية.

لقد قررت تلك العنيدة أن ترسل ابنها أنس إلى هناك، إلى فلسطين عند جده وجدته، هناك ليس لتعلمه حب الزيت والزعتر، ولكن لتعلمه حب الأرض، حب الشجر، وحب الحجر، هناك حيث الشعب العنيد الصامت قولاً والمتحدي فعلاً، فالفلسطينيون الثوريون لا يحبون الحديث كثيراً، فهم صامتون يجعلون أفعالهم الثورية هي التي تتحدث عنهم... أرادت أم أنس أن تعلمه ذلك، وأوكلت تلك المهمة لفلسطين ولأشجارها وصخورها.

وفعلاً، عند انتهاء امتحانات الفصل الدراسي الأخير، وعند بدء العطلة الصيفية، اتفقت أم أنس مع أبي أنس على إرسال أنس لقضاء العطلة الصيفية في فلسطين، تحمس أنس كثيراً فهو لم ير فلسطين أبداً، تحمس لأنه أراد أن يرى جده وجدته، ولكنه تحمس أكثر لأنه أراد المغامرة، فهو ما يزال فتى على أبواب المراهقة، وأراد أن يتحرر من والدته العنيدة، رغم أنها لم تكن تضيق عليه، إلا أنه أراد أن يحلق بعيداً.

ودَّع أمه وأباه، ودَّع من كانوا يعيشون معه بالبيت، ودَّع أصدقاءه في النادي والحي والمدرسة، وركب الطائرة إلى هناك، إلى الأردن، حيث سيلتقي هناك بخالته التي سوف تأخذه إلى فلسطين. فلقد كانت أم انس اتصلت بأختها وطلبت منها أن تحضر إلى عمان لاستقبال أنس، ولكي تصطحبه إلى فلسطين، إلى منزل جده وجدته في قريتهم، قرية الشجرة المباركة... هي قرية جميلة، وادعة في الريف الفلسطيني، وادعة بأشجارها الكثيرة وكروم عنبها التي تملأ الحقول، تفوح من تلك القرية رائحة الزعتر البري، ورائحة البابونج والميرمية، روائح كثيرة تجمعت عبر نسمات الهواء لتشكل باقة عطرية ساحرة، تسحر من يستنشقها أو من يكون سعيد الحظ، فتحمل الرياح تلك الرائحة الزكية إلى بيته، إلى سريره، وهو نائم ليستيقظ عليها وعلى صوت تغريد العصافير... التي تملأ أغصان الأشجار مزاحمةً الفراشات الملونة.

إلى القرية وصل أنس وخالته، وقرأ أنس اسم القرية المكتوب على مدخلها، فسأل خالته: وأين تلك الشجرة المقدسة؟ فأشارت بيدها: هناك... هناك، ألا ترى؟ لم يَر أنس شجرة، بل رأى مجموعة

كبيرة من الأشجار. فعاود سؤال خالته: أين هي الشجرة المقدسة؟ فأدركت أن أنس يظن أن الشجرة المقدسة هي شجرة واحدة أطلق عليها هذا الاسم، وعند ذلك قالت له: الشجرة المباركة هي شجرة الزيتون، وأكملت الزيتون الذي يصنع منه الزيت.

صمت أنس وصمتت خالته، خالته التي كانت قد درست الحقوق في جامعة بير زيت، والتي كانت تعلم من خلال أختها أم أنس تفاصيل كثيرة عن أنس وعناد أنس. فلقد أخبرتها أم أنس بنيتها إرسال أنس لكي تكسبه تجربة جديدة، لعلها تفيده وتقلل من عناده.

وصل الاثنان إلى بيت الجد والجدة، قبَّل الجد أنس وقبَّلت الجدة أنس، وتعانقا عناقاً كبيراً ، فلقد كان أنس يحب جديه كثيراً، وكان يتحدث إليهما عبر الهاتف دائماً.. وعند حلول المساء، دخلت الجدة لتعد طعام العشاء لأنس ولها ولزوجها، وعادت وقد ملأت الصينية المصنوعة من القش باللبنة التي كانت تعانق الزيت، وبجوارها المقدوس الذي كان هو الآخر يعانق الزيت، أما ذلك البيض المقلي على شكل عيون، فكان يسيح ويغوص في بحر من الزيت، ولم تنسَ الجدة الزعتر وصحن الزيت.

تصادف إحضار الجدة لصينية القش مع دخول الخالة، وهي تحمل بيدها بعض الأكياس، وعندما سألت أمها عن ماذا تحمل؟ قالت: هذا طعام أحضرته لكي يأكل منه أنس، كان أنس ينظر صامتاً متجاهلاً ما يحدث حوله. فوضعت الجدة صينيتها، ووضعت الخالة ما كانت تحمل من جبن ومربى وقشطة وحتى من العسل.

بدأ أنس يتناول الطعام، فهو وخلال الأشهر الماضية كان قد ملَّ أكل الجبن والمربى، وملَّ أكل تلك الأكلات التي لم يكن يحبها، وإنما كان يأكلها عناداً ليس إلا...

ألقى خبزته التي قطعها من رغيفه الساخن الذي صنعته جدته له في طابونها الموجود في أحد أركان حديقة المنزل، ألقى قطعة الخبز لكي تسبقه إلى صحن اللبنة، ولكي يرفعها مسرعاً من شدة اشتياقه للبنة، وتلت تلك اللقمة لقمة أخرى من البيض والزيت الذي يسبح به، ولم يتوقف حتى ملأ بطنه... دون أن يقترب من الأكل الذي أحضرته له خالته، لم تعلق خالته على ما حدث، وكأنه لم يحدث، وتوقفت عن إحضار تلك الأنواع من الأطعمة، وخاصة بعد أن شاهدت أنس في صباح اليوم التالي وهو يصب الزيت على البيض المسلوق، ورش بعض الملح والزعتر بنفس الصحن، ويخلط تلك الخلطة ويتناولها بشهية مفتوحة، شهية فتى لم يأكل منذ فترة طويلة.

كانت تراقب بصمت، ولكنها كانت تتصل بأختها أم أنس، وتقول لها ما يفعله أنس.. لم تكن أم أنس متفاجأة مما كان يفعله أنس، على العكس، كانت تعلم ان ذلك الفتى العنيد سوف يفعل ما فعله، فهمت الخالة قصد أختها وأدركت أنها قد وقعت بين أم وابنها، كلاهما أعند من الآخر، فأعجبتها اللعبة، لعبة الصمت والمشاهدة.

بعد الإفطار، توجه أنس على ظهر حمار إلى أحد حقول الزيتون مع جده، وهناك بدأ الجد يتفحص أشجاره واحدة تلو الأخرى، يتفحص الأشجار ويكلمها ويكلمه، يسمع الريح وكأنه يسمع صوت الشجر يرد عليه، فلقد كان الجد ينتظر أن تنضج الثمار ليبدأ بقطفها ثم عصرها لتصبح زيتاً أصفراً ذهبي اللون.

كان الجد يرعى تلك الأشجار كما كان يرعى أبناءه وأحفاده، استمر أنس يحضر كل يوم مع جده إلى حقل الزيتون وكان يتمتع بأكل قطوف العنب التي نضجت قبل أوانها، أو يأكل حبات التين التي تملأ المكان.

بعد مرور الأيام، بدأ أنس يكره ذلك الروتين، فهو أصبح يسهر على التلفاز حتى وقت متأخر، مما جعله لا يستيقظ باكراً، أما الجد فكان ينام مبكراً ويستيقظ مبكراً.

ملَّ أنس... ملَّ أنس الذي لم يعد أنس العنيد، فكان يفعل كل ما تطلبه منه جدته أو جده، كان يطعم الدجاج وينظف القفص ويطعم الحمار، ويساعد جده بكل شيء، ويشتري لجدته حاجياتها من السوق، وكان في بعض الأيام يذهب مع خالته إلى المحاكم لحضور مرافعاتها أمام القضاة... فهي محامية ماهرة جداً مثلما كان أخوها علي... علي الذي لم يستطع أنس الحصول على تصريح من قوات الاحتلال لكي يزوره في السجن... علي الذي كان أنس يحبه ويحترمه ، وذلك الاحتلال البغيض الذي كان أنس يكرهه ويحتقره.

لم يترك الاحتلال وقواته وجرافاته قرية الشجرة المباركة ترقد بسلام كما هو حالها منذ آلاف السنين، بل أرادوا لها الدمار، الدمار والخراب، ففي أحد الأيام بينما ما يزال أنس نائماً، دخلت إلى القرية قوة كبيرة... كبيرة جداً من قوات الاحتلال، وترافقها عدد من جرافات أعدت خصيصاً لاقتلاع الأشجار، دخلت إلى القرية وأعلنت عبر مايكروفونات الصوت، أن القرية قد أصبحت منطقة عسكرية مغلقة، وفرضت حظراً ومنعاً للتجول على السكان، في تلك الأثناء، كان الجد في

حقله يرعى أشجاره، ينتظر أن تنضج الثمار، ويحلم بأن يكون زيته هذا العام أفضل من زيته في العام الماضي.

ملأ الجنود الحقول، كل الحقول، طردوا المزارعين، وطردوا جد أنس، بدأت الجرافات تقتلع تلك الأشجار الواحدة تلو الأخرى، تقتلع وتدمر كل شيء، فطارت الطيور، وهربت الفراشات، واختفت رائحة الزعتر البري واليانسون والبابونج، ضاعت رائحة المرمية، وحلت مكانها رائحة قنابل الغاز المسيل للدموع الذي ملأ المكان بعد أن أطلقته قوات الاحتلال على سكان القرية... القرية التي كانت وادعة هادئة أصبحت منكوبة مدمرة بعد أن قررت قوات الاحتلال بناء الجدار الفاصل، جدار الفصل العنصري، جدار الأفعى، قررت قوات الاحتلال أن يمر ذلك الجدار اللعين البغيض من تلك القرية، قرية الشجرة المباركة.

ورغم أن الجدار كان يجب أن يمر بعيداً عن الحقول، إلا أن آلة الحرب والدمار الصهيونية دمرت آلاف الأشجار ومئات الحقول... دمرت حقل جد أنس، أنس ذلك الفتى شعر بالغضب الشديد، وأدرك كم كان يكن لذلك العدو من كره واحتقار.

مرض جد أنس حزناً على أشجاره، حزيناً على حقله وبستانه، فلقد رأى بعينيه تعب سنين وسنين يذهب في ساعات قليلة، رأى الدمار وشاهد الأشجار، وسمع بكاءها ونحيبها حزناً على ما جرى لها... حزن الجد كما حزنت الطيور التي لم تعد هناك أغصان تحط عليها، لم تعد هناك ثمار تأكل منها، الكل كان حزيناً وغضباناً، حتى خاله علي في سجنه كان حزيناً أشد من الكل، ذلك الألم هو الذي يشعر به علي، فكان ألمه على أشجار والده وجده وجد جد جده، أكثر ألماً من ألم سجنه.

بكت الجدة، وبكت الخالة المحامية الصلبة بكت، الكل بكى حتى أنس بكى.. لأنهم يبكون، فهو لم يكن قد تعلق بأشجار الزيتون مثلما تعلق بها أهل فلسطين، وأهل مخيمات اللجوء، لم يكن أنس الفتى قد أحب تلك الأشجار مثلما كانت أمه تحبها ومثلما كان أبوه يحبها، فلقد كانت بنظره مجرد أشجار لا أكثر ولا أقل. ولكن سرعان ما تبدل هذا الإحساس بإحساس آخر بعد أن لامس تلك الأشجار المقتلعة المكسرة وهي تملأ الحقول صامتة... تبكي بصمتٍ رغم موتها، كان أنس وهو يتجول بينها يشعر بها ويرى دموعها، لحاول لمسها ومواساتها، وتخفيف ألمها، أنس أصبح بعد تلك الجريمة البشعة أقرب إلى الأشجار الميتة من أي وقت آخر...

لم يكن ذلك الفتى يعلم ماذا يجب عليه أن يفعل ليجعل تلك الأشجار تحيا من جديد، فتمنى لو أنه يملك مصباحاً يخرج منه مارداً عملاقاً لكي يأمره بأن يعيد تلك الأشجار كما كانت، كان يحلم بعصا سحرية يحركها باتجاه الأشجار، فتقف الأشجار مرة أخرى لتملأ الحقول...

ظل أنس يتمنى ويحلم، وظل الغضب بداخله يكبر ويكبر، يرى جدته تبكي رغم مرور الأيام على تلك المجزرة الرهيبة، بحق أشجار القرية، ويرى جده صامتاً حزيناً.

يرى خالته وهي ترفع الدعاوى أمام المحاكم دون جدوى، فأدرك أنس تلك الكلمات التي كان خاله يرددها، والتي تقول: "إن غياب الأمن يصنع الفوضى، وغياب العدل يصنع ثورة".

لقد غاب في فلسطين الأمن والعدل، وحل مكانها القتل والظلم، والدمار. أصرَّ ذلك الفتى العنيد أنس على أن يعيد إحياء تلك الأشجار، وبعد التفكير وجد الحل، وجده هناك في أحد أركان المنزل، وجده موضوعاً على الحائط، وجده معلقاً على باب الدار، كان الحل عبارة عن مجسم لقبة الصخرة، مصنوع من خشب الزيتون وخارطة لفلسطين وعلم لفلسطين، علم بلا ألوان، محفور في ذلك الخشب المبارك... ولقد كان انس قد تعلم فن النحت في إحدى دورات النادي العربي هناك بعيداً في فنزويلا، ولكنه لم يكن يجيد هذا الفن جيداً، فقرر تشكيل فريق لأداء هذه المهمة، وفعلاً بدأ العلم على الفور، فطلب من ابن خالته أحمد أن يساعده، ففرح أحمد وأتى وقد أحضر معه صديقه بالمدرسة إلياس، فحضر الاثنان إلى بيت جد أنس، وقررا مع أنس أن يبدأ الثلاثة العمل، لكن العمل كان كبيراً جداً، فالأشجار المدمرة والمقتلعة كانت كثيرة، فقرر أنس أن يستعين بأصدقائه في المدرسة وفي النادي هناك في فنزويلا، واتصل بهم وقال لهم ما الذي حصل في فلسطين، فحزن أصدقاؤه، ولكنهم استبدلوا حزنهم على الفور، بمجرد سماع خطة أنس في إعادة إحياء الأشجار، فاجتمع ما يقارب العشرة من أصدقاء أنس وقرروا السفر رغم أنهم ما يزالون فتياناً صغارا، إلا أنهم أقنعوا أهلهم، فوافق الأهل بسبب إصرار الفتيان.

ووصلوا إلى فلسطين، وصل أنطون معه عيسى، وصل سالم ومعه يحيى، وصل إلياس ومعه عبد الرسول، وصل عبد الله ومعه علي وصلوا كلهم أصدقاء أحباب، وصلوا مصممين على مساعدة صديقهم أنس، وعلى الفور استقبلتهم الجدة وأعدت لهم عدداً كبيراً من ساندويشات الزيت والزعتر وأكواب الشاي، أكلوها بشراهة وسعادة، وباشروا العمل فورا دون أن يستريحوا من عناء السفر.

كان أحمد وإلياس يحضرون الأشجار المكسرة إلى منزل الجد، وكان الفتيان يقطعون تلك الأشجار ليصنعوا منها أجمل الأشكال، لقد صنعوا مجسم قبة الصخرة، وصنعوا مجسماً لكنيسة القيامة، لقد صنعوا مجسماً لكنيسة القيامة والبشارة، وصنعوا مجسماً للمسجد الأقصى، لقد صنعوا العديد من المجسمات التي تمثل خارطة فلسطين، وحولها ذلك الصليب الجميل يعانق ذلك الهلال الرائع، فجسدت تلك الأغصان المحطمة أعظم معاني الألفة والإخاء، صنعوا أولئك الفتية وبنوا ما حاول الصهاينة هدمه من محبة بين أحباب عيسى ابن مريم عليه السلام، وأحباب محمد عليه السلام.

ظلوا يصنعون ويصنعون، وظلت الجدة تصنع لهم ساندويشات الزيت والزعتر، وتصنع لهم الزيتون واللبنة والمكبوس، كانت كل أسبوع تصنع لهم ذلك المسخن المليء بالزيت والبصل والسماق والزيت بالدجاج، كانوا يأكلون ويأكلون، فلقد قررت الجدة أن تجعلهم سماناً، وقرروا هم العمل الصادق الجاد، كانوا يعملون طوال اليوم، وفي المساء كانوا ينامون وهم يحلمون بما سوف يصنعون وينحتون بالغد، كل يوم كانوا يصنعون في أحد المخازن حتى امتلأ، وبعد ذلك أصبحوا يضعون ما يصنعون في كل مكان في البيت، بيت الجد والجدة، تحول كله إلى مخزن كبير، كان الجد سعيد ويساعدهم رغم كبر سنه، وكانوا هم الفتية صغار السن، كبار في أفعالهم وأعمالهم.

بعد عدة أسابيع، انتهوا من صناعة كل القطع الكبيرة وبقي عندهم الكثير من القطع الصغيرة التي لم يكونوا بعد قرروا ماذا سوف يصنعون بها، ولكنهم قرروا أن يحولوا تلك القطع الصغيرة إلى علاقات وميداليات للمفاتيح، فصنعوا منها خارطة على شكل فلسطين، لكنها كانت خارطة صغيرة جدا، تصلح لأن تكون ميدالية وكتب على أحد جوانبها مريم، وعلى الجانب الآخر بيت لحم، وكتبوا على الأخرى: علي القدس، وأحمد نابلس، وسالم بيروت، وصفاء حلب، كتبوا أسماء كثيرة وكتبوا أسماء قرى ومدن من مدن بلاد الشام، كتبوا كل ما كان يخطر في بالهم، فكتب انس على أحدها ربحي أخو فتحي، وكتب أنطون على أحدها جانيت أخت سارة، كتبوا مئات الأسماء، بل كتبوا آلاف الأسماء.

ولكنهم كانوا قد ملئوا بما صنعوا كل مكان فوق أسرتهم، وتحتها في المطبخ، وفي غرفة الضيوف، وتلك لم تكن المشكلة، إنما المشكلة أنهم أرادوا نقل ما صنعوا إلى فنزويلا، حيث أرادوا توزيعه على كل المغتربين هناك، على أهل الشام الذين تغربوا منذ أعوام وأعوام.

أرادوا نقل ما صنعوا وهم لا يملكون المال، فقرروا أن يتصلوا بأخواتهم هناك في فنزويلا، فاتصل أنس بأخته ريم، واتصل عيسى بأخت سارة، واتصل كل واحد منهم بأخته، وطلبوا منهن جمع المال اللازم لنقل هذا الكم الكبير من المصنوعات الخشبية، وعلى الفور بدأت ريم وصديقتها سارة بجمع المال بمساعدة باقي صديقاتهم، وجمعن الكثير الكثير، خاصة من أبناء الجالية العربية، ومن أبناء الشعب الفنزويلي العظيم، ذلك الشعب الذي كان دائماً يقف مع القضية الفلسطينية، وأرسلت الفتيات المال إلى فلسطين، ووصل المال وأرسل الفتيان منحوتاتهم ومصنوعاتهم الخشبية على عنوان النادي العربي، فلم يكونوا يعرفون عنوان يستطيعون وضع هذا الكم الكبير من المنحوتات سوى ذلك النادي الذي كانوا يعتبرونه بيتهم الكبير، ويرون فيه تلك الشجرة المباركة، شجرة الزيتون، ولكنهم بعد أن أرسلوا ما صنعوا بقي عندهم الكثير من المال، لقد جمعت أولئك الفتيات أكثر بكثير من حاجة أنس ورفاقه، واحتاروا ماذا سوف يفعلون بالمال، واحتاروا أكثر لأنه يجب عليهم أن يسافروا إلى فنزويلا خلال أسبوع واحد قبل أن تبدأ الدراسة في المدارس.

وسرعان ما قرّر أولئك الفتية الشجعان على الخطة التالية، خطة سموها خطة الشجرة المباركة، فلقد ذهبوا إلى أحد مشاتل الأشجار في مدينة رام الله واشتروا بكل المال غرسات من أشجار الزيتون، وأحضروا تلك الغرسات الكثيرة إلى قرية جد أنس، وبدءوا مع مساعدة من جد أنس بتوزيع تلك الأشتال وغرسات الزيتون على أهالي القرية، ولقد زاد الكثير من تلك الغرسات رغم أن الفتية أعطوا جميع السكان أكثر مما طلبوا، فقرروا أن يزرعوا غرسات الزيتون التي بقيت عندهم على جانبي الطريق الرئيس في القرية، وبدئوا العمل وساعدهم بذلك أهل القرية رجالها وأطفالها نسائها وبناتها، الكل ساعد في الزراعة، وساعد في النحت، الكل تكافل مع أولئك الفتية، لأنهم وجدوا فيهم الأمل والمحبة، ووجدوا قيهم الحلم الضائع.

زُرعت بساتين القرية وزرعت أرصفة شوارعها كلها، بغراس الزيتون المبارك.

ودَّع أهل القرية الفتية، وودع جد وجدة أنس الفتية ، وأوصلوهم إلى المطار، حيث سافروا إلى فنزويلا عائدين، وقد تعلم كل واحد منهم درسه الخاص، فلم يعد أنس يعاند لمجرد العناد، ولم يعد أنطون يستهين بقدرة أخته الصغيرة، التي أثبتت أنها قادرة على تحمل المسؤولية عندما قامت بجمع المال، كل واحد منهم كان يفكر طوال الرحلة، كانوا مشتاقين إلى العودة إلى فنزويلا وإنما العودة إلى الجذور، إلى فلسطين، إلى لبنان، إلى سوريا، إلى عمان، إلى الشام، فهم كلهم من أبناء الشام الواحد، رغم محبتهم الكبرى لفنزويلا، البلد الذي ولدوا به وتربوا، البلد الذي قدم لهم

كل الحب والأمان، إلا أنهم شعروا بالحنين إلى الوطن رغم صغر عمرهم، عادوا وهم يحملون أحلام كبيرة، ويقسمون أن يكرروا الرحلة في العام القادم، عادوا رجال شباب، هكذا أصبحوا خلال عدة أسابيع، تحول أولئك الفتية إلى شباب كبار رجال بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

حطّت الطائرة في مطار كركاس، حطت هناك حيث كان بانتظار أولئك الفتية المئات من أبنائهم وأمهاتهم وأقاربهم وأصدقائهم، المئات من أبناء الجالية العربية في فنزويلا، كلهم حضروا ليقابلوا أولئك الشباب الأبطال، استقبلوهم ورفعوهم على أكتافهم عالياً، ورفعوا معهم العلم الفنزويلي والعلم الفلسطيني، رفعوهم بعد أن كانت المنحوتات قد وصلت إلى النادي العربي قبل وصول الشباب، وكانت الفتيات قد أخبرن أهلهن بما فعلن، وبما فعل إخوتهن.

كان الكل فخور بما قدّم وفعل الذي أرسل ابنه كان فخور بذلك، والذي تبرع بالمال كان فخور بذلك، الكل فخور، امتلأ المطار بالزغاريد وبالهتاف فيفا فلسطين، فيفا فنزويلا، فيفا فلسطين، فيفا فنزويلا، الكل كان يهتف، فالكل كان مشتاق للعودة إلى الشام، إلى الجذور، إلى شجر الزيتون، إلى تراب البلاد، إلى عين الماء، إلى سنابل القمح، إلى كروم العنب.

بعد ذلك ذهب كل واحد من المسنين ومن الفتيان إلى بيوتهم، فلقد كان توقيت وصول الطائرة في وقت متأخر من الليل، وذهب أنس إلى منزله، وما أن وصل حتى أعاد معانقة أمه وأبيه وأخته وأخيه، فلقد كان مشتاق لهم كثيرا، وكانت هذه المرة الأولى له الذي يبتعد فيها عنهم.

نام أنس وهو يحلم حلماً جميلاً، حلم ذو رائحة شامية، مليئة بالريحان والعنبر... في الصباح الباكر، رغم أنه لم ينم طويلا، وبرغم تعبه، استيقظ أنس، استيقظ مبكراً كي يعد طعام الإفطار، فلقد كان يساعد جدته على إعداد الطعام لأصدقائه، وأراد أن يفاجئ أمه بقدرته على إعداد الطعام، قلي البيض، وجعله يسيح ببحر من زيت الزيتون، ووضع الكثير من اللبنة والمقدوس والزيتون، والزيت والزعتر، أعد أنس سفرة طعام شامية مائة بالمائة، ووضع الشاي بالمرمية التي أحضرها معه من عند جدته.

استيقظت أمه كعادتها مبكراً، نظرت إلى طاولة الطعام، ابتسمت وقبلته، ابتسم وذهب لإيقاظ أخوته، أكل وأكلوا، لكنهم كلهم كانوا يشعرون أن أنس لم يعد أنس، فلقد أصبح أكثر حناناً على أخته الصغيرة، أقل شجار مع أخيه الصغير، أصبح ناضجاً، لا يبحث عن المشاكل، ويبتعد عن المناكفات.

بعد الإفطار، طلب من والدته أن تصنع له مسخن دجاج، وظل طوال الفترة الممتدة بين الإفطار والغداء يقص على أهله القصة والحكاية تلو الحكاية، كانوا يستمعون له وينظروا إلى الصور التي كان قد التقطها بكاميرته، صور كثيرة، جعلت أم أنس تبكي على ذكرياتها في منزل والدها، تبكي بسبب البعد والفراق، فجأة قالت أم أنس لأبي أنس، في العام القادم، سوف نذهب إلى فلسطين، ما رأيك؟ قال: نعم... نعم... إن شاء الله، سوف نقضي إجازة الصيف هناك في فلسطين.

بعد الغداء الجميل، أكملوا حديثهم واستعدوا إلى الذهاب إلى النادي العربي، فلقد أعد المسئولون عن النادي حفل استقبال بمناسبة عودة الفتيان.

زُيّن النادي، وأصبح جميلا كان دائماً جميلاً، بدأ أهل الشام والعرب المقيمين في جميع أنحاء فنزويلا يتوافدون إلى النادي، هناك في النادي، اجتمع الرفاق مع أنس، وقرروا أن يوزعوا كل ما نحتوا وصنعوا من خشب الزيتون على كل الوافدين إلى النادي، وبدئوا مساعدة الفتيان بتوزيع كل ما أرسلوه من فلسطين.

الناس كانوا سعداء... سعداء لكن بعضهم كان يبكي من شدة السعادة، فلقد أحيت قطع أخشاب الزيتون ذكرياتهم الماضية، سعداء حزينون، ثم سعداء فخورين كانوا الرجال الكبار بالسن والجدات يقبلوا أولئك الفتيان، يقبلوهم وكأنهم قطعة من جنة الوطن.
يقبلون ويبكون.. الفتية لم يكونوا متفاجئين، فلقد عودتهم فلسطين على عدم المفاجأة.

بعد انتهاء الحفل وتوزيع المنحوتان، وقبل أن يبدأ الناس بالعودة إلى منازلهم، صعد انس الفتى العنيد، وصعد معه رفاقه إلى المنصة وأمسك أنس الميكروفون وقال: السلام عليكم يا أهل الشام، ويا أبناء الجالية العربية... أما بعد،
أما بعد، فلقد احتفلت اليوم وأكلتم ورقصتم ودبكتم، أما بعد، فلقد أخذتم قطع الخشب لتزينوا بها منازلكم ومحالكم التجارية ومصانعكم.

أما بعد، ماذا سوف تفعلون من أجل فلسطين... فلسطين الأسيرة... فلسطين الجريحة... ألا تريدون أن تداووا جراحها؟ لا تريدون نصرتها ومساعدة أهلها على الانتصار؟

أما بعد، فلقد قررنا نحن أبناؤكم سفرائكم إلى فلسطين ما يلي:

أولا... ثانيا... ثالثا...
أما بعد، فسوف نبدأ التنفيذ فوراً... صمت الجميع لحظات لم تدم كثيراً، لكنها كانت بالنسبة للأطفال تمر على أنها سنوات، وفجأة تعالت التصفيقات وتعالت الزغاريد، وارتفعت التكبيرات الله أكبر فلسطين لنا... لنا كلنا نحن أهل الشام، نحن عرب فنزويلا، فلسطين لنا، فيفا فلسطين، فيفا فلسطين.

لقد قرر الفتية العنيدون أن يتوجهوا إلى فلسطين في عطلهم الدراسية من أجل تفعيل المقاومة الشعبية السلمية من أجل نصرة فلسطين، وأصبحوا منذ ذلك اليوم يجمعون التبرعات والإعانات ليرسلوها إلى فلسطين المنكوبة، ولقد قرر المحامون تفعيل دورهم برفع القضايا ضد قوات الاحتلال في المحافل الدولية.

لقد قرروا أن يكون هناك يوم خاص بالنادي العربي للتراث الفلسطيني... يوم لكل بلاد الشام، ففلسطين بكنيسة المهد والقيامة، والبشارة هي فلسطين القدس، والأقصى هي فلسطين، هي قلب الوطن العربي، قلب المحبة فلسطين مصنع الرجال.

أطلق سراح خال أنس، ولم تعد أم أنس تبكي، وأصبح أنس يزور خاله كل عام، ويتشارك مع خاله وأصدقائه من فنزويلا ومن فلسطين في كل النشاطات التي تخدم القضية الفلسطينية... اكتب.. واكتب...

(هذه القصة من خلف القضبان إلى ابن أختي فائدة، التي تعيش هي وزوجها بسام وأبنائها أنس ومالك وريم، هناك في فنزويلا، وأنا هنا في سجني في فلسطين).

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 7 "

النبتة الضارة

هو اسمه "أحمد".. فلاح ابن فلاح، حنطي لون بشرته، أما لون عينيه فهو عسلي.. أحب الدراسة لكن ظروفه المادية لم تسمح له بأن يُكمل تعليمه الجامعي، رغم أنه كان من المتفوقين في الثانوية العامة.

لكنه لم يستطع السفر خارج فلسطين لدراسة الطب.. خاب أمله، واكتفى بالدراسة في معهد للتمريض، درس بجدّ ، وكان الكل يقول له في القرية: يا دكتور... ففي تلك القرى الفقيرة المترامية بعيداً عن المدن، تعتبر الداية مثل الطبيب، فما بالنا بممرض مجتهد متميز.

أنهى دراسته وعمل في مستشفى المدينة، وكان يعود إلى قريته المنسية في العطل القليلة التي كان يحصل عليها.

أما هي، فاسمها "أسماء" ابنة عمه، فلاحة ابنة فلاحة، حنطية اللون، عسلية العيون تشبه أحمد بشكل أو بآخر... درست ليس لحبها للدراسة وإنما لأنها أرادت أن تعلو بعيني أحمد، نجحت وعملت معلّمة في مدرسة القرية.. مدرسة صغيرة نسيت كما نسيت قريتهم المنسية، فكانت أسماء تعلّم عدة مواد في آنٍ واحد، كانت محبوبةً من أهل القرية، والأهم أنها كانت محبوبة من زوجة عمّها أم أحمد، فخطبتها لابنها، وسرعان ما تزوّجا.

في البداية، لم يكن أحمد يكنّ لها أي نوعٍ من المشاعر، لكن سرعان ما تعلّق بها بسبب جمال روحها وخفة دمّها.

كانت البسمة لا تفارق وجهها أبدا.. لا تعاتبه على طول غيابه في المدينة، بل كانت تستقبله بوجهٍ بشوش، وبسمةٍ كبيرة، وبأحب أنواع الطعام المتوفّر عندها.

عندما كان يعود... الحياة كانت تعود إليها.. إلى دارها.. إلى عالمها الزوجي، فتتفرغ بشكل كامل للسهر على راحته، وعلى جعل وجوده بالقرية محبباً.. لكي لا يطيل الغياب... أما هو فكان قد تعلّق بها كثيراً، وأصبح يعد الأيام لكي يعود إليها إلى عشه الدافئ.

قبل انقضاء العام الأول، منّ الله عليهما بمولودٍ ذكر، فأسمياه "سعيد" فأصبحا أبو سعيد وأم سعيد.. وألحقا سعيد بعهود، ثم علي، ثم خلود... أصبح عندهم من الأبناء أربعة، قبل أن يكملا عامهما السادس من الزواج، كانت الأيام تمضي وهما سعيدان بحياتهما الهانئة... هي في مدرستها تدرّس، وهو في المستشفى يمرّض.

أما هم، الأطفال، فكانوا يكبرون بهدوء وسلامة.. فحماتها أم أحمد تساعدها، وأمها أم عامر تساعدها أيضاً.. لقد كان لأسماء " أم سعيد" عدداً كبيراً من الإخوة والأخوات تجاوز التسعة.. بعضهم يكبرها وهي تكبر البعض الآخر.

أما أخوها عطوة فكانت لا تكبره ولا يكبرها سوى ببعض دقائق، فهو توأمها.. وكان الأقرب لها، يساعدها عند غياب زوجها في المدينة، غامض صامت يتفحّصها ويتفحّص كل شيء، يسأل عن كل شيء، ولا ينسى أي شيء.

ذلك هو عطوة، توأمها لكن لا يشبهها ولا يشبه أحداً من أخوته الكثر، فلقد كان ثرياً موفور المال، بخيل على زوجته وعلى أبنائه، يقدم المساعدة أي مساعدة لأي أحد طالما لا تكلّفه المال.. له علاقات جيدة مع كل أهل القرية، غريب الأطوار، فرغم بخله المعروف عنه، إلاّ أنه يصرف في بعض الأحيان الكثير من المال، وخاصة في المناسبات الاجتماعية التي يكثر فيها الناس مثل بيت العزاء أو العرس، فكان يصنع الطعام لبيت العزاء، ويساعد في شراء الحلوى للعرس.. يتحدث قليلاً جداً ويترك الآخرين يتحدثون ويتحدثون دون أن يقاطعهم... كان يوجّه الكلام إلى حيث يريد.. دائماً متواجد في القرية وفي القرى التي تجاورها.. أما عمله فكان عطوة يعمل بائعاً ومشترٍ للخردوات، يملك سيارة تصلح لمثل هذا النوع من العمل، يبيع ويشتري بهدوء دون مشاكل، دون أن يلفت النظر إليه، أما ملابسه فكانت تدلّ على ضيق الحال المادي على عكس حقيقته.

عندما كان أهالي القرى والمدن يلقون الحجارة ويغلقون الطرق في مطلع الانتفاضة الفلسطينية الأولى، كانت عطوة لا يبالي بذلك كله، بل على العكس، أصبح يهتم بعمله أكثر من السابق، ويهتم بالجلوس مع الناس أيضاً أكثر من ذي قبل.

في تلك الأحداث المتصاعدة أحياناً، الهادئة أحياناً أخرى، بسبب انتفاضة الحجارة كما اصطلح على تسميتها في وسائل الإعلام، رغم أنها كانت انتفاضة كسر العظام وتحطيم الجماجم من قبل قوات الاحتلال التي كانت تتفنن بكسر عظام كل من يتجرّأ على إلقاء حجر، أو التصدي لقوات الاحتلال.

أحمد أبو السعيد.. ذلك الممرض المتمكن كان هو الآخر له علاقة بتلك العظام المكسورة، علاقة المقاوم الذي يمارس مقاومته من خلال مهنته، فلقد كان أبو السعيد يتنقل بين قرية وأخرى، يضمّد الجراح ويُجبر الكسور... عندما كان يعود إلى منزله كان دائماً يجد نسيبه عطوة في انتظاره، إما بداخل المنزل أو في الطريق، كان عطوة يحرص دائماً على لقاء أبي السعيد فيسأله السؤال تلو السؤال عمّا فعله بذلك اليوم.

أما أبو السعيد فكان يثق جداً بأخ زوجته وتوأمها عطوة، فكان يقص عليه كل ما حدث معه خلال يومه.. هو يقص وذلك يستمع ويخزن ما سمعه في عمق ذاكرته... لم تكن تلك المعلومات التي يجمعها عطوة ذات أهمية كبيرة من وجهة نظر ضابط المخابرات الصهيونية التي يزوّده عطوة بكل ما يجمع، فلقد كان الضابط مهتماً بأولئك المقاومين الذين أصيبوا بالرصاص، خلال اشتباك هنا أو هناك.. رغم أن تلك الاشتباكات المسلحة كانت قليلة جداً في منطقة تواجد عطوة، منطقة عمالته وخيانته لوطنه.

فلقد كان عطوة قد ارتبط بالمخابرات الصهيونية منذ أعوام طويلة، منذ أن ساوموه على إصدار رخصة للسياقة، فأعطوه الرخصة وبدأ هو يعطيهم المعلومة تلو المعلومة.

وما إن انطلقت انتفاضة الحجارة، حتى أصبح عمله أكبر وأكثر أهمية، فبعد أن كان يتلقّى مبالغ قليلة، أصبح الآن يتلقى الكثير من المال... فكان يشتري الخردوات بسعرٍ عالٍ من الأهالي ويبيع لهم ما يلزمهم بسعرٍ قليل.. فكان يقبلون عليه فيفرغ الاحتلال المال بجيبه، طالما بقي الناس يفرغون ما بداخلهم من معلومات إلى ذلك الدنيء عطوة.

في تلك الأثناء، كانت أسماء أم سعيد، ورغم انشغالها بتربية أولادها، إلا أنهم غالباً ما يكونوا قد ناموا عند عودة والدهم مصطحباً أخاها عطوة، فكانت تصنع الطعام أو الشاي لهما وهما يتحدثان، فتلاحظ أن ما يجري بين زوجها وأخيها أقرب ما يكون إلى الاستجواب، بل الاستجواب الدقيق، فلم يكن أبو السعيد متحفظاً على الإجابة أبداً، ولم يكن عطوة يشبع من

الأسئلة... تراقب بحذر، تحلل وتفسّر، فهي معلمة، وأمضت الكثير من وقت فراغها قبل الزواج في المطالعة والقراءة.. مما جعلها تبدأ تدريجياً بالشك. فالوضع غير طبيعي أبداً من وجهة نظرها، أما من وجهة نظر زوجها فكان طبيعياً جداً في تعاطيه مع عطوة وأسئلته الكثيرة.

في أحد الأيام، سمعت زوجها يقول لعطوة إن يومه كان عادياً، ولم يداوي أحداً ، وأنه أمضى جلّ وقته في المستشفى.. أما أسماء فلقد وجدت بقعاً من الدماء على ملابسه التي لا يرتديها أثناء عمله في المستشفى، بل إنها استغربت جداً لأنه عندما عاد كان قد وضع تلك الملابس الملطخة بالدماء في كيس بلاستيكي أسود، وارتدى ملابس أخرى لم تكن له، وإنما كانت ملابس مستعملة مقاسها أكبر بكثير من مقاس زوجها، ذلك ما لاحظته هي، أما أخوها فلم يلاحظ كل ذلك، فأنهى جلسته عندهم وعاد إلى تسكّعه في أرجاء القرية.

لم تسأله، غسلت الثياب وظلت صامتةً، أما هو فظل يجول بفكر بعيداً عنها وعن أخيها، بل بعيداً عن الدنيا بأسرها.

في ذلك اليوم، انتقل أبو السعيد من ممرض يداوي جروح وكسور الناس العاديين، ملقي الحجارة، إلى عالم المقاومة بكل ما تحمل الكلمة من معنى... فلقد عالج اليوم شخصاً اسمه "إبراهيم".. إبراهيم هذا هو أحد المطلوبين وبشدة من قبل قوات الاحتلال الصهيوني، فلقد تمكن إبراهيم خلال الأعوام الماضية من طعن عدد من جنود الاحتلال.

وقد كان إبراهيم يتصيّد أولئك الجنود، وهم إما في طريق ذهابهم إلى ثكناتهم العسكرية، أو في طريق عودتهم منها، فهو صيّاد ماهر لذلك النوع من الطرائد، لم تكن هويته معروفة للاحتلال الصهيوني في بداية عمله، ولكنها أصبحت كذلك بعد أن نجا أحد الجنود من إصابةٍ قاتلة، أصيب بها بسكين إبراهيم، فحدّد أوصافه، ومن خلالها استطاع ضباط المخابرات تحديد هويته...

ورغم ذلك، ورغم أنه مطارد، إلاّ أنه ما زال يواصل اصطياده لفرائسه بمهارةٍ وبدقة، فمنذ أن علم أن هويته أصبحت مكشوفةً، لأنه لم يتمكن من قتل ذلك الجندي، أصبح لا يسمح لسكينه أن تخطئ أبداً، فكان يوجّه الطعنة تلو الطعنة بثبات وبدون تسرّع حتى يتأكد أن مهمته قد تمّت على أكمل وجه.

أما في ذلك اليوم المشئوم، فلم يجد طريدةً منفردةً، بل وجد طريدتين، أي جنديين ينتظران الحافلة في أحد المواقف المخصصة للحافلات، فهاجمهما معاً، قتل الأول وجرح الثاني بجراحٍ قاتلة، مات على إثرها فيما بعد، ولكن قبل موته، وهو ما زال ينزف أطلق وابلاً عشوائياً من الرصاص، فأصابت إبراهيم إحدى تلك الرصاصات في قدمه... رغم تلك الإصابة، إلا أن إبراهيم استطاع الهرب، بمساعدة صديقه الذي كان ينتظره في السيارة التي أعدها للهرب بعد تنفيذ مثل ذلك النوع من العمليات.

هربا، ووصلا إلى مكانٍ آمن، أما الرصاصة التي أصابته، فلم تكن في مكانٍ آمن، فلقد أدت عند اختراقها لجسد إبراهيم إلى قطع أحد شرايين الدم الموجودة في قدمه مما جعل صديق إبراهيم في حالة لا يحمد عليها، وخاصة عندما غاب إبراهيم عن الوعي نتيجةً لفقدان كثير من الدماء.

ترك الصديق صديقه، وذهب يبحث عن المساعدة، ولحسن حظه وحظ إبراهيم، فلقد وجد تلك المساعدة، أسرع مما يظن، فلقد كان الممرض أبو السعيد ينتظر سيارة تقله بعد أن أنهى عمله في تطعيم بعض الأطفال في أحد المدارس، وكان ما يزال يلبس مريوله الأبيض، ويشير بيده إلى السيارات المارة في تلك المنطقة والقرية البعيدة، فما أن رآه صديق إبراهيم حتى توقّف ليسأله عن عمله، فأجاب أبو السعيد: أنا أعمل ممرضاً، فأشار له للصعود إلى السيارة، وعاد إلى حيث أتى، إلى المكان الآمن الذي كان إبراهيم ما زال ينزف فيه.
أوقف السيارة، وقال لأبي السعيد: انزل فهناك مريض بحاجة لعلاجك.. امتعض قليلاً ولكنه نزل لعله يرى مريضاً ممن يحتاج لمسكّنٍ أو ما شابه... لكنه فوجئ بذلك الدم الذي كان يغطّي الممر، وصولاً إلى مكان استلقاء إبراهيم.

عند ذلك، أسرع إلى المصاب ليرى ما حلّ به، فأدرك أن تلك الإصابة ناتجة عن رصاصة.. عمل جاهداً على وقف النزيف، ونجح بضمد الجرح، ولكنه أبقى على الرصاصة في مكانها لأنه لم يكن يملك الأدوات اللازمة لاستخراجها.

طلب من صديق إبراهيم إحضار بعض الأدوية من الصيدلية، فغاب الصديق طويلاً، فلم يكن في القرية صيدلية، فذهب لإحضارها من المدينة، ولأن الحواجز كانت تملأ الطرقات، فلقد تأخر كثيراً حتى عاد.. عاد ومعه كل ما طلبه أبو السعيد.

أما أبو السعيد، فلقد كان خلال فترة الانتظار يحاول الاهتمام بذلك المصاب المغمى عليه.. ولأن الانتظار كان قد طال، فخرج إلى الخارج لعل خروجه يعجّل بعودة سائق السيارة صديق إبراهيم. في تلك الأثناء لمح بصر أبو السعيد سيارة أخرى تقف بجوار المنزل، ولكن ما أثار فضوله هي تلك الدماء التي كانت تلطخها.

أدرك عند ذلك أن مصابه قد أصيب في مكان ما، وأنه قد نقل بواسطة هذه السيارة إلى هنا، ولأن الغياب قد طال، فلقد شغّل المذياع، وهنا سمع عن أحداث وتفاصيل العملية عبر إذاعة العدو، وعبر أحد إذاعات الثورة.

فلقد سمع أن هناك عملية طعن لجنديين، وأن الاثنين قد ماتا، وأن المهاجم قد ترك خلفه سكينه التي طعن بها، وترك أيضاً بقعاً من الدماء يرجّح أن تكون له... ويعتقد أن المهاجم قد فرّ بسيارة لم يحدد نوعها بعد، والبحث عنها جارٍ.

عند ذلك، أدرك أبو السعيد أنه قد دخل إلى دائرة لا مخرج له منها، فإما أن يستمر بتقديم العلاج، وهذا ما توليه عليه أخلاقه ومهنته ودينه ووطنيته، وإما ماذا؟...
وقبل أن يكمل، قال لنفسه: لن يكون إما ماذا.. سوف أكمل ما بدأته على أكمل وجه ممكن.

عاد الغائب بالدواء، وأدرك بعودته أن الممرض أبو السعيد قد كشف الحقيقة، فلم يجد مفراً سوى قول ما قد حصل معه ومع إبراهيم بالتفصيل إلى أبي السعيد، فعل ذلك ولكنه كان يكرر على أبي السعيد إياك أن تخبر أحداً.. أي أحد عما رأيته اليوم، وما عملته، لا زوجتك، ولا أمك، ولا أبيك ، ولا حتى نفسك.. إياك أن تحدث حتى نفسك بهذا الموضوع.

ظل أبو السعيد صامتاً.. حقن إبراهيم بحقنة منوّمة، فقلّ الأنين الصادر عنه رغم تلك الغيبوبة التي كان فيها.

في تلك الأثناء، أحضر صديق إبراهيم ملابس جديدة لأبي السعيد ليرتديها بدل ملابسه التي تلطّخت، حيث تلطخ ثوبه الأبيض الذي كان يرتديه فوق تلك الملابس.. فلبس أبو السعيد تلك الملابس، وما أن انتهى حتى قال: يجب أن يتم إحضار طبيب كي يستخرج الرصاصة..

أيّة رصاصة.. ألم يستخرجها.. لا... أستطع، فأنا لا أملك الأدوات اللازمة، والنزيف كان شديداً، ثم أنني مجرد ممرض لا أكثر ولا أقل، وأنتم بحاجة إلى طبيب.. ويجب أن يحضر الطبيب خلال يوم أو يومين على أبعد تقدير قبل أن تلوّث الرصاصة مكان الإصابة.

رد الصديق، لا حاجة لنا بالطبيب، غداً سوف آتي إلى قريبك لكي أقلك من هناك إلى هنا، حيث إبراهيم المصاب، فأنا لا أريد أن يدخل طبيب أو معالج آخر على هذا المكان سواكَ أنت... أنت فقط من سوف يخرج الرصاصة ويخيط الجرح ويعالج إبراهيم.. ألا تعلم أن إبراهيم ما قام بما قام به إلاّ لأجل أن ننتصر ونصبح أحراراً، بلا احتلال بلا ذل ومهانة.

هل تعلم أن إبراهيم مطارد منذ أعوام طويلة، ألا تعلم أن إبراهيم هو من كان يردّ على جرائم الاحتلال ضدنا.

لم يكن أبو السعيد بحاجة لسماع كل ذلك، فهو يعرف إبراهيم جيداً من خلال ما سمعه وقرأه عنه خلال الأعوام الماضية، فهزّ أبو السعيد رأسه بالقبول.
في صباح اليوم التالي، حضر السائق إلى منزل أبي السعيد كما اتفقا لكي يصطحبه إلى إبراهيم، وفي تلك الأثناء كان إبراهيم قد استيقظ من نومه بسبب الألم والبنج، وعند وصول أبو السعيد قام بعد الاطمئنان على صحته بتخديره تخديراً موضعياً، فلم يعد إبراهيم يشعر بقدمه، ولكنه كان يرى ما يفعله أبو السعيد... استطاع أبو السعيد بعد جهد كبير استخراج الرصاصة، فعاود إغلاق الجرح وقام بخياطته.

ظل أبو السعيد يجلس بجوار إبراهيم حتى تأكد أن الأمور قد سارت على أفضل حال.. فطلب من السائق إعادته إلى منزله وليس إلى المستشفى، لأنه قد أخذ في ذلك اليوم إجازة ليتفرّغ لمداواة إبراهيم.

عند عودتهما إلى بيت أبي السعيد، كان نسيبه بجوار المنزل، فأسرع لكي يتحجج بالسلام على أبي السعيد، ولكي يعرف من ذلك السائق الغريب، غادر السائق بعد أن سلّم واكتفى بإجابات عامة، أما عطوة فانهال على أبي السعيد بالأسئلة المتلاحقة، ظناً منه أنه سوف يجد إجابات عند نسيبه، اكتفى هو الآخر بإجابات مقتضبة.. ظل عطوة طوال النهار يحاول دون جدوى، فأخته أسماء قالت: لا أعلم... ونسيبه أغلق عليه الطريق بقوله إنه يشعر بالتعب، فعاد من

المستشفى مبكراً... ولكن عطوة علم أن السائق كان في القرية في الصباح، وهو الذي أعاد أبا السعيد عصراً... كانت تلك المعلومة تعني أن هناك ما يخفيه أبو السعيد.

بدأ عطوة بمراقبة نسيبه، ولقد ساعده على أن تكون المراقبة سهلة، هو رؤيته لسيارة السائق تعاود الوقوف في صباح اليوم التالي، لنقل أبي السعيد إلى حيث يختبئ ويعالج إبراهيم.. فلحق عطوة تلك السيارة بحذر حتى وصل إلى إحدى القرى البعيدة.. قرية لم يكن عطوة قد زارها من قبل، ولم يكن قد باع أو اشترى فيها... ظلّ يراقب البيت من بعيد دون جدوى، ولكنه كان مُصراً على أن يعلم ما يجري هناك.

بعد نحو الساعتين، كان خلالهما أبو السعيد قد أعاد تضميد جرح إبراهيم واطمئن عليه.. ترك أبو السعيد مع السائق المنزل وتوجها إلى المستشفى، فلحق بهما إلى هناك عطوة... نزل الممرض وعاد السائق، أما عطوة فتوجّه إلى ضابط المخابرات ليقصّ عليه ما قد شاهده.
أمره الضابط أن يعود إلى القرية بحجة بيع وشراء الخردوات، لعله يستطيع الحصول على معلومة ما مهمة... فلقد كانت عملية طعن الجنديين على رأس أولويات الأجهزة الأمنية الصهيونية في تلك الفترة الزمنية.. فلم يكن قد مضى على هذه العملية سوى أيام ثلاثة، ولذلك كانوا يبحثون في كل اتجاه مهما كان الخيط الآتي من ذلك الاتجاه ضعيفاً.

عاد عطوة إلى القرية وبدأ عمله هناك حول منزل إبراهيم والمنازل التي تحيط به، فعلم من هو صاحب المنزل وماذا يعمل.. فلقد كان ذلك السائق هو صاحب مزرعة للمواشي ماتت زوجته ولم يتزوج بعدها، وتفرّغ لعمله.

لم يكن يختلط كثيراً بالجيران الذين هم في الغالب أقرباؤه وأبناء عمومته، وهم بدورهم احترموا حزنه على فقدان زوجته، فتركوه يعيش مع حزنه دون أن يزعجوه.

إذاً من الذي كان في بيت السائق؟ فليس للسائق لا زوجة ولا أولاد، وأمه وأبوه وإخوته يعيشون كلهم في منازل منفصلة موزعة في أنحاء القرية.. استمر عطوة على هذا النحو من الأسئلة والتحليل، ولقد اشترك معه في التحليل ضابط المخابرات.

لم يشأ ضابط المخابرات أن يضيع الكثير من الوقت، فأعدّ قوةً عسكرية، وأمر بمداهمة ذلك المنزل في مساء نفس اليوم.. ففي تلك الفترة الزمنية كانت مداهمة قوات الاحتلال للمنازل

الفلسطينية في القرى والمدن تتم بدون قيد أو شرط أو حساب، بدون تصاريح للمداهمة، فلقد اعتبرت مناطق الضفة وغزة مناطق عسكرية تحت إمرة الحاكم العسكري، مما جعل هذا النوع من المداهمات شبه روتيني بحجّة البحث عن المصابين أو من أجل إرهاب السكان الفلسطينيين، ودفعهم لمغادرة فلسطين، بل ومغادرة الحياة أيضاً، كما كان المحتل الصهيوني يأمل ويسعى منذ أن احتلّ مغتصباً فلسطين.

السائق في مزرعته يرعاها بعد أن كان قد أهملها عدة أيام، لا يدري ما الذي يحدث، لكنه شاهد من مكان مزرعته عدداً كبيراً من قوات الاحتلال تداهم قريته، وخاصة أن المداهمة حدثت ليلاً، وكانت أصوات تلك الآليات التي تقل الجنود قد ملئت القرية.. فتسلل تاركاً سيارته في المزرعة ليعود إلى القرية سيراً على الأقدام، فهو اعتقد أنها مجرد مداهمة عامة للقرية، وليس مداهمة لمنزله، وقال لنفسه: إن لم يكن هناك شيء سوف أعود إلى منزلي وآخذ سيارتي الأخرى الواقفة أمام المنزل، تلك السيارة التي كان قد استعملها في العملية، فلقد غسلها ونظفها من آثار دماء إبراهيم، ولا يخشى من استعمالها لأنه لم يرَ تلك السيارة سوى الجنديان، وقد مات الاثنان.

عندما اقترب من منزله، وجد أنه محاصر، ووجد أن جنود الاحتلال قد جرّوا إبراهيم منه، وانهالوا عليه بالضرب المبرح ملقين به في إحدى عرباتهم العسكرية، ثم شاهد قوةً عسكريةً تصعد نحو مزرعته، فأدرك أنه هو الهدف الثاني.

بتلك البساطة، تمكّن ضابط المخابرات من القبض على إبراهيم، بدون تعب، بمجرد معلومة بسيطة غير مؤكدة، وبتلك البساطة أيضاً اعتقل الممرض أبو السعيد ليحاكم، ويحكم عليه بخمسة عشر عاماً لا لشيء إلاّ لأنه قد عالج مصاباً... وحُكم على إبراهيم بعدة مؤبدات.. وبتلك البساطة أيضاً أصبح السائق مطارداً وأصبحت أم السعيد بلا زوج.

أصرّ السائق على معرفة الحقيقة، فتواصل مع إبراهيم وأبي السعيد بداخل السجن، فلم يصل معهما لنتيجة، فلم يكن أبو السعيد رغم كلّ ما حدث يشك أبداً في عطوة نسيبه.

أما السائق، وبعد عدة شهور أمضاها مطارداً، فقد علم أن عطوة كان يجول في القرية صباح يوم اعتقال إبراهيم... وأن عطوة هو نسيب أبو السعيد... فقرّر اختطاف عطوة.. وقد فعل، فعل ذلك، بمساعدة من بعض أصدقائه المطاردين، فأخذ عطوة إلى حيث أجرى أولئك المطاردون معه تحقيقاً مطولاً، استمر لعدة أيام، ورغم إنكاره في البداية، إلاّ أنه اعترف تحت إصرار من كانوا

يحققون معه، وتحت الأدلة التي واجهوه بها، أدلة جمعت طوال أشهر من مراقبته ومتابعته في مختلف القرى التي كان يجول بها.

قرروا أنه خائن عميل، فحكموا عليه بالإعدام شنقاً، فقاموا بإعدامه بعد أن علقوه في غصن إحدى الأشجار التي تقع على أطراف قريته المنسية، ونشروا عدداً كبيراً من المناشير التي كُتب عليها تفاصيل عمالته، وسبب إقدامهم على إعدامه.

بتلك البساطة، فقدت أسماء أخاها التوأم، ذلك العميل الحقير الذي أفقدها زوجها بتسببه بسجنه في سجون العدو الصهيوني مدة خمسة عشر عاماً.

أصبح إبراهيم وأبو السعيد أصدقاءً مقربين جداً من بعضهما ، وقدّر الله لهما أن يتحرراً بعد أعوامٍ قليلة بصفقة تبادل الأسرى، فأبعد إبراهيم خارج فلسطين، وعاد أبو السعيد إلى زوجته، عاد مرفوع الرأس.. عالي الهمة.

عادت الفرحة إلى أسماء.. أسماء التي لم تبكِ على قتل أخيها أبداً، ولم تذرف عليه دمعة واحدة، فهو بنظرها مجرد كلبٍ عميلٍ.. نبتة ضارة.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 8 "

الديك يبقى ديكاً (اقتراح لتغيير العنوان الى (الاطفال الديوك)

كان الحاج "قاسم" يستيقظ كل يومٍ ليصلي الفجر على صياح ديكه الحكيم، كان ذلك الديك يصيح قبل الصلاة بوقتٍ قليل، مما يمكّن الحاج قاسم من الاستيقاظ والوضوء والذهاب إلى المسجد قبل أن يؤذن المؤذن، لأن الحاج قاسم كان يجب أن يصل إلى المسجد مبكراً كي يصلي عدة ركعات قبل صلاة الفجر، وكان الحاج قاسم يعود إلى منزله بعد أن يصلي الفجر، وكان دائماً يأخذ معه ابنه "أسامة"، أسامة الذي كان عمره عشرة أعوام، كان يحافظ على الصلاة مع والده كل يوم، ولقد كان الاثنان يفعلان ذلك منذ كان عمر أسامة ستة أعوام.. كان أسامة يحب أبيه الحاج قاسم كثيراً، ولكن أسامة لم يكن يحب ذلك الديك الذي كان يصيح ويزعجه كثيراً.

استمر أسامة ووالده على هذه الحال حتى بدأت الانتفاضة ضد الاحتلال، ومنذ ذلك الوقت كانت قوات الاحتلال تمنع الناس من الوصول إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، فلقد كانت قوات الاحتلال تفرض حظراً للتجول يبدأ بعد مغيب الشمس، ويستمر طوال الليل وحتى طلوع الفجر. ومنذ ذلك الوقت لم يتمكن الحاج قاسم ولا ابنه أسامة من صلاة الفجر.

لكن الديك كان كل يوم وفي موعده المحدد يصيح ويصيح حتى يتعب، ولكن لا يرى أحداً يخرج للصلاة، فلقد كان كل أهل القرية يصلون في بيوتهم بسبب قوات الاحتلال التي كانت تملئ كل مكان في القرية.

لقد كان الحاج قاسم رجلاً حراً شجاعاً، فقرّر أن يكسر حصار منع التجوّل، وأن يذهب إلى الصلاة رغم كل قوات الاحتلال المدججة بالسلاح...

وفي تلك الليلة التي قرّر الحاج قاسم أن يذهب فيها إلى الصلاة، بقي مستيقظاً لم ينم، وبمجرد أن صاح الديك، قام أبو أسامة ليتوضأ وينطلق لوحده للصلاة في المسجد، لم يرَ أن يأخذ معه أسامة لأنه كان يخشى عليه من قوات الاحتلال.

بعد ذهاب الحاج قاسم لوحده للمسجد، استيقظ أسامة وتوضأ كي يصلي مع والده في البيت، لكنه لم يجده، فظن أسامة أن منع التجوّل قد رفع، فأسرع إلى الطريق المؤدي إلى المسجد، لكن الديك

الحكيم حاول منع أسامة من الذهاب.. ووقف في منتصف الطريق يلوّح بجناحيه الكبيرين، وينقر أسامة كلما حاول اجتيازه نحو الطريق العام الذي يوصل إلى المسجد، ورغم كل محاولات أسامة إلاّ أنه لم ينجح، فلقد كان الديك الحكيم كبيراً وقوياً جداً.

في تلك الأثناء، كان الحاج قاسم قد وصل إلى المسجد، ولم يجد أحداً بداخله، وعندما حان وقت رفع الأذان، صعد الحاج قاسم إلى المئذنة وبدأ يكبّر عالياً...

الله أكبر الله أكبر

الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلاّ الله

أشهد أن لا إله إلاّ الله

أشهد أن محمداً رسول الله

أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة

حي على الصلاة

حي على الفلاح

حي على الفلاح

الصلاة خيرٌ من النوم.. الصلاة خيرٌ من النوم

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله...

بتلك الكلمات الطيبة، كلمات الأذان، رفع الحاج قاسم صوته عالياً متحدياً ظلم الاحتلال، وجبروت قواته العسكرية، فهب كل رجال القرية ليلبوا نداء الله، ويصلوا في بيت الله، هبّوا كلهم مرة واحدة، فوصلوا إلى المسجد، وصلّوا الفجر، وبقوا بداخله حتى طلوع الفجر، وبعد ذلك ذهب كل واحد منهم إلى منزله، ولم تستطع قوات الاحتلال منعهم لأنهم هبّوا كلهم هبّة رجل واحد بعد سماعهم لصوت رجل واحد صاح مكبّرا...

الصلاة خيرٌ من النوم.. الصلاة خيرٌ من النوم

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله...

صلّوا وعادوا إلى بيوتهم، ولكن قوات الاحتلال قرّرت أن تمنع الحاج قاسم من تكرار ما فعله، ففي الليلة التالية، وبعد أن صاح الديك، قام الحاج ليتوضأ ليذهب ليؤذن لصلاة الفجر، فكان جنود الاحتلال يختبئون في إحدى جوانب الطريق، وأطلقوا النار من رشاشاتهم باتجاه الحاج قاسم، فأصابوه برصاصات كثيرة، كثيرة جداً، رصاصات كلها حقد وكره للمسلمين المصلين.. كلها كره للفلسطينيين الذين يتحدون الاحتلال.

استشهد الحاج قاسم جراء تلك الرصاصات الحاقدة، واستيقظ كل أهل القرية على صوت الرصاص، ففر جنود الاحتلال إلى خارج القرية خوفاً من أهل القرية الغاضبين، وحمل أهل القرية جثمان الشهيد قاسم على أكتافهم عالياً، وأخذوه للمسجد.

في تلك الأثناء، كان أسامة غاضباً، غاضباً لكنه لم يكن يبكي، فلقد قرّر أن لا يبكي، قرّر أن يكبر، فهو رغم صغر سنه، ورغم أنه لم يتجاوز عمره العشرة أعوام، قرر أن يكبر، يكبر على ألمه وجرحه، فلم يبك أمام الناس، وحبس دموعه بداخل عينيه، وعند موعد صلاة الظهر، صلى أسامة وصلى أهل القرية كلهم، وبعد ذلك صلوا على جثمان الشهيد الحاج قاسم... وبعد ذلك حملوا جثمانه الطاهر إلى المقبرة، حيث دفنوه هناك.

هناك في المقبرة لم يكن جثمان الحاج قاسم الذي تحدى الاحتلال وكبّر منادياً للصلاة، لم يكن وحيداً، كان بجواره جثامين الكثير من الشهداء الأبطال الذي تحدوا الاحتلال، كل واحد منهم تحدى الاحتلال بطريقته الخاصة، فمنهم من قاتل الاحتلال بالسلاح وقتل الكثير من جنوده، وظل يقاتل حتى استشهد.. ومنهم من فجّر جسده بعملية استشهادية في أحد معسكرات جيش العدو المحتل، فقتل عدة عشرات من أولئك الجنود المحتلين الظالمين.. ومنهم من كان يرسم رسوم الكاريكاتير على صفحات الجرائد، ولما منع أصبح يرسم على أسوار القرية وأسوار المدينة حتى استشهد وهو يرسم في إحدى الليالي.. ومنهم من كان يكتب أحلى القصائد ضد قوات الاحتلال، تلك القصائد التي تشجع المقاومة... كلهم استشهدوا، واستشهد معهم كثير من الأطفال الأبرياء.. كلهم كانوا يرقدون بسلام بجوار الشهيد الحاج قاسم.

بعد أن قرؤوا الفاتحة على روح الشهيد، وعلى أرواح كل الشهداء، وبعد أن دعوا لهم بأن يغفر الله لهم ذنوبهم، ويتقبل منهم.. ذهب كل واحد إلى منزله، وبعد صلاة العصر كانوا كلهم يجلسون في خيمة الشهيد، فلقد جرت العادة في فلسطين أن تُنصب خيمة لاستقبال المهنئين باستشهاد

الشهيد، كان الناس يهنئون أسامة ويقولون له: احتسب أباك عند الله، فالله هو من أعطى، والله هو من أخذ.. كان أسامة يرد عليهم ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

عندما حلّ الليل، وبعد مغادرة أهل القرية خيمة الشهيد، جلس أسامة وحيداً، وبدأ يتذكر والده، وما هي إلاّ لحظات حتى بدأ أسامة بالبكاء.. لقد بكى كل تلك الدموع التي كان قد حبسها داخل عينيه طوال اليوم، بكى حزناً على والده، بكى حزناً على حاله، فلقد أدرك أسامة أنه وبعد استشهاد والده قد أصبح وحيداً في هذه الدنيا، بلا أبٍ وبلا أمل في الحياة، فلقد كان أسامة يريد أن يكبر ويصبح مهندساً مثل أباه، ولأجل ذلك كان مجتهداً بالمدرسة، وكان دائماً يرسم البيوت الجميلة التي تزينها أعلام فلسطين، كان يرسم العلم أكبر من البيت، لأنه كان يريد لهذا العلم الفلسطيني أن يعلو ويرتفع فوق الاحتلال.. فوق الظلم.

نام أسامة على أحد الكراسي الموجودة بالخيمة، بعد أن تعب من البكاء، وتعب من التفكير، وبعد ذلك صاح الديك صياحاً عالياً ليوقظ الناس.. استيقظ أسامة وتوضأ مسرعاً عبر الشوارع والأزقة حتى وصل إلى المسجد، وصعد إلى المئذنة وبدأ يكبر: الله أكبر الله أكبر.. كان يكبّر بصوت عالٍ، وأكمل التكبير بالأذان، فاستيقظ أهل القرية، ورغم منع التجوّل، ورغم الجنود الذين كانوا قد انتشروا في القرية، توجّه المصلون صغاراً وكباراً إلى المسجد ليلبوا نداء الصلاة، صلّوا كلهم خلف الإمام.

وبعد ذلك، ذهب كل واحد منهم إلى منزله، وإلى عالمه، وفي ساعات ما بعد العصر، بدؤوا بالتوافد إلى خيمة الشهيد قاسم أبو أسامة، وبدأ بعض الرجال يعاتبون أسامة على ما فعله، ويقولون له أنه ما زال صغيراً، وأنهم يخافون عليه من قوات الاحتلال، يخافون أن يقتل مثلما قُتل والده عندما تحدى الاحتلال... وطلبوا منه عدم الخروج من المنزل فجراً للأذان.. كان أسامة مطيعاً، ولكنه كان شجاعاً ومصمماً على أن يتحدى الاحتلال، وليس كأولائك الرجال الذي كانوا يخافون عليه.

ولذلك، قرّر أسامة أن يبيت بداخل المسجد، فبعد صلاة العشاء اختبأ أسامة في أحد أركان المسجد، حتى غادر كل المصلون، وعند ذلك بدأ أسامة يقرأ القرآن الكريم بصوتٍ عالٍ وجميل، ولأن المسجد كان عبارة عن قاعة فارغة، بدأ أسامة بسماع صوت الصدى يعلو.. ويعلو كلما علا صوت أسامة بالآيات القرآنية... ظل أسامة على هذا الحال حتى نام.. نام على أمل أن يستيقظ لكي يؤذن، ولكنه كان تعباً، فلم يستيقظ لأنه تعوّد الاستيقاظ على صوت الديك الحكيم،

فظل نائماً، واستيقظ في الصباح بعد طلوع الشمس، فأسرع للوضوء وصلى الفجر قضاءً، وصلى صلاة الضحى، وعاد حزيناً إلى منزله.

وفي اليوم التالي، كرّر أسامة ما فعله في المرة الأولى، ولكنه هذه المرة أحضر معه الديك، فلقد وضع أسامة الديك الحكيم على الدرج الذي يؤدي إلى المئذنة، كي لا يراه أحد من المصلين، وبعد أن صلى المصلون، اختبئ أسامة في مكانه الخاص، وذلك ليحضر الديك، وظل طوال الليل يقرأ القرآن وينظر إلى الديك النائم.

وقبل صلاة الفجر صعد الديك إلى المئذنة، صعد إلى أعلى القبة الصغيرة التي تغطيها، وبدأ الديك الحكيم يصيح ويصيح، يصيح بأعلى الصوت حتى أيقظ كل أهل القرية، فاستيقظوا وحضروا إلى المسجد للصلاة، حضروا جميعاً متحدين الاحتلال، فلقد مثل لهم صوت الديك صوت التحدي، صوت النداء إلى الخلاص من الاحتلال.. لم يلاحظ أحد من المصلين أسامة، فلقد ظنوا أنه أتى بعد أن سمع صوت الديك مثلهم.. صلّوا وصلى أسامة، ومنذ تلك الليلة أصبح أسامة ينام في بيته، وأصبح الديك يذهب إلى المئذنة وحيداً ليصيح معلناً اقتراب موعد الصلاة.

لقد أحب أسامة الديك، ولقد كره الاحتلال الديك، كرهه جداً، وقرّر أن يقتل الديك، ولذلك حاصروا المسجد قبل موعد الصلاة، وما أن بدأ الديك بالصياح حتى بدؤوا يطلقوا الرصاص على المئذنة لكي يقتلوا الديك، ولكن الديك قفز في الهواء وفتح جناحيه الكبيرين، ورغم أن الديك طائر، إلاّ أنه لا يطير، وهبط الديك بمساعدة جناحيه بأحد الحقول وبدأ يصيح ويصيح حتى أيقظ كل أهل القرية، وعندما استيقظوا على صوت الرصاص أولاً وعلى صوت الديك ثانياً، أدرك أهل القرية ما فعله الاحتلال بالديك، ومنذ تلك الليلة لم يعد الديك يصيح من على مئذنة المسجد، بل أصبح ينتقل بين المنازل في كل أرجاء القرية لكي يصيح، كما كان المسحراتي يفعل في رمضان، فلقد كان المسحراتي في رمضان يدور وهو يضرب على طبلته كي يوقظ الناس ليتسحروا قبل أذان الفجر.

لقد أصبح الديك يدور كل ليلة، وكان دائماً يقفز فوق أسطح المنازل، ليتجنّب جنود الاحتلال، فلقد جنّ جنون الاحتلال، وكانوا ينصبون الكمائن في كافة أرجاء القرية، بعد أن حاصروا المسجد ليمنعوا الديك من الوصول إليه.. جنّ جنونهم لأن الديك الحكيم قد تحداهم، وكسر هيبتهم أمام أهل القرية، ولذلك أحضروا المزيد من القوات، ونشروها في كل مكان، وفي كل حي، وفي كل زقاق، نشروها فوق أسطح منازل القرية، وكمنوا بهدوءٍ للديك، ولكنهم هذه المرة لم

يحاصروا المسجد لأنهم كانوا يظنون أن الديك لن يذهب إلى هناك، بل سوف يدور في القرية، مثلما كان يفعل طوال الأيام الماضية، لكن ظنهم كان خاطئاً، وكان الديك الحكيم أكثر حكمة وذكاءً من أولئك الجنود المتغطرسين، ولذلك ذهب الديك إلى المسجد، وصعد إلى المئذنة وإلى قبتها العالية، وبدأ يصيح ويصيح حتى استيقظ أهل القرية كلهم.

استيقظوا سعداء لأن الديك ما زال حياً، ولم ينجح المحتلون بقتله، ولكنهم لم يستطيعوا الذهاب إلى الصلاة هذه المرة، لأن الجنود كانوا يحاصرون كل المنازل، ويقفلون كل الأبواب، ولقد أسرع بعض الجنود إلى الذهاب للمسجد لقتل الديك، ولكنهم عندما وصلوا كان الديك قد أنهى مهمته بنجاح، بعد أن صاح وصاح... وقفز ليختبئ في أحد الحقول حتى طلوع الصباح، وعند طلوع الصباح أبقى جنود الاحتلال منع التجول على القرية، ولم يرفعوه، ولم ينسحبوا من شوارع القرية، بل على العكس بدؤوا يبحثون عن الديك في كل مكان، في كل عشة على كل سطح، في حل حقل، في كل زقاق.
كانوا يبحثون عن ديك كبير لونه بني فاتح، وله عرف طويل، وذيل طويل لونه بني فاتح، وقد اختلط وامتزج به بعض الريش الأصفر الذهبي، بحثوا وبحثوا فلم يجدوا الديك، فقد كان الديك الحكيم قد ترك القرية وصعد إلى إحدى التلال التي تطل على القرية، وكان من هناك ينظر إلى القرية ويراقب الجنود، الجنود المدججين بالسلاح الذين يلاحقونه.. ديك لا أكثر ولا أقل، طوال ذلك اليوم ظل أهل القرية محتجزين في منازلهم، ولم يتمكنوا من الخروج أبداً، وعند حلول الظلام كانت القرية هادئةً ساكنة، وكان الكل ينتظر حلول موعد أذان الفجر، ليروا ماذا سوف يفعل الديك في ذلك الوقت.

كان أسامة قلق على صديقه الديك، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً، فلقد كان بيت أسامة محاصراً أيضاً، مثل باقي بيوت القرية، لم يستطع الخروج ولم يتمكن من فعل شيء على التلة القريبة من القرية وبين الجبال، وعند حلول موعد صياح الديك... صاح الديك عالياً وكرر صياحه ليصل بسبب صدى الصوت الناجم عن وجود الجبال حول التلة الصغيرة، وصل الصوت إلى القرية، بل وصل إلى كل القرى المحيطة بها، مما جعلهم يستيقظوا كلهم على صياح الديك.

في تلك الأثناء، أطلق جنود الاحتلال وابلاً كبيراً من القذائف المدفعية ليقتلوا الديك... فقتلوه.. قتلوه بعد أن أطلقوا الكثير الكثير من تلك القذائف القاتلة، قتلوه لكن لم يقتلوا حلم ذلك الديك

الحكيم، فلقد تناثرت ريشات الديك في كل أنحاء القرية، والتقط الأطفال تلك الريشات ووضعوها على رأسهم، وجعلوها كالتاج الذي يضعه الملوك المتوجون على عروشهم.

ومنذ تلك الحادثة، أصبح أطفال القرية يستيقظون بالموعد المحدد للأذان، وكانوا يصعدون إلى أسطح منازلهم، وكان أسامة أيضاً يضع على رأسه ريشة من ريشات الديك كل صباح، ويصعد إلى سطح منزله، وكان يكبر بأعلى صوت: الله أكبر الله أكبر.. وكان كل أولاد القرية يكبّرون ويكبّرون، مما كان يجعل جنود الاحتلال يخافون ويفرون من القرية، قبل موعد صلاة الفجر.. وهكذا كان أهل القرية يذهبون كل يوم للصلاة في مسجدهم بسبب خوف جنود الاحتلال من تكبيرات الأطفال... الأطفال الديوك.

لقد كانوا ديوكاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلقد صنع هؤلاء الديوك الانتصار عندما تمسكوا بأداء فرائضهم الإسلامية، وعندما تمسكوا بمقاومة الاحتلال، فما هي إلا أشهر قليلة حتى حملوا السلاح وقاوموا الاحتلال.. وما هي إلا سنوات قليلة حتى فر الاحتلال.. فرّ المستوطنون، وفرت دباباتهم ومدافعهم.. فروا كلهم من قطاع غزة، ليصبح القطاع العربي الفلسطيني حراً.. حراً بلا محتلين وبلا ذل، أصبحوا أحراراً وعادت إليهم كرامتهم التي كان الاحتلال يحاول سلبهم إياها.. أصبحوا أحراراً لأنهم أصبحوا كلهم مثل ذلك الديك الحكيم، لأنعم عرفوا أن الحرية لا تأتي إلاّ بالمقاومة وبالتضحية وبالشهادة.

فذلك الذي يحمل قلمه ليكتب عن معاناة المظلومين هو مقاوم، وذلك الذي يضع الرصاصات في سلاحه كي يقاتل هو أيضاً مقاوم.. وذلك الديك، الديك هو أيضاً مقاوم.. كل غزة قاومت، وكلها انتصرت.. الطبيب الذي كان يعالج المصابين بنيران ورصاص المحتلين هو مقاوم.. الأستاذ الذي يدرّس في المدرسة هو مقاوم، فهو يدرس ويعلّم لأن العلم والمعرفة سلاح، ولأن العلم نور، والاحتلال لا يستطيع أن يعيش بوجود النور.

أما أسامة الذي كان قد كبر وكبر، وأصبح اليوم وبعد مرور أعوامٍ على تحرير قطاع غزة، أصبح مهندساً مبدعاً، أصبح يبني البيوت والمساجد والمدارس التي كان الاحتلال قد هدمها أثناء احتلاله وأثناء عدوانه الأخير على غزة.. كان أسامة مهندساً في النهار، وكان مرابطاً مقاوماً في الليل، يرابط على ثغور غزة ليحميها من خفافيش الليل، من قوات الاحتلال، التي كانت تحاول التسلل في بعض الأحيان لكي تقتل ديكاً هنا، أو ديكاً هناك.

ولكنهم غالباً لم يكونوا يستطيعون الوصول إلى تلك الديوك، لأن أسامة وإخوانه المجاهدين المرابطين كانوا لهم بالمرصاد... ولكن إن تمكّن الاحتلال من قتل ديكٍ عن طريق قذائفه أو طائراته في بعض الأحيان، إلاّ أن ذلك الديك وتلك الريشات كانت تصنع ألف ديك وديك، فهي كحبّات القمح التي ما أن تصل إلى الأرض حتى ترتوي وتنبت سنابل كثيرة، وتنبت مقاومين كثر، وتنبت الديك تلو الديك.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 9 "

فراشة ولكن

عادت اليوم "أم ريم" من مستشفى الولادة، فلقد ولدت ريم ليلة البارحة في مدينة طولكرم، وعادت مع والدتها إلى البيت، كانت ملفوفة بشالٍ أزرق اللون، وترتدي ملابس زرقاء، وحتى أن حقيبة ملابسها كانت زرقاء، حذاؤها القطني هو الآخر كان أزرقاً، حتى عندما وضعتها أمها بداخل سريرها، اضطرت الأم أن تبعد عدداً من الألعاب، مثل: السيارة والرشاش وقفازات الملاكمة، تلك الأشياء لم تكن تخص الفراشة الجميلة ريم، وإنما تخص إخوتها الأربعة، فلقد كانت ريم هي آخر العنقود، وقد سبقها أربعة دبابير، كما أصبحت ريم تسمّيهم عندما كبرت.. كان إخوة ريم يكبرونها بفارق عامين، أي أن أحمد كان عمره عامين عندما ولدت ريم، أما سالم فكان عمره أربعة أعوام، وستة أعوام كان عمر صالح ، وكبيرهم مجد بلغ الثامنة من عمره .

لقد اعتبر أولئك الدبابير ريم أحد الألعاب التي يتسلون بها، فقد نشأت عند أم وأب يحبانها حباً كبيراً، وإخوةً يخافون عليها من نسمة الهواء، أخوة أحبوها، فلقد كانت ريم رغم أنها فتاة جميلة، إلا أنها كانت بالنسبة لأولئك الدبابير دبوراً خامساً، كما كانوا أيضاً يسمونها، فعندما كانت أمها أو أبوها ينادونها ريم فراشة البيت، كان أحد أولئك الدبابير يقول ريم دبور مثلها مثلنا، فنحن كلنا دبابير أقوياء، لا فراشات ضعيفة.

بعد أشهر من ولادتها، بدأت تتعلم الحبو على يديها وقدميها، ولكنها تعلمت بالاضافة إلى الحبو المصارعة الرومانية، أو عناق الدببة كما كان أحمد يسميه، فلقد كان أحمد يلعب ويلهو مع ريم، وكأنهما في حلبة للمصارعة، كان يعلم أنها صغيرة، فكان يدعها تضربه كيفما تشاء لم يكن يقسو عليها أبداً، بل كان سعيداً بها، فهي ليست سوى لعبة جميلة تتحرك وتبتسم.

كان ما يميّز ريم أنها تكاد تكون من ذلك النوع من الأطفال الذين لا يبكون أبداً.

وعندما أصبح عمرها عام واحد، وكانت قد بدأت تمشي خطواتها الأولى، وقبل أن تتقن تلك الخطوات، وجدت نفسها مضطرة إلى الجري من أحمد الذي أصبح عمره ثلاثة أعوام، وكانت هي قد مزّقت كراسة الرسم الخاصة به، تعلمت الجري قبل أن تتقن المشي، لقد كان أخوتها في البيت لا يسمحون لأحد مهما كان، وكائناً من يكون، باستثناء أبوهم وأمهم من الاقتراب من ريم أبداً

أبداً، لا خال ولا عم ولا خالة ولا عمة، كانوا يستطيعون الاقتراب من ريم أو حملها، فلقد كان الدبابير الأربعة بمثابة حرّاس للأميرة ريم، لكن ريم الجميلة جداً كانت أبعد ما تكون عن أن تكون أميرة هادئة، فهي منذ اليوم الأول كانت ترتدي اللون الأزرق، وهو لون الطفل الولد، ولم ترتدِ اللون الوردي لون الطفلة كما جرت العادة.

ريم تعلمت المصارعة والقفز وحتى الملاكمة، قبل أن تتعلم جدل ظفائرها، كانت ترفض ولا تحب الشعر الطويل، رغم أن شعرها كان شعراً مثل سنابل القمح، كانت تطلب من والدتها أن تقصه لها مثل قصة شعر احمد أو سالم، أو حتى مثل صالح أو مجد.

لقد تأثرت ريم بأولئك الدبابير الأربعة كثيراً، رغم كل محاولات والدتها التي كانت تحاول جاهدةً أن تجعل ريم فتاةً عاديةً مثل باقي الفتيات، إلاّ أن كل المحاولات كانت تبوء بالفشل، فلقد كانت ريم ترفض، وكان الدبابير دائماً يشجعونها ويقفون معها ضد أي أحد حتى أمهم أو أبوهم... كانوا حراس دبابير أقوياء.

حتى أن ريم تعلمت من سالم عندما كان عمرها ثلاثة أعوام، وكان عمر سالم سبعة أعوام تعلمت إلقاء الحجارة على جنود الاحتلال، فلقد أخذها سالم معه لشراء الحلويات في عصر احد الأيام، ولكنهما فوجئا بقوات الاحتلال تجوب القرية لترهب السكان، وكان الأطفال يلقون عليها الحجارة، فبدأ سالم يلقي الحجارة، أما ريم فلم تكن تفعل شيء سوى جمع الحجارة وإعطائها لسالم، ومنذ ذلك اليوم أصبح سالم يدرّب ريم ويعلمها على كيفية إلقاء الحجارة بواسطة المقلاع، لقد تعلمت تلك الفراشة الدبورة إلقاء الحجارة قبل أن تتعلم شم الزهور، وجمع الورود، فجمع الحجارة لإلقائها على جنود الاحتلال كان ممتعاً بالنسبة لها أكثر من جمع الورود.

آهٍ يا ريم يا فراشتي الشقراء، لقد حوّلوك أولئك الدبابير إلى دبور، آهٍ يا جميلتي الصغيرة، كانت أمها تقول تلك الكلمات وهي تغسل يدي ريم من التراب، وتعيد تجديل جدائل شعرها بعد عودتها من اللعب مع أخوتها.

لم تكن تعلم الأم عما كانت ريم تفعله مع أخوتها من مغامرات طفولية، مثل إلقاء الحجارة أو سد طرقات القرية بالإطارات المشتعلة لمنع قنوات الاحتلال من اقتحام القرية.

اليوم، هو يوم الفراق، يوم البكاء، اليوم انتهت العطلة المدرسية، وسوف يدخل أخوتها إلى مدارسهم، وسوف يدخل أحمد إلى الصف الأول، بعد أن بقي يلعب معها طوال الأعوام السابقة، بعد أن كان أخوته الثلاثة قد سبقوه إلى المدرسة، وما زاد من حزن ريم الفراشة، أو ريم الدبور، هو أن أمها كانت قد قرّرت أن تدخل ريم إلى الروضة، وفعلاً ألبست أم ريم ابنتها أجمل فستان عندها، أو بالأصح الفستان الوحيد الذي كان بخزانة ملابس ريم، فكل ملابسها كانت عبارة عن بناطيل مثل بناطيل أخوتها، فهي لم تكن تحب ملابس الفتيات أبداً.. اضطرت مجبرة على ارتداء ذلك الفستان الجميل، وجدّلت لها أمها ضفائرها الذهبية، لقد كانت ريم جميلة جداً.. كانت مثل ملاك قد حطّ على الأرض.

أمسكت بيديها وأخذتها إلى روضة الأطفال، تلك الروضة التي بجوار منزلها، حيث أن الروضة كانت ملاصقة تماما لبيت ريم، دخلت ريم مع أمها للروضة، دخلت وهي تبكي وهي غاضبة.. ظلت طوال اليوم الأول على الكرسي دون أن تكلّم المعلمة. المعلمة التي كانت خالتها أخت أمها، دون أن تجرؤ على أن تكلمها، بل كانت تكتفي بأن تقول للأطفال ارسموا أو اكتبوا.. كانت تجدها بصيغة الجماعة، لان خالتها كانت تدرك أن ريم فتاة بقدر ما تتمتع بجمال ملفت، إلا أنها تتمتع بقوة أكبر بكثير من ذلك الجمال.

عادت ريم بعد انتهاء اليوم الأول إلى البيت، قبل عودة أخوتها من مدارسهم، وعندما عادوا وجدوها تبكي وتشتكي ما فعلته بها أمها، وطلبت منهم أن يساعدوها على عدم الذهاب إلى الروضة، طلبت وهي تبكي، وتلك المرة الأولى التي رأوها وهي تبكي، فريم لم تكن من النوع البكّاء، وخاصة أمام أخوتها الدبابير الأربعة.

حاولت الدبابير أحمد ، سالم و،صالح ومجد، إقناع أمهم وأبيهم، ولكن دون جدوى، فكل المحاولات باءت بالفشل، فلقد كان الأب والأم حازمين جداً في هذا الموضوع، ولأن ريم كانت ترفض الذهاب إلى الروضة بحجة أنها تريد اللعب مع أخوتها.

أما وبعد أن دخل أحمد أصغر أخوتها إلى المدرسة، فلقد أصروا على أن تذهب للروضة... في اليوم التالي حاولت ريم التحجج بعشرات الحجج مثل المرض أو ألم في الرأس، ولكن تلك الحجج باءت أيضاً بالفشل، فأخذتها أمها إلى الروضة، واستقبلتها خالتها.. خالتها التي كانت تحب ريم حباً كبيراً، فلقد كانت خالة ريم متزوجة منذ أعوام، ولكنها لم تكن تستطيع الإنجاب، ولم يكن عندها في الدنيا سوى زوجها وحبيبها "فارس".

فلقد كانت تحب فارس، وكان فارس يحبها ويحب فلسطين جداً.. كان زوج خالة ريم فارس أحد أبرز المطلوبين لقوات الاحتلال، وكانت تلك القوات الصهيونية تطارده، وتحاول اعتقاله والإمساك به، له من اسمه نصيب.. نعم كان فارساً من فرسان فلسطين، فارساً يحب وطنه ومخلصاً في حبه لزوجته رغم أنها لم تكن تستطيع الإنجاب.

كان مطارداً، ومطارداً في نفس الوقت... فلقد كان يطارِد قطعان المستوطنين الذي كانوا دائماً يعتدون على القرى الفلسطينية، وكان يطارده جنود الاحتلال الذي كانوا يرهبون السكان الآمنين في منازلهم ومزارعهم.

فارس هو فلسطين بكل ما تحمل الكلمة من معنى.. فلاح بسيط جداً ومقاوم جسور جداً، حنون على زوجته وأمه وأبيه، وجسور على أعداء فلسطين أعداء الحرية أعداء الحياة... هكذا كان حال فارس، أما حال زوجته (خالة ريم) فكانت الصبر والرضا بقدرها... أحبت ريم كثيراً، وأرادت أن تجعل من ريم الدبور.. ريم الفراشة الأميرة، أرادت ونجحت، فخلال الأعوام التي قضتها ريم في الروضة تغيرت طباعها، وأصبحت فتاة، بل أصبحت أميرة، وكانت قد تعلّقت بخالتها كثيراً، وتعلمت منها كل شيء، تعلمت كيف تأكل بالشوكة والسكين على عكس أخوتها الذين كانوا يفضلون تناول طعامهم بأيديهم.. بأيديهم حتى وبدون استعمال الملعقة، كانوا دبابير، وما زالوا.

أما ريم فقد لاحظ الدبابير الأربعة أنها قد تغيرت، ودخلت إلى المدرسة، دخلت وهي أميرة متوجة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلقد تعلمت كل أصول الإتيكيت، وأصبحت تتكلم بأدب وتهذيب، لقد نجحت خالتها نجاحاً مميزاً، وأرادت أن تكمل هذا النجاح، وأرادت أن تكون إلى جانب ريم في مدرستها، فقررت أن تصبح مدرّسة في مدرسة ريم، فخالة ريم كانت تحمل أعلى الشهادات الجامعية، لكنها عملت معلمة في روضة الأطفال لحبها للأطفال، وها هي تترك الروضة لتلتحق بفراشتها الجميلة ريم.. ريم التي كانت حزينة عند دخولها للروضة، هي حزينة أكثر لتركها للروضة وذهابها إلى المدرسة، فلم تكن تعلم أن خالتها سوف تكون هناك على باب البيت، تنتظرها لتمشي معها إلى المدرسة، فوجئت ريم بخالتها وكانت سعيدةً جداً وفرحة، فلقد أحسّت أنها أسعد مخلوق على وجه الأرض، أحست أنها فراشة تنتقل بين حقول الأزهار حقل الروضة وحقل المدرسة، كلها مليئة بالأزهار وأجمل تلك الأزهار هي خالتها زوجة فارس.

استمرت ريم وخالتها على هذا الحال عدة أعوام، وكانت أحلى الأعوام التي عاشتها كلّ من ريم وخالتها، وحتى عندما انتقلت ريم إلى مدرسة أخرى في القرية المجاورة، عندما أصبحت بالصف الخامس، انتقلت معها خالتها، وكانتا تذهبان إلى المدرسة بالحافلة.. تلك الحافلة التي أحدثت المأساة عندما انقلبت في أحد الوديان بعد أن صدمتها مجنزرة عسكرية صهيونية.. انقلبت الحافلة لتقلب حياة ريم الفراشة رأساً على عقب.

بلغ الحقد والكره عند الجنود الصهاينة حد أن يصدموا متعمدين حافلة مدرسة الأطفال، لكن الله أعلى وأكبر، فلم يقتل أي من أولئك الأطفال، لم يمت بتلك الحادثة رغم انقلابها إلى قاع الوادي أيّ من أشبال فلسطين وأيّ من زهرات فلسطين.. أصيب بعضهم بكسر في يده أو بكسر في قدمه أو بعدة رضوض مثل حال خالة ريم التي أصيبت بكسر في قدمها.. أصيبوا كلهم.. كلهم أصيبوا إلا ريم، ريم لم تصب ولا حتى بخدشٍ بسيط... كان الأطفال يبكون والمعلمات أيضاً كنّ يبكين، لكن ريم لم تكن تبكي ولا تشتكي من الألم.. كانت صامتة، صامتة تنظر حولها، وترى الأطفال أصدقاءها وقد نزفت الدماء من جروحهم، تنظر وتسمع لآهاتهم وآلامهم، وسرعان ما وصلت إليها خالتها رغم كسر قدمها لتضمّها كما ضمّت الأطفال، وكم كانت سعادة الخالة لعدم إصابة ريم، وكم كان حزنها على إصابة الأطفال الآخرين.

حضرت الإسعاف تلوها سيارة إسعاف، بل حضرت كل سيارات الإسعاف من كل المناطق والقرى من كل المستشفيات والمراكز الطبية، حضروا كلهم ليتفقدوا ذلك الحادث الأليم، ونقل الأطفال والمعلمات إلى المشافي ليعالجوهم على الفور.. عولجوا إلا ريم.. ريم التي لم تصب لم تكسر لم تجرح، لم يتمكنوا من علاجها أبداً رغم كل المحاولات، رغم حضور عمها الطبيب الكبير خصوصاً من عمّان لعلاجها.. لكنه لم يستطع، حاولوا كلهم، وظلوا يحاولون دون كلل أو ملل، إلاّ أنهم لم يتمكنوا، حاولت الخالة التي شفيت من كسر قدمها لكنها ورغم أنها حوّلت ريم الدبور إلى ريم الفراشة، فإنها لم تنجح بعلاج ريم.. أبوها وأمها لم ينجحوا أيضاً.. وحتى أخوتها الدبابير الأربعة: أحمد وسالم وصالح ومجد.. حاولوا ليلاً نهاراً، حاولوا ولم يكلوا أو يملوا لكنهم كلهم.. كلهم فشلوا.. فشلوا وشعروا باليأس، شعروا بأن لا حول لهم ولا قوة، فأوكلوا أمرهم لله عز وجل لعله يشفي ريم.

أما ريم فكان مرضها هو الصمت... الصمت المطلق.. فقد أصيبت بصدمة نفسية شديدة، أفقدتها القدرة على الكلام والتحدث، كل الأطباء وعلى رأسهم عمها قالوا أنه لا يوجد سبب عضوي يمكن علاجه، فالسبب هو صدمة نفسية شديدة أفقدتها النطق والكلام.

حلّ الحزن الشديد على منزل ريم، فلم يعد هناك لهو ولعب، ولم يعد الدبابير يمرحون ويمازحون أختهم الأميرة.. لقد حطّم الاحتلال الصهيوني البغيض أحلام الطفولة.. حطّم البسمة ودمّر الأمل.

بعد أن شفي كسر قدم الخالة، ورغم أن ريم لم تعد تستطيع الكلام، أصرت الخالة على اصطحاب ريم معها إلى المدرسة، كانت ريم الصامتة تستمع إلى المعلمات ولكنها لم تكن تحسن الإجابة، فكانت تكتب أجوبتها على ورقة لتريها لمعلماتها.. كانت ريم مجتهدة جداً، وكانت خالتها التي ما يزال زوجها فارس مطارداً ترعى ريم، وتقوم بكل يوم بعد انتهاء اليوم الدراسي بالحضور إلى منزل ريم لتدرسها وتعلمها، وكانت ريم تتفوق يوماً بعد يوم، وكانت نتائجها، رغم عدم تمكنها من الكلام، هي الأولى على صفها وعلى مدرستها... كانت ريم مميزةً، وكانت خالتها أيضاً مميزة في إصرارها على أن تتلقى ريم التعليم، رغم حالتها المرضية.

لقد وجدت الخالة المحرومة من الأطفال بريم حلماً جميلاً، أصرت على تحويله لواقع أجمل.. لم تكل ولم تمل، فهي قوية مصممة مثل زوجها فارس... ذلك الفارس الذي تحدى رغم ضعف إمكانياته أقوى آلة من آلات الحرب والدمار.

ورغم مرور عامين، إلاّ أن حالة ريم لم تتحسن من الناحية الصحية، ولم تستطع الكلام، إلاّ أنها كانت تعود يوماً بعد يوم إلى اللهو واللعب مع أخوتها، مثلما كانت تفعل قبل حادث فقدانها للنطق. ذلك الحادث الذي ما زالت تتذكره وتصحو في بعض الليالي مذعورةً من كوابيسه التي ما زالت تطاردها.

لكنها حتى تلك الكوابيس سرعان ما زالت، وتحوّلت إلى أحلام هانئة، وكان الفضل بذلك يعود إلى فارس زوج خالتها، فلقد كان يحضر في بعض الليالي متخفياً عن قوات الاحتلال إلى منزل ريم، ليرى زوجته التي كانت تبيت في منزل أختها، وكان فارس عندما يحضر، يُحضر معه سلاحه الرشاش، وكان يجعل ريم تلهو به بعد أن يزيل الرصاصات منه، كانت تلهو به لوحدها، فلم يكن فارس يسمح لأي أحد بلمس سلاحه، إلاّ ريم، أما الدبابير الأربعة أخوة ريم، فكانوا يحاولوا ويحاولوا دون جدوى، وكانت ريم تفرح جداً عندما يبدأ فارس يقص عليها وعلى إخوتها أخباره وحكايات المقاومة.

تلك الأخبار والحكايات كانت تسعد ريم جداً، وهي أيضاً التي بدأت تعيد لريم ثقتها بنفسها مرة أخرى، فصحيح أن ريم أصبحت فراشة جميلة صامتة، لكن ما يزال بداخلها ريم الدبور القوي الذي كان يرجم قوات الاحتلال منذ أن كان عمرها ثلاثة أعوام، ثلاثة أعوام فقط لا غير، كان عمرها عندما علّمها أخاها سالم كيف تستعمل المقلاع لتضرب به الحجارة على تلك القوات الظالمة، كانت تقول تلك الكلمات لنفسها وتكررها قبل النوم، وكانت بذلك تنام نوماً هادئاً، ونوماً جميلاً مثلما تنام الفراشات... أي كانت تتذكر أنها دبور لكي تنام ككل الفراشات.

كانت ريم عندما تودّع زوج خالتها تطبع قبلة على جبينه، وقبلة على رشاشه، كانت تمسك بالرشاش وتنظر إليه كأنها تكلمه ويكلمها... لم يكن فارس يستعجل بأخذ الرشاش والمغادرة إلى عمله الجهادي، فلقد كان هو أيضاً يشعر أن ريم هي ابنة له، وكان دائماً عندما يحضر، يُحضر معه الكثير من الحلوى والألعاب لريم، ريم وحدها دون غيرها.

كان يحب الدبابير أيضاً حباً كبيراً، فلقد كبروا وأصبحوا شباناً مقاومين، ولكنه كان يشعر أنه يجب أن يولي ريم الجانب الأكبر من تلك المحبة.

في تلك الفترة، كان فارس المقاوم قد زاد إلى حد كبير جداً ضرباته الموجّهة إلى جنود الاحتلال، وكان قد أصبح أكثر المطلوبين من قبل قوات الاحتلال، إن لم يكن أكثرهم أهمية، فلقد كانت ضربات فارس موجعة جداً.. كان فارس حاله مثل حال أغلب المقاومين يرد على جرائم الاحتلال ومستوطنيه الذين كانوا يزيدون من اعتداءاتهم على الفلسطينيين بهدف تهجيرهم وطردهم من فلسطين إلى خارجها، وظل الحال على هذا المنوال حتى حضرت قوات الاحتلال في صباح أحد الأيام إلى مدرسة ريم، ريم ما تزال فراشة وادعة صامتة، تستمع لمعلمتها وتحل واجباتها بصمت.. حضرت تلك القوات ودخلت إلى ساحة المدرسة، ونادت عبر مكبّرات الصوت على المعلمة زوجة فارس، المعلمة خالة مريم.

نادت قوات الاحتلال عليها وسط ذهولٍ من الطلاب والمعلمات، وظلوا ينادون حتى نزلت لهم من صفّها التي كانت تدرّس به، وما أن نزلت إلى الساحة، حتى كان كل المعلمات والطالبات ينظرن إليها وهي تمشي بشموخٍ وبقوة، تمشي مثل أشد الأسود جسارة، مشت نحو الجنود، ومشت معها نظرات ريم التي كانت تنظر إليها بحبّ وحنان، وتنظر إلى العدو الصهيوني بكره وحقد، وما أن وصلت المعلمة زوجة المقاوم فارس إلى الضابط، حتى صفعها صفعةً قوية مدوّية، فلقد كان الهدوء يعمّ المدرسة... لم يتأخر ردّ زوجة المقاوم كثيراً بل جاء على الفور، وبشكلٍ

أتوماتيكي، فبصقت خالة ريم على وجه الضابط، البصقة تلو البصقة، فحاول الضابط أن يعيد صفعها ثانيةً، إلاّ أنه لم يستطع.

لم يستطع لأن ريم الفراشة عزمت على أن تعود دبوراً، بل أن تعود أقوى من ألف ألف دبور، فقبل أن يصفع الضابط الصهيوني الحاقد وجه المعلمة مرة أخرى، ألقت ريم كتابها نحو الضابط، وصاحت بصوتٍ عالٍ مدوٍّ: هيا هيا ألقوا كتبكم على هؤلاء الكلاب.. ألقت كتابها وكلماتها، فألقت نحو أربعمائة طالبة كتبهن على جنود وقوات الاحتلال، فكل طالبة كانت تحمل في حقيبتها ما لا يقل عن عشر كتب وعشر كراريس، لقد ألقوا ما يقارب أربعة آلاف كتاب وأربعة آلاف كراس في دقائق معدودة، وألقوا أقلامهم وحقائبهم المدرسية، فحوّلوا ساحة المدرسة إلى ساحة حرب للكتب، ضد طيور الظلام، ضد قوات الاحتلال، تلك القوات التي تعيث بفلسطين خراباً وفساداً.

كلهم ألقوا كل ما كان بحوزتهم من كتب وكراريس، وقبل أن تنتهي آخر طالبة من إلقاء آخر كتبها، أمسكت ريم دبورة الدبابير بكرسيها وألقته من النافذة باتجاه قوات الاحتلال، ألقته وهي تقول: ألقوا كراسيكم، فلم يعد للفراش مكان في مدرستنا بعد اليوم... ألقوا واضربوا عدوكم، أنتنّ اليوم دبابير.. دبابير حربية لا تخاف المحتل... فألقت الطالبات الكراسي الواحد تلو الواحد.. أربعمائة كرسي ألقيت في عدة دقائق، وخلال تلك الدقائق القليلة كان جنود الاحتلال قد فرّوا هاربين من المدرسة، فروا مثلما يفرّ الغراب، مثلما تفرّ البومة عند حلول النهار، وسطوع فجر الصباح، فروا مذعورين مذمومين مدحورين.

في تلك الأثناء، كان الكلّ فرحاً مسروراً إلا خالة ريم، كانت تحضن ريم وتبكي... لم تكن تبكِ على صفعة الضابط لها، فلقد ردّت الصفعة بالبصقة تلو البصقة في وجهه القبيح، لم تكن تبكِ لأنها مقهورة من الاحتلال، فهي كانت مؤمنة أن زوجها فارس سوف يرد صفعة الضابط بألف رصاصة ورصاصة.. كانت تبكي من شدة فرحها على سماع صوت ريم.. على سماع صراخ ريم.. على عودة الدبورة ريم إلى الكلام من جديد.. بكت وبكى كل من كان في المدرسة، بكوا فرحاً على نصرهم ضد قوات الاحتلال، بكوا فرحاً على ريم دبورة المدرسة التي أعاد صوتها للمدرسة الحياة من جديد.. حياة العز، حياة تحدّي الاحتلال بكل الطرق، حتى لو كانت تلك الطرق إلقاء الكتب المدرسية.

فالاحتلال الذي يقتحم مدرسة ليهين معلمة، لأن زوجها مقاوم، يجب أن يعلم أن الكتب المدرسية كتب العلم والنور، سوف تهوي على رأسه أقوى من حجارة أطفال الحجارة.

في تلك الليلة، احتفلت القرية بعودة صوت ريم، بعودة الحياة من جديد في بيت ريم، احتفل أخوتها الدبابير الأربعة مع ريم الدبورة الخامسة، احتفلوا ورقصوا كثيراً.. لم تكف ريم عن الكلام، فمنذ عودتها من المدرسة مع خالتها، وهي تتكلم.. تتكلم طوال الطريق، خالتها تستمع لها، وعندما وصلت فوجئت أمها، وبكت كثيراً.. فنحن الفلسطينيون نبكِ عندما نكون سعداء، ونبكي عندما نحزن، حتى أباها بكى حتى الدبابير الأربعة: أحمد وسالم وصالح ومجد بكوا.. وبكوا رغم أنهم فتيان أقوياء، إلا أنهم بكوا فرحاً بأختهم الأميرة ريم.

لقد وزّعوا العصائر والحلويات على المهنّئين الذين جاءوا لكي يباركون لريم بعودة صوتها.. بعود الضحكة لها.

وقبل منتصف الليل بقليل، سمعوا صوت دويّ انفجارات قوية وإطلاق الكثير من الرصاص، ونظروا إلى أعلى التلة، فوجدوا معسكر قوات الاحتلال يشتعل ويحترق، وتعالت من داخل المعسكر صيحات جنود الاحتلال الخائفين من الموت على يد المقاومة.

فلقد علم فارس بما حصل صباح اليوم مع زوجته، وقرر أن يلقّن العدو درساً لن ينساه أبداً، ولقد نجح ومنذ تلك الحادثة، لم تعد قوات الاحتلال تجرؤ على دخول القرية، ولا المدرسة، لأنها تعلم أن القرية الوادعة الجميلة، قرية فراشات المدرسة، أصبحت قرية الدبابير.. لقد أصبحوا يخافون من أن يثيروا عش الدبابير مرةً أخرى.

كبرت ريم وأصبحت معلمةً تعلم الطالبات العلوم الحديثة، وتعلمهم حب الوطن والاعتزاز بالكرامة، فكانت تقول.. الموت أهون ألف ألف مرة من فقدان الكرامة.. ولا كرامة إن لم نكن أقوياء كدبابير على أعدائنا، وفراش على أهلنا وإخوتنا...

ريم.. فالكل فراشة.. والكل دبور.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 10 "

القطة والأمل

وُلدت الجميلة صفاء في يوم كان جميلاً جداً، يوم كان أبيضاً.. لقد ولدت صفاء في أحد أجمل الأيام، حيث كانت الثلوج البيضاء الناصعة تغطّي كل شيء، الشوارع والأشجار وأسقف المنازل.

كان يوماً جميلاً، وكانت صفاء أجمل بكثير، فلقد كانت عيون صفاء عسلية وشعرها كستنائي ووجهها أبيضاً وخدودها وردية.

كانت والدتها رغم وجعها بسبب الولادة ترضعها كثيراً جداً، لكن صفاء لم تكن تكتفي، بل كانت تريد شيئاً آخر، كانت تريد من والدها أن يضع قليلاً من العسل الحلو على شفتيها، فلقد كانت صفاء الجميلة تحب العسل كثيراً رغم صغر عمرها.

كان أبوها يحكي لها القصص ويتكلم معها ساعات وساعات، لم تكن صفاء تفهم ما يقوله والدها، فلقد كانت ما تزال صغيرة.. عمرها يوم واحد، وحتى عندما أصبح عمرها أسبوع وأسبوعين، ورغم الكثير من العسل الذي كان والدها يضعه على فمها، إلا أنها لم تكن تفهم شيء مما كان يقوله لها.

كان يقول لها يا صفوءة يا عسولة أنا بابا حبيبك.. يا صفوءة يا عسولة أنا بابا حبيبك... أنا اليوم معك اسمعيني وخدي من العسل، (لأني ما بعرف شو رح يصير بكرة) ، أنا يا صفوءة يا عسولة أبوك عبود (اللي بحبك قد الدنيا وقد السما).

أنا اليوم عندك، وبطبع أحلى بوسة على خدك، لكن بكرة الله يعلم وين راح أكون يا صفوءة يا عسولة أنا بحبك أكتر أكتر... طيب يا صفوءة.

كانت صفاء تسمع وتبتسم، ولم تكن تفهم ما يقوله أبوها، لكنها كانت سعيدةً جداً بوجوده إلى جوارها، فلقد كان يحملها بين ذراعيه القويتين والدافئتين، كانت تشعر بالأمان وهي مع أبيها، وكانت تتمتع بالعسل الذي كان دائماً يضعه على شفتيها، رغم شدة البرد في خارج المنزل، إلا أنها كانت تشعر بالدفء الكبير، وكانت خدودها تصبح ورديةً من شدة الدفء.

لم يكفّ والد صفاء "عبود" عن الحديث مع صفاء، لم يكن يكف عن سرد القصص لها، فلقد كان عبود مقاوماً فلسطينياً، يقاوم الاحتلال.... الاحتلال الذي احتل فلسطين والقدس والأقصى، وكان عبود يعلم أن معركته مع الاحتلال قاسية وصعبة جداً، إلاّ انه كان رغم أنه مطارد من قبل قوات الاحتلال، كان دائماً يعود إلى المنزل السري الذي ولدت به صفاء.. كان يعود من المعارك لكي يتحدث مع ابنته الجميلة، فلقد كان يحبها جداً، ولقد أسماها صفاء على اسم أمه التي كان يحبها أيضاً.

كان يعود في منتصف الليل لكي لا يراه أحد من أعوان الاحتلال، يعود ليقص على صفاء القصة تلو القصة، فلقد كان عبود يشعر أنه قد يستشهد قريباً، أو قد يأسر.. ولذلك فلقد كان يكرّس كل الوقت الذي تبقى لديه بعد أداء مهامه الجهادية، يكرسه لصفاء حبيبة قلبه.

في أحد الأيام، وعندما كان عمر صفاء ثلاثة أسابيع، كان عائداً إلى البيت بعد صلاة الفجر، وكان يقود سيارته، وكانت الشوارع ما تزال مظلمة، فرأى عبود قطة صغيرة جداً تقف في منتصف الطريق، كانت تلك القطة صغيرة وضعيفة ومريضة، وكان جسدها يرتعش من شدة البرد، فأوقف عبود سيارته وأخذ القطة من الطريق، ووضعها بداخل جيب سترته، فلقد كان يرتدي سترةً من الجلد المبطّن بالفرو الدافئ، فأدفئ القطة هناك، حتى وصل إلى البيت، وقبل أن يذهب لغرفة صفاء أخذ القطة إلى المطبخ ليضع لها بعض الحليب.

ولكن القطة كانت ما تزال ترتجف، فلقد كانت مريضة جداً، فعاد عبود إلى سيارته وأخذ معه القطة الصغيرة إلى صديقه الطبيب أحمد، وهو طبيب أطفال لا طبيب قطط، فقال له أحمد: أجئتني قبل طلوع الشمس من أجل هذه القطة!، لقد ظننت أن صفاء هي المريضة، وليس القطة، ألا تعلم أنني طبيب أطفال لا طبيب قطط!. فنظر عبود إلى صديقه الطيب أحمد، وقال له: إنها روح خلقها الله، وإن الله الذي خلق هذه القطة هو أيضاً الذي خلق صفاء، فعالج القطة فوراً وبالحال، ولا تسألني عن شيء، اسأل أحد أصدقائك أطباء القطط الذين تعرفهم.

أدرك أحمد أن عبود مصرّ على علاج القطة، فاتصل أحمد بصديق له يعمل طبيباً بيطرياً، فدلّه على كيفية علاج القطة، وأعطى القطة العلاج المناسب ولفّها بقطعة من القماش وأعطاها لعبود. شكره عبود كثيراً وعاد بالقطة المسكينة إلى البيت ووضعها بجوار صفاء، لكي تنام، ولكي تتدفأ.

استيقظت صفاء، وبعد أن أنهت رضاعتها من والدتها، أخذها أبوها كي تستحم بالحوض الصغير، وبدأ عبود بغسل شعر صفاء بالماء الدافئ، فلقد كانت صفوءة صغيرة جداً، وكان عبود يمسكها بين أصابعه، مثلما كان يمسك القطة التي وجدها... وبعد قليل على بدء صفاء استحمامها استيقظت القطة، وذهبت نحو عبود، فأخذها وبدأ بغسلها كما يغسل صفوءة.

بعد ذلك، جفّف صفوءة، وجفّف القطة التي قرّر أن يسميها "نانا"... وضع لنانا الحليب الدافئ، ووضع لصفاء بعض العسل على شفتيها، فابتسمت وأصبحت سعيدة، فقد رضعت الحليب واستحمت وها هي تلعق العسل مثلما تلعق القطة نانا الحليب الدافئ.

بعد أسبوع، أصبحت القطة قويةً، وأصبحت صحتها ممتازة، وكانت تشرب الحليب وتقفز في كل مكان بالبيت، كانت نانا لا تحب أن تنام إلا بجوار صفاء، وكانت عندما ترى صفاء ترضع كانت تموء وتموء لكي يضع لها عبود الحليب لتلعقه.

لم يكن عبود يدري من كان يغار مِن مَن! هل تغار صفاء من نانا، أم تغار نانا من صفاء الطفلة، لقد أصبح عمر صفاء شهر واحد، وطوال هذا الشهر لم يكف عبود عن الحديث إلى صفاء، وهي بين يديه، فلقد كان يقص القصص لصفاء ولقطتها المشاكسة، كل يوم، في الصباح والمساء، لقد كان عبود مؤمناً بالله كثيراً، ولقد أحس أن الخطر أصبح قريباً منه، ولذلك قال لصفاء: أنا يا حبيبتي سوف أذهب اليوم باكراً إلى أحد المهام الجهادية، ولا أعلم إن كنت سوف أعود، أريد منكِ يا حبيبتي إن لم أعد أن تتذكريني، فأنا أحبكي كثيراً يا أجمل وأحلى وأروع طفلة في الوجود، أحبك يا ابنتي الصغيرة، أحبك حباً كبيراً، وطبع عبود قبلةً دافئة على خدي صفاء.
وضع القطة نانا بين يديه وقال لنانا: اسمعي أيتها القطة الجميلة، أريد منك أن تكوني دائماً صديقة لصفاء، فصفاء ليس لها أصدقاء سواكِ، مفهوم يا نانا!.. فردّت نانا القطة وقالت لعبود: (حاضر يا عمو عبود، صفوءة راح أحطها بعيوني، وراح أدير بالي عليها، زي ما إنتَ درت بالك علي، وزي ما إنتَ عالجتني وطعميتني ودفيتني ولاعبتني، لا تقلق يا عمو عبود، أنا بحب صفوءة، وصفوءة بتحبني كثيراً.)

لم يصدّق عبود ما تسمعه أذناه، فلقد سمع القطة تتكلّم، تتكلم كثيراً وهو يسمع ويفهم ما تقوله جيداً وبوضوح.. القطة نانا تتكلم وصفاء التي أصبح عمرها شهر واحد لم تكن تتكلم، فهي طفلة، والأطفال لا يتكلمون قبل أن يصبح عمرهم أكثر من عام أو حتى عامين، هكذا قال عبود لنفسه.

فردّت عليه القطة، لا تستغرب يا عمو عبود أنا قطة من نوعٍ خاص، من ذلك النوع الذي له سبع أرواح، النوع الذي يفهم كلام البشر، ويتكلم مثل البشر، أنا يا عمو عبود سوف أكون مثل الملاك الحارس الذي سوف يحرس ويحمي صفوءة، فلا تقلق... أنا هنا.

قال عبود للقطة نانا، شو عرفك إني ذاهب في مهمة جهادية؟.. قالت: أنا أتكلم وأنا أيضاً استطيع قراءة الأفكار، مثلما تقرؤون أنتم الكتب.. دير بالك على حالك يا عمو عبود، دير بالك يا عمو عبود على حالك، ولا تقلق على حبيبتي صفوءة.

قال عبود للقطة: طيب.. طيب.. ووضع القطة من بين يديه بجوار صفاء، وقبّل صفاء ونانا، وارتدى ملابسه العسكرية، وأخذ معه سلاحه، وانطلق لأداء مهمته الجهادية... كان طوال الوقت رغم كثرة إطلاق الرصاص، يفكّر بالذي حدث معه، بما قالته له نانا، وبما لم تقله له صفاء، كان مشغولاً بالقتال تارةً، وكان مشغولاً بالتفكير تارةً أخرى بنانا.

أصيب عبود بعدة رصاصات، فأخذه أصدقاؤه إلى أحد المستشفيات القريبة، وبعد أن عالجه الأطباء، حاصرت قوات الاحتلال المستشفى، واعتقلت عبود... عبود أبو صفاء، عبود عم نانا القطة المشاكسة، القطة التي تتكلم وتفهم لغة البشر، وتفكير البشر.. كان عبود يفكر أثناء اعتقاله وتعذيبه من قبل قوات الاحتلال إلاّ بصفاء.. صفاء الجميلة، صفاء الصغيرة، صفاء العسل.. العسل الذي سوف تشتاق إليه بعد أن غاب عنها عبود أبوها المقاوم.

بعد اعتقال عبود، كانت صفاء تبكي طوال الوقت، تبكي وهي ترضع، تبكي وهي تستحم، تبكي على فراق ذلك الشيء الذي لم تكن تعلم ما هو، ولكنه كان كبيراً وقوياً وحنوناً، كان يطعمها العسل، ويلاعبها.. كان ذلك الشيء الذي يقص عليها القصص والحكايات، لكن صفاء لم تكن تدرك ما يدور حولها.. لم تكن تعلم أن ذلك الشيء الذي غاب عنها، وكانت تبكي لفراقه، هو عبود أبوها.

وكانت نانا المشاكسة تموء وتموء بصوتٍ حزين على فراق عمو عبود، استمرت صفاء ونانا على هذه الحال لأيام طويلة، أيام حزينة بلا فرح وبلا حب وبلا عسل... وفي أحد الأيام تذكرت نانا ما أوصاها به عبود، تذكرت أن عبود قال لها أن ترعى وتحمي صفاء... ومنذ ذلك الحين قرّرت نانا أن تكرّس حياتها في سبيل سعادة صفاء، صفاء الصغيرة، صفاء الجميلة.

ذهبت نانا إلى صفاء، وأيقظتها بعد أن هزت سريرها، وقالت لها: اسمعيني يا صفوءة وافهمي ما سوف أقوله لكي، أولاً أنا اسمي نانا، وأنتي اسمك صفاء، أنتي أبوك هو عبود، وأنا عمي هو عبود... عبود هو أبوك الذي كان يطعمك العسل، ويقص عليك أجمل القصص، عبود الذي يحبك أكثر من أي شيء، لقد غاب عبود لأنه مجبر على ذلك، لأن العدو قد اعتقله.. أعلم أنك تسمعيني ولا تستطيعين الرد علي، وأعلم أنك لا تفهمي معنى احتلال ولا معنى اعتقال... لكن هذا ليس مهماً الآن، الآن سوف أكون صديقتكِ التي سوف تحبك وترعاكِ.. مفهوم يا صفوءة.

صفاء كانت تفهم كل ما تقوله نانا القطة المشاكسة، ولكنها كانت ما تزال طفلة صغيرة، لا تستطيع الكلام، لكنها ومنذ ذلك اليوم توقفت عن البكاء.. كانت نانا تضع يدها في صحن العسل دون أن يراها أحد، وكانت تمشي على قديمها مسرعة إلى سرير صفاء، وكانت تضع العسل في فم صفاء، كانت تفعل ذلك دون أن يراها أحد، ودون أن يشعر بها أحد.

كانت كل يوم بعد أن ينام الجميع، تذهب إلى سرير صفاء، وتبدأ تتكلم وتتكلم، وتقص القصة تلو القصة على مسمع صفاء.. صفاء كانت تسمع وكانت تفهم كل ما تقوله لها نانا المشاكسة، واستمر هذا الحال لمدة عام كامل.. خلال هذا العام كانت صفاء تتعلم الحبو، وكانت نانا تعلمها، حتى أصبحت تجيد الحبو ثم وبسرعة شديدة تعلمت المشي، وأصبحت تمشي وتقفز وتركض عند إتمامها للعام الأول... كانت نانا سعيدة لأن صفاء كانت تكبر وتكبر.

بعد ذلك، كبرت صفاء ليصبح عمرها عامين، وهو العمر الذي يبدأ فيه الصغار بالتكلم ونطق أول حروفٍ لهم... صفاء لم تكن أول كلماتها: ماما أو بابا، وإنما كانت: نانا نانا.. فجاءت نانا مسرعةً عندما سمعتها تنادي عليها، وقفزت على صفاء وبدأتا تلعبان وتلعبان، وصفاء تقول نانا، وكانت نانا ترد عليها نعم يا صفوءة... نانا أنا اسمي نانا، لم يكن أحد يفهم ما تقوله القطة المشاكسة سوى صفاء.

بعد ذلك، بدأت صفاء بنطق عدة كلمات جديدة، مثل كلمة نانا المشاكسة، نانا حبيبتي.. أصبحت صفاء هي من تضع الحليب كل يوم لنانا، واصبحت صفاء هي من تنطق نانا، وتحممها بالماء الدافئ، وتنشفها، وترعاها، وتتكلم معها، وتهتم بها كثيراً.

في هذه الأثناء، كانت نانا أيضاً تهتم بالجميلة صفاء، فلقد قتلت نانا أفعى صغيرة كانت تحاول لدغ صفاء، ولقد كانت دائماً تبعد صفاء عن فرن الغاز كي لا يسكب عليها الطعام الساخن.. كانت نانا تحرس صفاء من كل خطر، فعندما كان الأطفال يضايقون صفاء، كانت نانا تقفز عليهم وتبدأ بخمشهم لكي يبتعدوا عنها... كانت نانا تشعر بالخطر قبل وقوعه، فتنبّه صفاء وتحذرها، فتنجو من الأخطار.

بعد أن أصبح عمر صفاء ثلاثة أعوام، بدأت أسئلتها تكبر وتكثر عن أبيها عبود، كانت صفاء تسأل نانا كل يوم عن عبود، وكانت نانا تقول لها أن عبود في الأسر، فهو معتقل في سجنٍ بعيدٍ في الصحراء القاحلة.

لكن صفاء كانت تسأل وتسأل، ولا تمل، ولكن نانا لم تكن تملك إجابات على أسئلة صفاء.. في أحد الأيام، وعندما أصبح عمر صفاء أربعة أعوام، قرّرت والدتها أن تدخلها إلى الروضة، فلبست صفاء مريولها، وأخذت حقيبتها الصغيرة التي وضعت بداخلها أوراقاً وأقلام الرسم وبعض الفطائر والعصير... وذهبت مع والدتها إلى الروضة.

كانت نانا في ذلك الوقت تلعب وتلهو في الحديقة، فلم تنتبه لخروج صفاء للروضة، وبدأت تبحث عنها في كل مكان، في البيت والحديقة، ولكنها لم تجد صفاء، فظلت طوال النهار حزينة، فلقد ظنت أن صفاء رحلت إلى مكان آخر، فهذه هي المرة الأولى التي تفتقدها منذ أربعة أعوام، لكن لم يطل حزن نانا على غياب صفاء، فلقد عادت صفاء من الروضة.. عادت غاضبة على نانا لأنها لم تلحق بها إلى هناك.. إلى الروضة، فقالت لها نانا: أنا لم أكن أعلم أنك ذهبتي للروضة، فأنتي لم تقولي لي أنك ذاهبة، لو علمت لذهبت معك.. ضحكت صفاء وضحكت نانا.

ومنذ ذلك اليوم، كانت نانا تلحق صفاء إلى الروضة، وتدخل إلى داخل الصف بهدوء وبدون أن يراها أحد، وكانت عندما تخرج المعلمة لخارج الصف، تلعب مع صفاء ومع أصدقائها وصديقاتها في الروضة، ظلت صفاء ونانا على هذا الحال حتى أصبح عمر صفاء ستة أعوام وأكثر بقليل، وهو موعد دخول المدرسة.

رغم ذلك، كانت صفاء تعاود كل عدة أيام سؤال نانا عن أبيها عبود، فلقد كانت صفاء تحب سماع القصص التي كانت تحفظها نانا عن عبود، عندما كان يقصها على صفاء وهي ما تزال في المهد.

كان عبود يرسل من السجن رسالة إلى صفاء كل شهر، وكانت تلك الرسالة ليس بها سوى بعض الكلمات، مثل:
صفاء حبيبة بابا
صفاء العسولة... نانا حبيبة عمو
ومثل:
أنا أحب صفاء
أنا أحب نانا.
وكان يطبع قبلةً على ورقة الرسالة تحت اسم صفاء، وقبلةً تحت اسم نانا...
لكن صفاء كانت رغم صغر سنها، ورغم أنها كانت الكلمات بصعوبة، كانت تريد المزيد المزيد من الكلمات من والدها الأسير عبود.

عندما دخلت صفاء المدرسة، لبست مريولاً جديداً، لونه أزرق، واشترت حقيبة كبيرة لونها وردي، وكانت تضع نانا بداخل الحقيبة كل يوم قبل أن تذهب إلى المدرسة، وكانت صفاء تخرج نانا من الحقيبة عندما يأتي وقت استراحة الغداء، وكانت تطعم صفاء نانا الأكل الذي تحضره معها من البيت، وتشربها الحليب الذي كانت تشتريه من دكان المدرسة.

في أحد الأيام، نسيت صفاء أحد كتبها في البيت، وغضبت منها المعلمة، وقامت المعلمة بضرب صفاء بالعصا على يدها، ضربةً قوية، ضربةً مؤلمة... فبكت صفاء، فقفزت القطة نانا المشاكسة من داخل حقيقة صفاء على وجه المعلمة الشريرة، وبدأت نانا تخرمش وتعض المعلمة حتى جعلتها تصيح من الألم وتبكي من الوجع، وعند ذلك قفزت نانا من الشباك إلى حديقة المدرسة، وهي تضحك وتموء... مياو مياو مياو.

ضحكت صفاء، ولم تعد تبكي، وبعد انتهاء اليوم الدراسي، التقت صفاء بالقطة نانا أمام باب المدرسة، وبدأتا تضحكان على تلك المعلمة ذات القلب القاسي.

منذ ذلك اليوم، أصبحت كل المعلمات في المدرسة لا يضربن لا صفاء ولا غيرها خوفاً من القطة، فلقد كانت نانا تتجوّل بين الصفوف الدراسية وتراقب المعلمات، وكانت إذا رأت معلمة تضرب طالبة، كانت تتنظرها خارج المدرسة وتهجم عليها، وتبدأ بخرمشتها وعضها مثلما فعلت بمعلمة صفاء.

ومنذ ذلك الحين، لم يعد الضرب موجود في المدرسة أبداً، فصفاء هي التي طلبت من نانا أن تحمي الطالبات من أي معلمة قاسية القلب... فاستجابت نانا لطلب صفاء بكل سرور، فهي قطة قوية وذكية، قطة ذات سبع أرواح، قطة تتلكم وتقرأ الأفكار، طوال تلك السنين كانت نانا لا تتلكم مع أحد سوى صفاء، وكانت قد طلبت من صفاء أن لا تخبر أحداً أنها قطة تتكلم، وهكذا حافظت صفاء على السر، وحافظت نانا على وعدها لعبود بأن تحمي صفاء وترعاها.. وصفاء أيضاً كانت تحب نانا كثيراً، وترعاها، فلقد كان الحب بين نانا المشاكسة وصفاء الجميلة يكبر يوماً بعد يوم، حتى جاء اليوم الموعود.

في ذلك اليوم، كانت صفاء في المدرسة بعد أن أصبحت في الصف الثاني الابتدائي، وكانت نانا تتجول بجوار البلدية، عندما سمعت رئيس البلدية يقول أن هناك اتفاقاً سوف يحصل بين الحكومة وبين المقاومة من أجل تبادل الأسرى، وأن هذا الاتفاق سوف يكون قريباً جداً.. قفزت نانا مسرعة إلى المدرسة ووصلت إلى شباك فصل صفاء، وأشار لها أنا تخرج من الفصل فوراً، فخرجت صفاء لترى ماذا تريد نانا، فقالت لها نانا ما سمعته من رئيس البلدية، ففرحت صفاء كثيراً، وطلبت من نانا أن تذهب إلى البلدية لجمع الأخبار، وقالت لها أنا سوف أذهب الآن إلى فصلي، وسوف نلتقي بنهاية اليوم الدراسي.

وبدأت نانا تجمع الأخبار، تارة من البلدية، وتارةً من التلفاز، حتى أنها كانت تذهب إلى القهوة لتستمع إلى الناس هناك، ولمعرفة ماذا سوف يحدث مع عمها عبود.. فلقد كان كل الناس بالقهوة يقولون أن عبود سوف يخرج، وأنه سوف يكون هناك حفل كبير في رام الله، وفي كل مكان بمناسبة خروج عبود وأصدقائه من الأسر.

وكانت نانا كلما سمعت خبراً، أسرعت إلى صفاء لكي تخبرها يوماً بعد يوم، وكان الأمل يكبر يوماً بعد يوم أيضاً، مع تلك الأخبار المفرحة..

أصبحت صفاء الصغيرة تتابع الأخبار باهتمام كبير، وحتى أنها كانت تأخذ الراديو معها للمدرسة لتستمع إلى آخر الأنباء في استراحة الغداء.. صفاء كانت سعيدة ولكنها قلقة، فقد كان الاحتلال لا يريد إطلاق سراح عبود ورفاقه لأنهم مقاومون أقوياء، ولأنهم كرسوا كل حياتهم في سبيل تحرير فلسطين... وكانت صفاء تقلق كثيراً عندما تستمع إلى مثل تلك الأخبار.

وقبل العيد بأسبوع، اشترت أم صفاء مثل كل عام أجمل ملابس العيد لصفاء، وعندما حضر العيد، لم تلبس صفاء ملابسها الجديدة الجميلة، بل لبست ملابساً قديمةً، ملابس العيد الماضي، وعندما سألتها نانا لماذا يا صفاء لم تلبس ملابسك الجديدة؟، قالت لها صفاء: لأنني أريد أن ألبس الملابس الجديدة عندما يخرج والدي من الأسر.. أريده أن يراني في أجمل الملابس وأحلاها.. وكانت صفاء في ذلك العيد لا تلعب مع أحد، بل كانت إما تتابع نشرات الأخبار، وإما تستمع للأخبار التي كانت تحضرها لها قطتها المشاكسة نانا.

كانت صفاء تنظر إلى صورة والدها المعلّقة على الحائط، وتقول له أسرع بالعودة يا والدي، أسرع فأنا مشتاقة لك... أنا يا والدي أشطر بنت في المدرسة، فكل علاماتي ممتازة، أنا يا والدي أحب نانا وماما وأحبك.. ارجع فلقد اشتقت إليك كثيراً يا والدي الحبيب.

بعد العيد الصغير، أتى العيد الكبير، ذلك العيد الذي يلي موسم الحج.. رفضت صفاء أن تشتري ملابساً جديدة، ورفضت أن تذهب مع والدتها إلى السوق، وقالت لها: لا أريد أن أعيّد ما لم يعد لي والدي، ولا أريد لبس الملابس الجديدة إلا عندما يعود والدي.. وأصبحت عندما تعطيها أمها الحلويات تخبئها في الدرج لكي تعطيها لوالدها عبود عندما يعود، بعد أن يخرج من الأسر.

أصبح كلّ شيء عند صفاء ونانا مرتبط بعودة عبود، وكانتا لا تتحدثان بشيء سوى عن عبود، وكان الأمل يكبر، والاستعدادات التي أعدتها نانا وصفاء لاستقبال عبود تكبر، فقد كانت صفاء ونانا تجلسان بعد المدرسة على الشرفة المطلة على الشارع، على أمل أن يريا عبود وهو عائد.. كانتا صغيرتان، ولكن كان أملهما كبيراً.. كبيراً جداً.

في أحد أيام الشتاء، وأثناء نزول الثلج الأبيض، حانت ذكرى ميلاد صفاء، وأصبح عمرها تسعة أعوام كاملة. رفضت صفاء أن تحتفل بذكرى ميلادها، وقالت لأمها وصديقاتها: لن أحتفل إلا مع والدي عبود، ولن أطفئ الشمع إلى مع والدي عبود، ولن أبتسم إلا لوالدي عبود.

أصبحت صفاء حزينةً، فلقد طال وقت الانتظار، وجاء العيد بعد العيد، وأصبحت لا تحب الاستماع إلى الأخبار، بل أصبحت لا تصدّق الأخبار.. فلقد كانوا في الأخبار يقولون أن عبود سوف يعود اليوم، ولكنه لم يكن يعود.

وفي أحد الأيام، بدأ أهل المدينة يزيّنون المدينة.. يزيّنون رام الله وغزة وكل المدن الفلسطينية، فلقد وصلت الأخبار أن الصفقة لتبادل الأسرى سوف تحصل غداً.

قالت نانا لصفاء: سوف يخرج عبود.. عبود سوف يخرج غداً، فقفزت صفاء عن الكرسي، وخرجت إلى خارج الفصل، وتركت حقيبتها وكتبها في الفصل، لتذهب إلى البيت مسرعةً، كي تتأكد من خبر خروج أبيها عبود.

كانت أمها هناك، قبلتها وقالت لها: غداً سوف يخرج أبوكِ عبود، والأخبار أيضاً قالت غداً سوف يخرج عبود، فالقرية والمدينة التي تزيّنت كانت تقول عبر زيتها وصور عبود التي تنتشر في كل أرجاء المدينة، أن عبود سوف يخرج غداً... في تلك الليلة لم تنم صفاء ولا نانا، فقد بقيتا طوال الليل تتحدثان عن عبود، وعن ما سوف تفعلانه عندما يريا عبود.

وفي الصباح الباكر، وقبل أن يصيح الديك، لبست صفاء ملابسها الجميلة، ووضعت في جيوبها الحلويات التي كانت تحتفظ بها لكي تعطيها لوالدها عند عودته، واستعدت نانا لتذهب مع صفاء، وجلست نانا بداخل حقيبة صفاء كي لا تنساها صفاء عندما تذهب إلى ساحة الاحتفال.

بعد طلوع الشمس، وبعد صلاة الظهر، بدأت الاحتفالات استعداداً لوصول عبود ورفاقه الأسرى، وبدأت الحافلات التي تنقل الأسرى تصل إلى الساحة، وصلوا كلهم، كلهم إلا عبود.. عبود لم يصل فلقد كذب الاحتلال ونكث بوعده، ولم يطلق سراح عبود.

تحوّلت فرحة صفاء إلى حزن... حزن شديد.. ألقت الحلويات على الأرض حزناً على والدها، وذهبت إلى البيت وهي حزينة.. حزينة تبكي على عدم عودة والدها عبود، تبكي وتمشي حتى وصلت إلى المنزل، دخلت غرفتها وأغلقت على نفسها، أمسكت بصورة والدها بين يديها وكانت تقول للصورة: لماذا لم تخرج، لماذا لم تتحرر مثلما تحرر الآخرون؟.. كانت دموع صفاء لا تتوقف، أصبحت عيناها حمراوان من كثرة البكاء.

فجأة خرجت نانا من داخل حقيبة صفاء، وذهبت نحوها وقالت لها: لا تقلقي يا صفوءة، سوف يعود عبود إن شاء الله في القريب العاجل، لا تقلقي.. أمسكت صفاء بالقطة نانا وأخرجتها من الغرفة وقالت لها: اسمعي يا نانا أنتي ومنذ تسعة سنوات تقولين لي أن عبود أبي سوف يعود، ولكنه لم يعد، وأنا لا أريد أن أراكِ بعد اليوم أبداً أبداً إن لم يعد أبي... اذهبي من هنا، اذهبي بعيداً، فلا أريد أن اسمع صوتك ولا أرى شكلكِ حتى أرى شكل والدي وأسمع صوته.. اذهبي بعيداً...

بقيت نانا تقف خارج باب غرفة صفاء، تقف حزينة على صفاء وحزينة على عدم عودة عبود، وبقيت صفاء بداخل الغرفة تبكي وحيدة طوال اليوم، وعند المساء نامت صفاء من شدة التعب وكثرة البكاء، نامت وحيدة بلا نانا التي كانت تنام عندها منذ أن غاب أبوها منذ أن اعتقل... نامت بعد أن أصبحت مخدتها ملئى بالدموع.

في تلك الليلة، لم ترَ صفاء أي حلم، لم تكن تبتسم كما كانت تفعل دائماً وهي نائمة، بل كانت دموعها تنهمر من عينيها وهي نائمة، تنهمر بغزارة، ولكن بصمت... كانت صفاء قد فقدت في تلك الليلة كل معنىً للبسمة، وفقدت أملها بعودة والدها إليها، وفقدت صديقتها نانا.. نانا التي كانت تحبها وترعاها.

وفي الصباح، فتحت صفاء الباب، فوجدت نانا نائمة بجواره، فأيقظتها وقالت لها: لماذا أنتي هنا، ألم أقل لكي اذهبي بعيداً، وألم أقل لكي أنني لا اريد أن أراكي بعد اليوم ما دمت لا أرى والدي عبود... اذهبي فنن لم نعد أصدقاء.. اذهبي بعيداً ولا تعودي إن لم تحضري والدي معك... ألستي قطةً فريدةً من نوعك، ألستي قطة تتكلم، وتفهم ما يقوله البشر، اذهبي هناك إلى الصحراء حيث يوجد سجن أبي، وعودي به، وإياكي أن تعودي بدونه.

بقيت صفاء تكرر كلامها مرة بعد مرة، وكانت كل مرة تصيح بصوتٍ أعلى وأعلى، حتى أيقظت كل من في البيت، والدتها وجدتها، كلهم استيقظوا على بكاء صفاء وعلى صياحها على قطتها نانا.

أدركت الأم مدى حزن ابنتها، فأخذتها بين ذراعيها وقبّلتها، وقالت لها: اعلمي يا ابنتي أن والدك سوف يعود في القريب العاجل، فلا تقلقي وتوكّلي على الله، فوالدك عبود قاتل في سبيل الله، والله لا ينسى من أخلص النية له.

بكت صفاء قليلاً في حضن أمها، ولكنها قالت لنفسها: سوف أكون مع الله كما كنت دائماً، وكما كان والدي من قبلي.. علت البسمة وجه صفاء مرة أخرى.. قفزت من بين ذراعي أمها إلى المطبخ لتحضر الحليب لكي تطعم قطتها نانا، أحضرت الحليب وسكبته في داخل الصحن ونادت على نانا.... لم تحضر نانا، رغم أن صفاء كانت تنادي كل مرة بصوتٍ أعلى وأعلى وأعلى... لكن نانا القطة المشاكسة كانت قد قرّرت مغادرة البيت، وبدء رحلتها وحيدة إلى عبود، حيث هو موجود في داخل السجن.

أرادت نانا أن تبلغ عبود وتقول له أن صفاء لم تعد تريدني في حياتها، أو في بيتها، كانت نانا سير حزينة ووحيدة، بين السيارات، تسير في شوارع بعيدة لم تكن قد سارت فيها من قبل.. بدأت رحلتها من رام الله إلى القدس، حيث هناك كانت أول محطة لها، سمعت الأذان والتكبير من مآذن القدس، هناك وجدت شيخاً عجوزاً يعيش مع زوجته العجوز، ذهبت إليهما وكانت تدور حولهما بهدوء وبدون إزعاج، فأعطتها المرأة الحليب لتشرب، وقبلتها وقالت المرأة العجوز: أنا يا قطتي أعلم أين أنتي ذاهبة، أنتي ذاهبة إلى السجن البعيد عند ابني أحمد.. اذهبي وسلمي لي عليه كثيراً.. إن ابني أحمد هو أسير في سجون الاحتلال، لأنه طبيب يعالج المقاومين، ولهذا السبب سُجن... اذهبي إليه وبلغيه سلامي واشتياقي.

ذُهلت نانا من كلام المرأة العجوز، وقالت لنفسها: كيف عرفت هذه المرأة أنني ذاهبة إلى السجن، وكيف كلّمتني وطلبت مني أن أسلّم لها على ابنها الطبيب أحمد؟.. ولكن نانا قالت لنفسها: إن العجوز أم الطبيب أحمد ربما كانت تهذي.. أو كانت تقول ذلك لحزنها على ابنها أحمد الذي لم يخرج من الأسر عندما خرج الأسرى، وبقي هو وبعض من أصدقائه مثل عبود وغيره من المقاومين.

شربت نانا الحليب، وانطلقت من بيت أم أحمد في القدس إلى صحراء النقب، حيث يوجد هناك سجن كبير بداخله الأسرى والسجناء.

كانت خلال سيرها في الطريق تقفز بين السيارات، كانت تبتعد عن الأطفال المشاغبين، لكنها كانت تشعر بالبرد الشديد، فلقد كانت الأمطار تتساقط عليها طوال رحلتها الطويلة، وبدأت تشعر بالجوع وبالتعب، لكنها كانت مستمرة في سيرها رغم كل هذه المصاعب.

وبعد عدة أيام، وصلت نانا إلى صحراء النقب، وبدأت تبحث عن السجن حتى وجدته، ولكنها وجدت أن لهذا السجن أسوار طويلة، وعالية جداً، لم تستطع القفز عليها للدخول، وكانت الأبواب مغلقة، فبقيت تنتظر طوال الليل.

وفي ساعات الصباح، فتحت أبواب السجن لإخراج القمامة وإدخال الطعام، فأسرعت إلى الدخول دون أن يراها أحد.. كان السجن كبيراً، وبداخله الكثير من الأسرى، فبدأت تبحث دون كلل أو تعب، كانت كل يوم تبحث في أحد الأقسام، فأقسام السجن كثيرة جداً, كانت تنام وحيدة تحت المطر حتى مرضت، ولم تعد قادرةً على البحث، بل لم تكن نانا قادرةً على الحركة، فلقد كانت مريضةً وجائعة.

أغمضت نانا عينيها وقالت لنفسها: إنها سوف تموت.. سوف تموت دون أن تقابل عبود وأحمد.. أغمضت عينيها ونامت.. وفي صباح اليوم التالي قدّر الله عزّ وجلّ أن يجد عبود أبو صفاء القطة نانا، فحملها ولم يكن يعرف أنها نانا الصغيرة التي كان قد أنقذها قبل أعوامٍ طويلة، لأن نانا قد أصبحت كبيرة وقد تغير لونها قليلاً.

حمل عبود القطة المريضة إلى صديقه الأسير الطبيب أحمد، فقال له أحمد: ألم تتعب يا عبود من حمل الحيوانات إلي كي أداويها، فأنت يا عبود منذ أن عرفتك وأنت لا يمر أسبوع عليك حتى تأتيني حاملاً عصفوراً كسر جناحه، أو حمامةً مريضة، أو قطة صغيرة مثل تلك القطة التي أحضرتها إلي قبل أن نسجن... ضحك عبود وأعطى القطة إلى أحمد، فبدأ أحمد بعلاج القطة، حتى أصبحت قوية، كما كانت.. وكان عبود يحضر لها الحليب ويدفئها ويضعها بمكان دافئ بجوار سريره.

عندما قويت نانا، تذكرت أن عبود كان يكلمها وهي مريضة، ويقول لها لا تحزني يا قطتي، غداً سوف تشفين بإذن الله.. كان يكلمها كثيراً، حتى أنه قال لها بعض القصص التي كان يقولها لابنته صفاء.

عرفت القطة نانا أنها بين يدي عبود وصديقه الطبيب أحمد.. فقررت أن تكلّمه، وبعد أن نام الجميع ونام عبود أيضاً، قفزت نانا المشاكسة إلى سرير عبود وأيقظته، وقالت له: أنا نانا.. انا نانها استيقظ، ظن عبود أنه يحلم، ولكن نانا لم تيأس وظلت تهزه حتى استيقظ، فقالت له: أنا نانا صديقة صفاء، لم يصدّق عبود ما كان يسمعه، واعتقد أنه ما يزال نائماً، فهو ما يزال لا يصدّق ما حدث معه قبل سنوات، عندما تحدثت معه القطة الصغيرة قبل أن يؤسر ويؤخذ إلى السجن.

لكن نانا المشاكسة الذكية، قالت لعبود: أنا نانا صديقة صفاء، ألا تتذكرني، فأنا التي قمت أنت بإنقاذها من وسط الطريق عندما كنت صغيرة ومريضة، وها أنت اليوم تنقذني مرة أخرى، ألا تتذكرني؟ أنا القطة التي تملك سبع أرواح، أنا نانا التي قلت لها ديري بالك على ابنتي صفاء، ألا تتذكرني؟.

فرك عبود عينيه، ورفع القطة نانا بين يديه، لم يكن يصدّق ما يحدث معه، ولكن شيئاً فشيء بدأ يصدّق أن هذا ليس حلماً، وأنه حقيقة، نعم هذه نانا قطتي الصغيرة التي كبرت، وهي تتكلّم معي. وبدأ عبود يسأل نانا عن ابنته صفاء، ويسألها عن أحوالها، وكانت نانا تجيبه عن كل أسئلته، وكانت تحكي لعبود عن مغامراتها مع صفاء، وظلت طوال الليل تقص على عبود قصتها مع صفاء الجميلة، واستمر عبود ونانا على هذه الحال عدة أيام بعد أن ينام الجميع، تأتي نانا إلى عبود وتتحدث معه.

تذكرت نانا كلام أم أحمد الطبيب، فطلبت من عبود أن يخبر أحمد أن أمه تسلّم عليه، وهي مشتاقة له، وأنها كل يوم تصلّي وتدعي له في المسجد الأقصى في القدس، لكي يفكّ الله أسره.. وفي صباح اليوم التالي، قال عبود لأحمد أن أمه تسلّم عليه، وقال له ما قالته نانا عن أم الطبيب أحمد.. سأل أحمد عبود: ما أدراك بكل هذا الكلام عن أمي وعن أبي؟.. فردّ عبود قائلاً: إنه لا يستطيع إخباره كيف علم بسلام أم أحمد، وكيف علم عن أبيه الشيخ الكبير.

وفي اليوم التالي، قالت نانا لعبود أنها حضرت إلى السجن لأن صفاء خاصمتها، وغضبت منها، وأن صفاء قالت لها لا أريد أن أراكِ إن لم تحضري لي والدي عبود، وأن صفاء كانت تبكي كثيراً لأن عبود لم يخرج من السجن، وأن صفاء لم تلبس ملابس العيد، لأنها كانت تنتظر عودته، لكنه لم يعد إلى رام الله، لم يعد إلى صفاء، لم يعد إلى طفلته التي تركها وهي ما تزال في شهرها الأول.

في تلك الأثناء، وبينما كان عبود ونانا يتكلمان، أذّن المؤذن، فقام عبود ليتوضأ ويصلي صلاة الفجر.. فصلى ودعا الله أن يفكّ أسره، وأن يعيده إلى ابنته، مثلما كان يدعو منذ اليوم الأول لأسره، فعبود كان مؤمناً أن الله سوف يخرجه من السجن.. ورغم مرور السنوات، لم يقنط عبود من رحمة الله، ولم ييأس، على العكس كان دائماً يقول سوف أكون مع الله ولا أبالي.

وبعد صلاة الفجر، سمع عبود بعض أصدقائه يهتفون ويكبّرون: الله أكبر.. الله أكبر.. كانوا يصيحون بأعلى صوت.. الله أكبر الله أكبر... فذهب عبود إليهم وسألهم ما الذي حدث؟ فقالوا له أن أبطال المقاومة قد أسروا عدداً من جنود الاحتلال قبل قليل.. ففرح عبود كما فرح رفاقه.

وبعد عدة أيام، وعلى عجل، حدثت صفقة تبادل أسرى، فرضت خلالها المقاومة التي كانت تأسر جنود العدو شروطها على العدو، واضطر العدو إلى الرضوخ لتلك الشروط، وعاد عبود وصديقه أحمد وكل أصدقائهم المقاومين، عادوا إلى بيوتهم.. وحمل عبود معه نانا، وخبّأها بداخل سترته، وانطلق إلى الحافلة التي حملته إلى رام الله، حيث كان هناك حفل كبير أعدّ للأسرى الأبطال.

كانت صفاء هناك تنتظر وهي تلبس أحلى الملابس، وهي ترفع علم فلسطين عالياً، فقفزت نانا من بين ذراعي عبود لتبحث عن صفاء، فوجدتها ودلتها على مكان وجود أبوها عبود على المنصة المخصصة للأسرى، فحضرت صفاء وقطتها إلى المنصة لتعانق أباها وتقبله، وظلت صفاء تقبّل أباها وتعانقه طوال اليوم.
وعندما عادا إلى البيت، كانت القطة نانا ليست معهم، بل ذهبت إلى مكان آخر تبحث عن طفلة أخرى غاب عنها أبوها في الأسر... وهكذا عاشت نانا مغامرة جديدة مع طفلة جديدة، وعاشت صفاء مع أبيها عبود بسعادة كبيرة.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 11 "

سقوط الأقنعة (اقتراح لتغيير العنوان الى (بتول اية ابنةٍ انتِ!!)

استيقظت كعادتها مبكراً، لتشعل الحطب في المدفأة، وتعد طعام الإفطار، فكان عليها أن تنطلق من سريرها الدافئ إلى باحة المنزل عبر وابل من الأمطار لتصل إلى مكان تخزين الحطب، فلقد نسيت أن تعده مسبقاً كما كانت تفعل دائماً... أشعلت المدفأة، بعد أن كانت قد صلّت صلاة الفجر، والبرد القارص يطاردها، ولولا عمق إيمانها لما صمدت، فهمّها كبير وحملها ثقيل.

خبزت بعض أرغفة من الخبز القروي الجميل، وأعدت الإفطار، ولم تنس عصر عدّة حبات من البرتقال لتصنع كأساً من العصير الطازج.. قشّرت البيض وتركته دافئاً على الطاولة، وضعت قطعة من القماش المخملي على ذلك الكرسي كي لا يصاب من يجلس عليه ليتناول إفطاره ويشرب عصيره بالبرد، وزادت من الحطب في الموقدة، ووضعت بجوارها الشال الفضي والسترة الجلدية المبطنة بالصوف الدافئ، وضعتهم أمام المدفأة، وذهبت لتوقظ ابنتها الوحيدة "بتول".

بتول تلك المراهقة الناكرة للجميل التي وصل حالها بالكبر والتعالي على الناس أعلى درجاته، كانت ذات جمال عادي، لكنها كانت ذات تعجرف قاسٍ وغبي، بل تعجرف أعمى لا يرى ولا يسمع إلا صوت الأنا.. الأنا التي باتت أكبر من الكل.

صباح الخير يا ابنتي، استيقظي كي تذهبي إلى جامعتكِ، فلقد حان الموعد.. هذا ما قالته والدتها، لم تقل أكثر ولم تزد... لكن تلك المتعجرفة بتول صاحت ولعنت وشتمت، وقالت: (لو أن الواحد ميت مش كان أحسنلوا من هاي العيشة اللي بتنقص العمر.)

قالتها بوقاحة ونكران لجميل أمها التي حرمت نفسها من كل شيء، حرمت نفسها من الزواج بعد موت زوجها وهي ما تزال في مقتبل العمر، فلقد مات زوجها وهي ما تزال ابنة التسعة عشر عاماً، لا أكثر، أي في مثل عمر ابنتها المتعجرفة بتول، التي حرمت نفسها من التمتع بالحياة، وكرّست حياتها للعمل الجاد، لكي توفر لها مستوىً جيد من العيشة الرغدة، بل أن بتول الجاحدة كانت تعيش في مستوى معيشة عالٍ، وعالٍ جداً إذا ما قورنت بمستوى أهل القرية.

فلقد ترك والدها مطحنة للقمح ومعصرة للزيتون قبل وفاته، وكان قد سجّل ملكية أملاكه كافة باسم زوجته، فعل ذلك وهو على فراش الموت، حتى لا ينازع أحد زوجته وابنته اليتيمة ماله، ولقد فعلت أم بتول كل ما تستطيع كي تجعل المطحنة أكبر وأفضل، ولكي تحوّل المعصرة الواحدة إلى عدة معاصر، وليصبح لديها من العاملين والعاملات أكثر من عشر أضعاف ما كان قد تركه لها زوجها، فلقد استصلحت الأرض المهجورة إلى ورثتها من والدها قبل موته، فلقد كان جد بتول لامها رجلاً عادلاً أورث ماله قبل موته، ووزعه على أبنائه وبناته حسب الشريعة.

فجمعت أم بتول ما ورثته من والدها، وما ورثته من زوجها، وصنعت بها المعجزات، ورغم ثرائها ما زالت تجمع الحطب لتشعل الموقدة، وتعجن الطحين لتخبز الخبز، كما كانت تفعل منذ تسعة عشر عاماً.. اليوم يبلغ عمرها ثمانية وثلاثون عاماً، ويبلغ عمر ابنها الجاحدة تسعة عشر عاماً، كانت الأم توقد أصابعها شمعاً لكي تزين حياة ابنتها، وكانت الابنة لا تكف عن التذمر والشكوى من أنها تريد أن تخرج إلى هناك، إلى المدينة لتحيا بعيداً عن القرية بعيداً عن عفن الماضي كما كانت تقول.

استيقظت الجاحدة وهي ما تزال تتأفف، غسلت وجهها، ورغم أنه لم يكن بالوجه البشع إلا كشرتها، كانت تحوّله إلى وجه بشع وجه غبي وقلب جاحد.. ارتدت ملابسها وحملت حقيبتها، لم تتناول الإفطار، ولم تقف أمام المدفئة بل داست بقدمها على الشال وعلى المعطف اللذان كانا بجوار المدفئة، داستهما ليس لأنها ليسا جميلين، فهي التي اشترتهما، إنما داستهما لأن أمها قد أحضرتهما لها، كما أحضرت العصير والبيض الذي تحبه.

طرقت الباب خلفها وبقيت تنتظر أمام البيت حتى جاء سائق التاكسي الذي ينقلها إلى الجامعة كل يوم منذ دخولها إلى الجامعة، لقد أصبحت أكثر قسوة على أمها، ومنذ دخولها إلى الجامعة أصبحت الأم أكثر تعلقاً بابنتها، فكل يوم تصنع ما تصنع من إفطار وعصير ومن إشعال لحطب المدفئة، وكل يوم تفعل بتول ما تفعله، أي لا تتناول الإفطار عناداً وتعجرفاً، وكانت ما أن تصل إلى الجامعة حتى تشتري فطيرة من البيض الذي تحب، ولكنه لم يكن كما تحب، فهو بارد مالح ذو رائحة، ورغم ذلك تكابر تلك المستكبرة لا لشيء، إلاّ لأنها غبية.

غبية... كانت تقول تلك الكلمة لنفسها عندما تتذكر أنها رأت والدتها وهي تصنع لها شطائرها التي هي في كيس موضوع على المائدة، كانت تجلس في مطعم الجامعة على كرسي بلاستيكي

في قاعة كبيرة باردة جافة، تاركةً ذلك الكرسي الذي وضعت عليه أمها قطعة من القماش لكي لا تشعر بالبرد، تفرك يداها من شدة البرد، رغم أنها رأت المدفأة وقد احمرّ حطبها.

غبية.. كانت تقول تلك الكلمة لنفسها ولكنها كانت تكابر بعناد المتكبر المتعالي على كل شيء ومن أجل لا شيء.

أما الأم، فأخذت الفطائر لتعطيها لإحدى العاملات عندها في استراحة الإفطار، فالأم لم تكن تحب البيض أصلاً، وأطفئت المدفأة لأنها كانت تنطلق بعد انطلاق ابنتها إلى الجامعة، كانت هي الأخرى تنطلق إلى العمل، فالطعام لم يكن للأم ولا المدفئة، أما العصير فكانت تشربه رغم عدم محبتها له.

تباشر الأم أعمالها طوال اليوم، وتعود قبل موعد عودة ابنتها بساعة أو ساعتين، لكي تعيد الكرة مرة أخرى، فتشعل المدفئة وتدفئ ملابس النوم الخاصة ببتول، وتعد طعام الغداء الذي تحبه بتول، والكثير الكثير من تلك الأشياء الصغيرة التي لم تكن تهتم لها بتول المتعجرفة، مثل وضع الجوارب الصوفية على حافة السرير لكي ترتديها فلا تبرد قدما بتول... آهٍ منك يا بتول.. الابنة الغبية المتعجرفة.

تعود المتعجرفة، تعود وكأنها عادة من معركة تتأفف كما كانت تتأفف بالصباح، تعود وقد تناولت طعام الغداء في ذلك المطعم البارد، وهي تعلم أن أمها كانت قد أعدت لها ألذ المأكولات.. متعجرفة تلقي بالجوارب من على حافة السرير إلى الأرض، وهي تقول: أوفٍ.. أوف.

أما الأم، فهي صامتة جامدة، لم تكن الأم ضعيفةً أبداً، فهي في عملها في المعصرة والمطحنة والأرض، قوية حازمة صارمة، وكما يقولون وكأنها بألف رجلٍ ورجل... لكن الأم كانت تقول لنفسها غداً سوف تكبر بتول، وتعي وتعقل. ولكن المتعجرفة لم تكن تعي ذلك بل كانت تتمادى كل يوم عن اليوم الذي سبقه.

ولم يكن هذا التمادي والعجرفة مقتصرة على الأم لوحدها، فلقد كان على الجميع، في الجامعة وقبلها المدرسة وقبلها الحضانة.. من أين لها هذا الكِبر؟، من أين ورثته؟، فأبوها كان صالحاً محباً لزوجته، وأمها أقرب ما تكون إلى الملاك.. الملاك الذي لا يبتغي سوى إرضاء بتول.

آهٍ منك يا بتول.. آهٍ منك أيتها المتعجرفة.. تعجرفت وتكبرت بأنانية، وأنا تلك الأنا السيئة التي تصور لصاحباها أنه فوق الناس.. كل الناس.

رغم انتقال بتول إلى عامها الثاني الجامعي، ورغم أنها لم تتغير وعلى العكس ازدادت سوءً وتكبراً، إلا أن تلك لم تكن المشكلة، فالمشكلة كانت أن والدتها هي الأخرى لم تتغير قيد أنملة، ولم تتبدل عاداتها رغم ازدياد جحود بتول... آهٍ منك أيتها المتعجرفة.. وألف آه.

رنّ جرس الهاتف في المطحنة، وردّت الأم، فقالوا لها ابنتكِ في المستشفى، هناك قد نقلت، وهناك قد تموت، فصحّتها متدهورة جداً، قالوا ذلك وأقفلوا خط الهاتف.

لم ترَ الأم، ظلت صامتة حتى صعقت فسقطت على الأرض مغشياً عليها من شدة الصدمة، سارعت السكرتيرة التي كانت تعمل عندها منذ أعوام محامية وسكرتيرة ومراقبة عمّال، سارعت إلى صديقتها وليس إلى ربة عملها، فلقد كانت الأم صديقة حميمة لسكرتيرتها التي كانت أيضاً هي أم مجاهد، ذلك الطالب الجامعي الذي يدرس الهندسة على حساب أمه، فوالده أسير منذ أعوام طويلة، ومحكوم بأعوام طويلة، أسير في سجون الاحتلال الصهيوني... أما الأم الحرة "أم جهاد" فلقد عملت عند صديقتها، عملت كل شيء، محامية وذلك لأنها درست المحاماة في أحد المعاهد، وعملت سكرتيرة ومراقبة للأعمال، كانت أم جهاد هي ذراع أم بتول اليمين... وكانت بتول لا تحب أم جهاد بل لا تحترمها وتنظر لها وكأنها خادمة ليس إلاً.

سارعت أم جهاد لرفع صديقتها أم بتول، ووضعت على أنفها قليل من مادة معطّرة، استفاقت الأم وهي تصيح: بتول... بتول.. الحقوا بتول. قادت أم جهاد سيارتها وركبت معها أم بتول إلى المستشفى، هناك كانت المتكبرة ترقد وكأنها جثّة هامدة، ترقد وقد غابت عن الوعي.

سألت أم جهاد الطبيب عن حالة بتول، فأجاب باقتضاب: "الكلى"... لم تفهم أم جهاد ماذا يعني، فكررت السؤال، فكرر الإجابة "الكلى"، كان ذلك الطبيب طبيباً أبلهاً رغم تفوّقه العلمي، أبله في طريقة التعامل مع الناس، كان مثل الأبله فقير المشاعر الإنسانية غني بالعلوم العلمية.

في تلك الأثناء، كان جهاد قد وصل إلى المستشفى وأحضر معه أحد الأطباء المتدربين، وكان صديقاً له، حضر جهاد بناءً على طلب أمه، فهو ابن بار، ابن تتمنى كل الأمهات أن يرزقن

بابن مثله، حضر لأنه يكن الاحترام والحب لأم بتول... لم يحضر من أجل بتول، فبتول المتعجرفة لم تبقي لها أصحاباً أو أصدقاء.

سأل الطبيب المتدرب، الطبيب المسؤول عن حالة بتول، وفهم منه أنها أصيبت (بفيروس) بالكبد، وأنها بحاجة لنقل كبد، وأن كليتيها هي الأخرتين قد أصيبتا بنفس الفيروس، وهو فيروس قاتل مميت، فإن لم تزرع كلى واحدة بدل الكليتين، وإن لم يزرع كبد أو قطعة من الكبد مكان ذلك الكبد المصاب قد تموت .

أخبر الطبيب المتدرب صديقه جهاد، الذي أخبر بدوره والدته، التي سقطت من هول ما سمعت، ولحق سقوطها سقوط أم بتول التي سمعت هي الأخرى نفس الخبر من الطبيب المتدرب الذي دخل ليرى بتول، وكانت أمها بجوارها، فقال لها ظناً منه أنها أم جهاد، وليست أم بتول.

استفاقتا بعد عناء طويل، وبدأتا بالبكاء... البكاء الصامت نار.. والبكاء الناحب نار أخرى... حتى جهاد ذلك الشاب الصلب ابن الأسير الذي عاش حياةً قاسية دمعت عيناه، دمعت عيناه ليس على تلك الجاحدة بتول، ولكن دمعت عيناها لأجل عيون أمه وأم بتول.

دبّ الصمت المكان، وطال الصمت، فكانت غرفة بتول الفاقدة للوعي، تفقد كل من يدخل إليها الوعي أيضاً.. جفف جهاد دموعه بعد أن نظرت إليه أمه وهزّت كتفه قائلةً: وما الحل....
ما الحل يا جهاد، البنت سوف تموت.. ما الحل، تحرّك ولا تعد حتى تأتيني بالحل.. تحرّك ولا تقف مكتوف اليدين.

لم يكن جهاد بحاجة لسماع تلك الكلمات من والدته، فهو يعرف الحل لحالة بتول المرضية، فلقد قاله له الطبيب المساعد ولأمه أيضاً، لكن الأم لم تسمع سوى كلمة سوف تموت... لم تسمع أنه يمكن زراعة كلية واحدة وكبد أو جزء من الكبد لتحيى، وتعود إلى عجرفتها السابقة، طبعاً لم يقل جهاد تلك الكلمة أمام أمه لمعرفته وعلمه كم تحب أمه بتول، رغم عجرفتها، فلقد شاهدت أم جهاد بتول وهي تكبر شيئاً فشيئاً ، فهي كانت دائماً حاضرة بجوار أم بتول، وبسبب أسر زوجها كانت تملك الكثير من الوقت وكان تمضي ذلك الوقت إما عند صديقتها أم بتول، وإما كانت أم بتول تمضي وقتها عند أم جهاد.

أجاب جهاد ببطء شديد، وكرر ما قاله أكثر من مرة حتى فهمت أمه كل كلمة قالها... ولكنها قالت بعد ذلك، وما الحال.. فعاود تكرار ما قاله، فسمعته أم بتول هي الأخرى، ولأن جهاد كان مدركاً لخطورة الموقف وحساسية الموضوع، فلقد كرر وكرر حتى قالتا له فهمنا، ولكن ما الحل.

وقبل أن يفتح جهاد فمه، كي يكرر ما قال، قالتا له فهمنا ولكن ما الحل، من أين سوف تأتي بالكلى وبالكبد؟.

فهم جهاد هذه المرة سؤال أمه وأم بتول، قولهما "ما الحل؟"، أي من أين نأتي بالكلى والكبد.. ردد هذه الكلمات دون أن ينطق بها، رددها في عقله متسائلاً نعم صحيح، من أين؟ من أين؟.. توجّه لصديقه الطبيب المتدرب، فأجابه عن طريق متبرع.. ابحثوا عن متبرع تتطابق أنسجته والفحوص الطبية بينه وبين المريضة بتول.

بتول المتعجرفة.. لا قال جهاد لنفسه.. لا لم تعد متعجرفة.. حرام حرام.. هي بتول المسكينة المريضة، نعم لم تعد متعجرفة، فالمرض لا يرحم.. حصل كل ما حصل خلال أربع ساعات فقط لا غير، أربع ساعات، حوّلت حياة أم بتول وأم جهاد وجهاد وبتول إلى جحيم.. إلى قمة المأساة واليأس، ذلك اليأس الذي يدرك الإنسان حينه أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، يدرك الإنسان كم هو ضعيف.. ضعيف جداً.

حلّ الظلام، ونامت كلّ من أم جهاد وأم بتول في المستشفى بجوار بتول، ونام جهاد خارج المستشفى بسيارة والدته، أمضى ليلته وهو يفكر بالحل، ويبحث عن الحل من خلال اتصاله بالأصدقاء والمعارف من خلال شبكة التواصل الاجتماعي، يبحث عن الحل من خلال الصلاة، فهو يصلي ولكنه أراد أن يصلي أكثر ويتضرع لله أكثر لأجل تلك المسكينة، ولأجل أمها الطيبة.

ظلّ يدعو ويصلي، وعندما تعب عاد إلى سيارة والدته لكي ينام في الصباح الباكر، كان هاتفه الجوال يرن.. جهاد أين أنت؟ تعالَ فوراً فوراً.. أمه تصيح وتبكي، فلقد ساءت حالت بتول.. تعال فوراً.. قفز وركض مسرعاً إلى غرفة بتول ليجد الأطباء حولها كلّ واحدٍ يحاول جاهداً إنقاذ تلك الروح وذلك الجسد الضعيف.

استطاع جهاد بعد عناء إخراج أمه وأم بتول إلى خارج الغرفة، كي يتمكن الأطباء من علاجها بعيداً عن البكاء والصياح، وبفضل الله تمكّن الأطباء من إعادة الاستقرار إلى حالة بتول.. بتول التي ما زالت منذ الأمس في غيبوبة.

جعلتها الغيبوبة غائبة عن ما حولها، لا تدري ولا تعلم حجم الدموع التي تساقطت كالشلال طوال الليل.. دموع الحب والحنان، فالكل بكى والكل حزن، إلاّ هي، فلم تكن هنا، بل كانت هناك في عالمها الخاص، تحلم أنها أكبر وأعلى من مَن هم حولها، أكبر من أمها وأعلى من أم جهاد، وأفضل من جهاد... رغم غيبوبتها إلاّ أنها كانت تحيا في غيبوبة أخرى، غيبوبة من الجحود وإنكار الجميل.

بعد قرابة الأربعة أسابيع على دخول بتول في غيبوبتها، لم يتمكن جهاد أو أم بتول من إيجاد أعضاء من متبرع، ففلسطين بلد مقفل بحكم الاحتلال الصهيوني، ويصعب إيجاد أعضاء من متبرعين أموات، ويكاد يكون مستحيلاً، وكانت حالة بتول لا تمكّنهم من نقلها للعلاج في الخارج.

بهدوء وبصمت، طلبت أم بتول من صديق جهاد، الطبيب المتدرب، أن يرافقها إلى المختبر لعمل فحوصات للأنسجة من أجل أن تتبرع بجزء من كبدها وبإحدى كليتيها، وبنفس الهدوء والصمت والسرية طلب جهاد من صديقه نفس الأمر.

وهنا، لا أدري هل هو من حسن حظ بتول المتعجرفة، أن تطابقت أنسجة الاثنان مع أنسجتها، أم أقول أن هذا من سوء حظ جهاد وأم بتول، لا أدري والله، فبعد الذي سمعته من جهاد عن بتول، جعلني رغم غيبوبتها ومرضها لا أشفق عليها.. وكيف يقوم جهاد أصلاً بعمل هذا الفحص من أجل التبرع لها، لا أدري ماذا أفعل، فليعينني الله على كتمان هذا السر، بل كتمان هذان السران... هكذا قال الطبيب المتدرب لنفسه بصمت دون أن يحدّث أحداً عن ما يجول بخاطره.

أعدّ الأطباء العدة وغرفة العمليات، بل أعدوا ثلاثة غرف عمليات، لأن أم بتول كانت تعاني من ضعفٍ في كليتيها، ولذلك قرّر الأطباء نقل جزء من كبدها إلى ابنتها، وأخبرها الطبيب المساعد أن هناك متبرع آخر لم يذكر لها اسمه قد يتبرّع بإحدى كليتيه.. كان ذلك الآخر هو جهاد الذي لم يخبر أحداً، لا والدته ولا أم بتول، لم يخبر سوى صديقه المقرّب ذلك الطبيب المتدرب.

أجريت العمليات الثلاث، ونقلت أعضاء الاثنتين إلى بتول التي ما تزال تغط في غيبوبتها، لا تدري ما الذي يجري حولها، رغم ألم عملية استئصال جزء من الكبد التي أجرتها أم بتول، إلا أنها ظلت تحول حول سرير ابنتها طوال شهر كامل بعد إجراء تلك العملية.. ورغم عتب أم جهاد على جهاد لأنه لم يكن حاضراً يوم إجراء عملية بتول، إلاّ أنه ظل صامتاً يرد بابتسامة تخفي ألم جرحه، ولم يخبر أحد على ما أقدم عليه.

بعد مرور ذلك الشهر الثاني، عاد جهاد إلى جامعته، وعادت بتول من غيبوبتها، وعادت إلى البيت، عادت كما غادرته قبل سقوطها مريضة، عادت متكبرة متعالية متعجرفة، بل عادت أسوأ من الأسوأ.. أما أمها فكانت مثل جهاد تماماً صامتةً تحاول إرضاء ابنتها بأي ثمن، لكن تلك المتعجرفة لم تكن لترضى أبداً.

استمر الوضع على هذا الحال عدة أسابيع، ولكنه لم يظل على ذلك، ففي صباح أحد الأيام، أيقظت أم بتول ابنتها لكي تذهب إلى جامعتها، فاستيقظت مثل العادة تتأفف رافعة أنفها إلى أعلى... ولسوء حظها في ذلك اليوم، كانت الأم مريضة، إلاّ أن بتول قالت لها: أوفٍ.. أوف.. (ليش مش مولعة حطب الموقد.. الدنيا برد، وليش مش عاملة فطور.. أوف... إنتي أم.. إنتي أم تترك بنتها بلا طعام وبلا دفء.)

تلك المتعجرفة، ألم تكن ومنذ دخولها الجامعة تخرج بلا إفطار، حتى بعد عودتها من المستشفى، فلقد كانت تخرج أيضاً بلا إفطار، وحتى أنها لم تقف ولا مرة واحدة أمام المدفئة لتتدفأ قبل خروجها إلى جامعتها طوال عامين كاملين.

قالت الأم لنفسها تلك الكلمات.. تلك الكلمات التي كانت القشة التي قصمت ظهرها، قامت الأم وصفعت ابنتها صفعةً ولا كل الصفعات.. صفعةً قويةً قاسية. نظرت بتول لأمها وقالت: حرام أن تكوني أنتي أم.. أنتي حجر.. حجر.. وغادرت المنزل عابسةً مما حدث معها، تلوم أمها بوقاحة.. وبجحود.

في تلك الأثناء، كان جهاد قد أوقف سيارة تكسي ليذهب إلى جامعته، ففتح باب السيارة لبتول، وقال: صباح الخير يا ابنة العم.. وهو لم يكن ابن عمها ولكن كان يمت بصلة قرابة ليست بالبعيدة.. ردّت بتول بعد أن نظرت إليه من أسفل إلى أعلى.. ومن أعلى إلى أسفل.. (الله لا يصبحك بالخير..) صعق.. بل مات من الصعقة التي هوت عليه، فلقد أهانته أمام ركاب

السيارة جميعاً.. كم كانت وقحة، قالها بداخله وصمت.. كظم غيظه وياما كظم غيظه، أعطاها كليته بصمت وأعطته الإهانة بوقاحة وبأعلى صوت.

بعد أن انتهت دروسها في الجامعة، توجّهت إلى المستشفى لكي تغير الضمادة على جرحها، رأت جهاد وهو ينزل من أعلى درج المستشفى، لم تكلمه ولم يكلمها... أثناء انتظارها موعد دخولها لغرفة الضمادات، رأت الطبيب المساعد ورآها.. جلس بجوارها وقد أحضر معه كأساً من الماء ليعطيها إياها، فهو يعلم أنها لا يجب أن تشرب في هذه المرحلة سوى الماء.

فقالت له: شكراً، ولكن لماذا لم تحضر شاياً أو قهوة.. أم أنت.. ولم تكمل، كانت تريد أن تقول بخيل، ولكنها لم تقل، سألها عن صحة أمها، فقالت له: مثل الحجر، ولكنها تتمارض، وبعدين دشرك من أمي الحجر، وقول لي شو اللي جاب جهاد على المستشفى، شو اللي جاب قليل الذوق هذا.

ذُهل الطبيب المتدرب من تلك الكلمات.. حجر، قليل ذوق.. الأم التي أعطت ابنتها كبدها حجر، والشاب الذي أعطاها كليته قليل ذوق!! صمت ولكنه لم يصبر كثيراً، وقف وقال لها: هل تعلمي أنك جحودة ناكرة للجميل، هل تعلمي أنك أسوأ شخص قابلته طوال حياتي؟.. أسألك عن أمك فتقولين حجر!، وتسألين عن جهاد وتقولين قليل ذوق!... اعلمي أيتها الجاحدة أن تلك الحجر هي التي تبرّعت لكي بقطعة من كبدها، وهي تعاني حتى اليوم من آثار العملية التي أجريت لها بسببك أيتها الجاحدة.. وهل تعلمي أن قليل الذوق جهاد كان هنا لكي يغير ضمادة جرحه؟.. جرحه الذي خلّفته عملية استئصال كليته لكي يعطيك إياها... نعم ذلك عديم الذوق أعطاكي أنتي يا عديمة الذوق كليته سراً عن أمه وعن أمك.. وكان هنا لكي يأخذ الدواء لأمك أيضاً، فلقد كانت تعاني منذ يومين من آلامٍ شديدة بكبدها، ولقد أعطيت جهاد دواءً لها... أيتها الجاحدة الناكرة للجميل... هل تعلمي أنك لولا أنهما تبرعا لكِ في الوقت المناسب لكنتِ قد أصبحتي الآن جثة نتنة تنهشها الديدان؟؟ فلولاهما ما كنتي حية، وهذا واقع وحقيقة، لم يكن هناك متبرعون، ولم تكن هناك أعضاء تناسب مع أعضائك سوى أعضاؤهما.. سحقاً لك أيتها الجاحدة، سحقاً لكِ .

ظل يكرّر تلك الكلمة حتى أصبح بعيداً عنها، فلقد غادر قاعة الانتظار لمكانٍ آخر، مكان لا يوجد به جاحدون وجاحدات.. غادر الطبيب المساعد وهو لا يدري، أيلوم نفسه بسبب كشفه لسر الأم ولسر جهاد؟، أم يلوم نفسه لأنه لم يقل ما قاله قبل اليوم؟.. قبل أن يزداد جحود تلك الجاحدة.

غادر هو.. وغادرت هي.. إلى أين لا يدري؟؟ هل تعود عن جحودها؟ هل تعود إلى إنسانيتها؟ هل تعود إنساناً أم لا تعود؟؟؟.. بعد أن سقطت الأقنعة وكُشفت الأسرار.

بقلم: عبد الله البرغوثي

" قصة رقم 12 "

ورود والسحر الوردي

بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وصل عايد إلى بلاد الشام، قادماً من فنزويلا.. وصل وهو محمّلٌ بالكثير من الهدايا والمال الذي جمعه من العمل هناك، خلف البحار، حيث كان يعمل بائعاً متجوّلاً.

كان عايد يسعى من خلال عودته إلى بلاد الشام، إيجاد فتاة لكي يتزوجها ويغادر معها إلى كراكاس، إلى عاصمة المال والفرص، فلقد كانت فنزويلا بعاصمتها الجميلة ما بين الحربين العالميتين مركزاً تجارياً منتعشاً مقارنةً بأوروبا وأمريكا آنذاك.

فوجئ عايد أنه لم يتمكّن من إيجاد فتاة واحدة تقبل السفر معه بعد الزواج، ورغم أنه أمضى كلّ أيام عطلته في البحث، لكنه لم يجد، فلقد كان عايد يتيم الأبوين، ويعيش مع عمه وزوجته الحقود التي تكره كل شيء، حتى أن عايد كان يقول بينه وبين نفسه "إن زوجة عمي تكره كل شيء حتى نفسها، فهي حقودة"، وكان حقدها هذا سببه الرئيس أنها لم تكن تنجب، رغم أنها إبنة أحد أغنياء القرية... وبسبب غنى والدها، ولأن عم عايد كان يعمل عنده، فلم يكن يستطع تركها أو الزواج عليها. وعايد يعتقد أن زوجة عمه هي أحد الأسباب في عدم إيجاده لزوجة.

لكن عايد كان من النوع الذي لا يكل ولا يمل، فاستمر في البحث حتى وجد أخيراً، وقبل سفره بعدة أيام، أحد رعاة الأغنام الذين كانوا يسكنون على أطراف القرية، وعند سؤال الراعي إن كان يعرف أحداً يمكن يزوّجه ابنته، قال الراعي: أعرف رجلاً يتمنى أن يزوّجك أي واحدة من بناته، فلقد كان عند الراعي أربع بنات، وكن كلهن في سن الزواج، فوافق عايد...

وخلال يومين اثنين كان عايد متزوجاً، وأخرج لزوجته أوراقاً ثبوتيةً وجواز سفر، وانطلق هو وزوجته الشابة الجميلة نحو الباخرة، ليبدئوا رحلتهم إلى هناك... لمدينة المال والفرص... كركاس.

بدأ عايد يتعرف على جوجو "جانيت" زوجته في الباخرة، فلقد كانت الرحلة طويلة ومملة، فكان يمضي وقته بالتكلم مع جانيت، وسرعان ما علم أن سبب بقاء جانيت وأخواتها الثلاث بدون

زواج، هو خوف الناس من الزواج من إحدى بنات الفتّاحة أو البصّارة أو قارئة الفنجان ذات القدرات الكبيرة، ولقد تعلّمت جانيت منها أصول السحر والبصارة، فتعلمت منها كلّ ما هو جيد وسيء.

وهنا، أدرك عايد أنه أوقع نفسه بورطة كبيرة، لا يمكن إصلاحها أو حتى العودة عنها، فلقد صرف كلّ النقود التي أحضرها معه من فنزويلا خلال وجوده في الشام والقرية، وعلى الزواج أيضاً. فقرّر عايد، وهو التاجر الشاب، أن يعقد اتفاقاً مع زوجته جوجو، كما كان يسميها، ينصّ على أن لا تقول جانيت هذه القصة لأي أحد من العرب هناك في كراكاس، وطلب من جانيت أن تنسى كلّ ما تعلّمته، وتكرّس حياتها له ولبيتهما.

أحبته جانيت حباً كبيراً، فلقد كان عايد شاباً وسيماً ومثقفاً وقوي البنية، وكان طيباً جداً معها منذ أن تزوجها وحتى وصلا إلى كراكاس.. هناك وصلا وبدءا حياتهما، وما هي إلا عدة أشهر حتى حملت جانيت وأنجبت عدة أولاد وعدة بنات، وعاشت ما يزيد على ثلاثين عاماً، أصبح خلالها عايد تاجراً مشهوراً جداً، وشاءت الأقدار أن يشتعل حريقٌ في الغابة التي كانوا يعيشون فيها، فلقد بنى عايد بيتاً كبيراً ومزرعةً جميلةً هناك، وخلال الحريق الكبير تدمّرت المزرعة وحُرق البيت والغابة، ومات عايد ومات معه كل أبنائه وبناته، وأصيبت جانيت بحرقٍ قاسٍ شوّه وجهها بدرجة كبيرة.

بعد عدة أشهر، جمعت مال زوجها وصفّت تجارته وباعت كل ما كانوا يملكون في كركاس، وقررت العودة إلى الشام مرة أخرى.

لكنها قررت أن لا تعود أبداً، وكان هذا القرار المفاجئ بعد أن استيقظت من حلمها مذعورةً، وقد شاهدت في هذا الحلم أنها تجري مسرعة محاولة الفرار من الأولاد الذين يلقون عليها الحجارة، ويقولون عادت الساحرة بنت الساحرة... عادت.. أضربوها ولا ترحموها.. أضربوها.

جانيت التي كانت تملك الكثير الكثير من المال، لم ترغب في البقاء في كراكاس، ولم تحب وترغب في العودة إلى الشام... باتت حائرة لا تدري ماذا تفعل؟.

وما هي إلاّ أسابيع حتى حضر من كندا أحد أصدقاء عايد القدامى، وهو المحامي صالح، ولقد كان صالح قد ترك كراكاس للدراسة في كندا، واستقر هناك، ولكن كان يعود كل عدة أعوام لرؤية

والديه وإخوانه الموجودين في فنزويلا... وعندما علم بما حدث لعائلة عايد قرّر الذهاب لتقديم واجب العزاء لجوجو، ولكنه فوجئ أن جانيت ترفض استقباله، فهي كانت ترفض استقبال أي أحد، ولكن صالح أصر وأصر كثيراً، ولأنه كان صديقاً مقرباً جداً من عايد وجانيت، فلقد بقي حتى سمحت له جانيت بأن يأتي لزيارتها، وبعد صمتٍ طويل في بداية المقابلة، إلا أن صالح كسر هذا الصمت وبدأ يتحدث ويتحدث دون أن تجيب جانيت بأي كلمة.

قبل أن يقرر المغادرة، قال لجانيت: حسناً سوف أعود غداً إلى كندا، فهناك أعيش كما تعلمين بعيداً عن الناس، فأنا أيضاً أحب الصمت والهدوء، وخاصة بعد أن توفيت زوجتي، وقررت التقاعد، فهنا صمت، وهناك صمت... قالت له جانيت فجأة: خدني لهناك، خذني معك، فأنا لا أريد البقاء بين الذكريات، فالذكريات تقتل.. خذني معك أرجوك.

وعدها صالح أنه سوف يعد لها الأمور هناك في كندا، ويتصل بها.. فلقد شعر صالح أن جانيت إن بقيت بمفردها فقد تقدم على الانتحار، خاصةً بعد ما حلّ بها من موت كل أحبتها، ومن خوفها العودة إلى الشام، رغم أنه لم يقتنع بموضوع الحلم، لأنه لم يكن يعلم ماضي عائلة جانيت في الشعوذة والسحر.

بعد عدة أسابيع، اتصل بها وبعث لها التذكرة للحضور إلى كندا، وما أن وصلت المطار، وهي تضع وشاحاً أسوداً على وجهها كي لا يرى أحد حروق وجهها، حتى اصطحبها إلى فيلا جميلة كان قد اشتراها لها من مالها الخاص.

وما أن وصلت إلى الفيلا وجدت أن صالح كان قد وظّف لها بستاني وخادمة وممرضة، وما هي إلا أيام حتى بدأت جانيت تتعوّد على المنزل الجديد والحياة الجديدة... ولكن ذلك لم يلبث طويلاً، فلقد قرّرت جانيت أنها تريد أن تمارس ما تعلمت قديماً من فنون السحر والشعوذة.

فلقد مات عايد الذي كانت قد قطعت له وعداً بأن لا تمارس السحر في فنزويلا، وأن لا تعلم أحداً بذلك. فبدأت بتذكر ما كانت قد تعلمت من والدتها، ولقد نجحت وأصبحت تجيد كل فنون السحر.

كانت تخفيه عن صالح المحامي، وعن العاملين لديها، فلقد خصّت غرفة بجوار غرفة نومها، مدّعية أن هذه الغرفة الجانبية هي غرفة للقراءة والتأمل، ومنعت كلّ من حولها من دخول تلك الغرفة.

مرّت سنوات طويلة جداً، ومع مرور السنوات كانت قدرات جانيت تتطور وتكبر، حتى أنها أصبحت قادرة على الكثير من الأمور الخارقة، ولقد كانت قادرة على فعل كل ما تريد بنظرة عين أو نفخة هواء من فمها.

كانت جانيت كلما تقدّم بها العمر تصاب بالاكتئاب من جديد، وكانت حالات الاكتئاب تلازمها طويلاً، فلقد حبست جانيت نفسها بين جدران الفيلا، ولم تكن تخرج إلاّ نادراً لشراء بعض المواد التي كانت تستخدمها في السحر، ولكنها الآن توقفت عن الخروج، وحتى عن التعلّم.. لقد كانت مكتئبةً لأقصى الحدود، لا تأكل إلا نادراً، كانت تريد الموت، ولكنها لم تكن تجرؤ على الانتحار.

في تلك الأثناء، قرّرت إحدى الشركات الهندية إنشاء عدة منازل بجوار فيلا جانيت، وما هي إلا عدّة أشهر حتى كانت تلك المنازل جاهزة، ولقد أحبّ المهندس المسؤول عن المشروع جمال المكان، وقرّر أن يسكن هو وزوجته وابنته الصغيرة في أحد المنازل، ولأنه كان أكثر ألفة قرّر أن يسكن بجوار فيلا جانيت، لأنه المكان الوحيد الذي كان يسكنه أشخاص آنذاك.

كان المهندس اسمه "مجدي" وكانت زوجته الشابة الجميلة اسمها "مريم"، أما ابنتهما ذات الخدود الوردية فكان اسمها "ورود".
ورود كانت رغم صغر سنها، كثيرة الحركة والكلام والصياح والبكاء، كانت مزعجة جداً، بل أنها كانت مجموعة كاملة متكاملة من الإزعاج، فلقد كانت أمها مريم هي أيضاً طفلة نوعاً ما، فعمر مريم لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين عاماً، حيث تزوجها مجدي وهي ابنه الثامنة عشرة من العمر، وكان مجدي يكبرها بعشرة أعوام.

كانت "دينا" هي مربية ورود، ولم تكن المربية بالمعنى الكامل للكلمة، وإنما كانت أشبه بجليسة أطفال، وكان عمر دينا سبعة عشر عاماً.

كانت ورود تنسل إلى خارج المنزل بعد أن تكون دينا مشغولة في التحدث على الهاتف ومشاهدة التلفاز، وفي إحدى المرات تركت المنزل إلى الحديقة، ومن هناك وجدت فتحة في السور، فدخلت

منها، وإذ بها في حديقة جانيت، لكن لم يرها أحد، فظلّت تسير حتى وصلت إلى الشرفة التي تطل على الحديقة، وقفت هناك، ونظرت.. فإذا بامرأة عجوز تمسك مجموعةً من الأزهار، وتتحدث لها وكأنها تتحدث إلى زوجها وأولادها، وبعد عدة دقائق، انتبهت جانيت للطفلة ذات الخدود الوردية.

بدأت جانيت بالتحدث لورود، وأخذت ورود بالرد عليها، لم تقم ورود بالسكوت، بدأت تتكلم وتتكلم رغم أن جانيت توقّفت عن الكلام.

بعد فترة من الزمن، لاحظت جانيت أن ورود تتكلم اللغة العربية، وليس الانجليزية كما هو الحال في كندا، والإسبانية كما هو الحال في فنزويلا... وهذا الشيء زاد جانيت حيرة، حيرةً انقلبت إلى خوف وأمل ومشاعر كثيرة، كانت تجول في عقل جانيت.

فلقد ظنت جانيت أن ذات الخدود الوردية هي جزء من حلم، ولكنها أدركت أنها متيقّظة، وأن ما تراه حقيقة وليس خيالاً، فأرادت أن تتأكد مما تراه، فقدّمت جانيت لورود زهرة، من تلك الزهور التي كانت بين يديها، فأخذتها ورود وقالت لها: شكراً ماما.

في تلك اللحظة غابت جانيت عن الوعي من شدت الخوف والفرح، غابت ولكنها لم تغب، وبقيت على هذا الحال لفترة طويلة.
ملّت ورود من الوقوف صامتةً، وعادت من حيث أتت إلى فتحة السياج إلى الحديقة إلى البيت، عادت إلى دينا التي كانت ما تزال تتحدث عبر الهاتف، ولم تنتبه أبداً لغياب ورود ولا حتى لعودتها.

أحضرت الخادمة وشاحاً لكي تضعه على كتف السيدة جانيت، ولكنها فوجئت أن جانيت كانت غائبة عن الوعي، فأسرعت لاستدعاء الممرضة، فنقلوا السيدة جانيت إلى غرفتها لترتاح، فلقد ظنوا أن جانيت مرهقة لكبر سنّها.

استيقظت جانيت بعد منتصف الليل، لتجد نفلسها نائمة في غرفتها، فاعتقدت أن كل ما رأته كان حلماً... مجرد حلم، وبعد أيام طويلة قضتها جانيت تجلس على الشرفة محدقةّ بالزهور التي كانت تقطفها وتتحدث إليها ساعات وساعات، فلقد كانت جانيت تقطف الزهور حسب عدد أولادها وبناتها وزهرة أخرى لزوجها.

وكانت تضع أمام كل كرسي على مائدة الطعام مزهرية صغيرة، فيها زهرة، وكانت كل يوم بعد جلوسها في الشرفة المطلة على الحديقة تدخل إلى الداخل لتبدّل الزهور القديمة بزهور أخرى جديدة... لم تكن جانيت تمل أو تكل من تلك العادة، فلقد كانت تشعر أنها ترى أبنائها كلما كانت تنظر إلى تلك الزهور.

بقيت ورود على حالها مشاكسة، تسأل عن كلّ شيء، وتريد أن تعرف كلّ شيء، كانت أسئلتها أكثر بكثير مما تحتمل أمها مريم، أو حتى أبوها مجدي، الذي كانت تمطره بالأسئلة بعد عودته إلى البيت من العمل.

استمر هذا الحال لعدة أسابيع... كانت ورود خلالها تصل إلى السور الذي يفصل بين الحديقتين الكبيرتين، ولكنها لم تكن تدخل. كان هناك شيء عند السور يمنعها من الدخول، فلقد كانت بمجرد أن تحاول الدخول يحدث معها شيء.. مثل أن تنادي عليها أمها، أو تنادي عليها المربية دينا، أو أن ترى قطةً تقفز في الحديقة، فتبدأ بملاحقتها، أو ترى طائراً يغرد، فتذهب نحو الشجرة التي يقف عليها وتبدأ بالغناء... ولم تتمكن حتى ذلك اليوم من الدخول ورؤية جانيت والحصول على زهرة من تلك الزهور الكبيرة التي تزرعها جانيت في حديقتها.

فلقد كانت تلك الزهور كبيرةً جداً، أكبر من المزهرية التي كانت توضع بها، وأكبر من غالبية الزهور العادية.

وفي عصر اليوم المشئوم، والذي صادف يوم ذكرى ميلاد مريم "أم ورود"، حدث ما قلب حياة ورود رأساً على عقب... فلقد أخذ مجدي زوجته مريم لتناول العشاء والسهر بهذه المناسبة، وبقيت ورود مع المربية دينا. وبعد العشاء وأثناء توجههم إلى المنزل، اتصلت بهم دينا، لأنهم قد تأخروا كثيراً عن العودة، وكانت لدى دينا التزامات أخرى.

غضب مجدي من دينا، وقال لها أن تأخذ أجرتها من على أحد أرفف المنزل، وأن تذهب إلى التزاماتها، وقال لها أنه لم يعد بحاجتها لا الليلة ولا في الأيام القادمة... وضعت دينا ورود في سريرها، فلقد كانت قد نامت منذ مدة طويلة، وأخذت المال المخصص لها، وغادرت البيت إلى حفلة كانت تريد الذهاب إليها.

في أثناء ذلك، وعلى إحدى تقاطعات الطريق المؤدية إلى الغابة، حيث يوجد منزل مجدي ومريم اصطدمت سيارتهما بإحدى ناقلات الأخشاب الكبيرة، مما أدى إلى انقلابها عدة مرات، وأدى ذلك إلى موت كليهما في الحال.

حضر الإسعاف ونقلت جثمانيهما إلى المشفى، وبقيا هناك لعدة أيام، حاول خلالها رجال الشرطة الاتصال بأي من أقارب لهما، فلم ينجحوا.

في هذه الأثناء، أي في صباح اليوم التالي للحادثة استيقظت ورود، فلم تجد أحداً في المنزل، لم تبكِ ولم تخف، فلقد كانت معتادةً على ذهاب والدتها إلى السوق في الصباح لشراء بعض الحاجيات، ولكن بعد عدة ساعات من الانتظار، وبعد أن قلبت ورود البيت رأساً على عقب، قررت أن تعد إفطاراً لتفاجئ والدتها، مما أدى إلى تحوّل المطبخ إلى ساحة حرب...

أكلت ورود بعض الحلويات، وشربت العصير، وذهبت إلى الحديقة، وتوجهت مباشرة إلى السور، وتحديداً إلى مكان الفتحة... لم يكن هناك من يطلبها أو يؤخرها أو حتى يمنعها، فأمها هناك في المشفى، ودينا لم تأتِ لأن مجدي طردها من العمل، ومجدي في العمل، وحتى القطة لم تكن ذلك اليوم في الحديقة، وحتى الطيور التي كانت دائماً تملئ أغصان الأشجار، لم تكن هناك، لم يكن أي شيء سوى تلك الفتحة الموجودة في السور.

دخلت ورود ومشت بحذر شديد حتى وصلت إلى الشرفة، وما أن وصلت حتى جلست على الكرسي الهزاز، وبدأت تهز نفسها حتى غرقت في النوم.. نامت فترةً طويلةً، فترة الظهيرة دون أن يزعجها أحد.

كان من عادة جانيت أن تقطف الزهور في الصباح وتجلس على الكرسي الهزاز حتى موعد الإفطار، ثم كانت تدخل للبيت وتتناول إفطارها، وتبدأ بالقراءة حتى ساعات الظهيرة، فتتناول الغداء مبكراً، وتذهب إلى أخذ قيلولة بعد الظهر.

ما أن استيقظت جانيت من قيلولتها حتى نزلت للطابق الأول من المنزل لتتناول الشاي، وبمجرد سماع الخادمة لصوت جانيت قادمة من أعلى، بدأت بإعداد الشاي في الحال، وقالت لجانيت سوف أرسل لكِ الشاي في الحال إلى الحديقة، وهنا توجّهت جانيت إلى الشرفة مثل عادتها عصر كل يوم... وقبل أن تجلس على الكرسي الهزاز رأت ورود نائمةً مثل قط صغيرة، فهزّت

الكرسي ظناً منها أن ورود مجرد قطة، لكن ورود لم تستيقظ، فرفعت جانيت ورود بين يديها بعد أن أيقنت أنها طفلة صغيرة، بل بعد أن أيقنت أنها تلك الطفلة التي ظنت أنها رأتها في المنام، صاحبة الخدود الوردية.... رفعتها ووضعتها في حجرها، ووضعت عليها شالاً كان معها، وبدأت تهز الكرسي وهي لا تصدق ما تراه وما تفعله... حضرت الخادمة ولم تنتبه لوجود ورود، فلقد كانت مغطاة.. وضعت الشاي والكعك، وذهبت.

ظنت جانيت أن ورود هي فكرة تحوّلت إلى حقيقة، فلقد كانت تسعى من خلال ممارستها للسحر، إلى شيء واحد فقط، وهو العودة في ذكرياتها إلى حياتها السابقة، مع العالم التي كانت تحيا به، فكل تركيز جانيت كان للحصول على ذكريات وتخيلات أشبه ما تكون بالواقعية التي كانت لا تفارق خيالها، فلقد كانت جانيت تكلم نفسها كثيراً وتكلم أبناءً تتراءى لها أيضاً.

بعد عدة دقائق تركت جانيت الشاي والكعك على حالهما، ولفّت ورود بالشال، وصعدت بها إلى غرفتها، وطلبت من الخادمة عدم إزعاجها نهائياً، ومهما حصل، فهي تشعر بالتعب ولا تريد أي إزعاج ولا تريد أي زائرين... هزّت الخادمة رأسها معلنة موافقتها على أمر سيدتها.

صعدت جانيت إلى أعلى، ووضعت ورود على السرير، وجلست على الطرف الآخر من السرير، تنظر إلى ورود، وفجأة استيقظت ورود وبدأت بالكلام والأسئلة: أين أنا، أين بابا، أين ماما، أين دينا المربية، أين كعكة الفراولة، أين مشروب الشوكولاتة الساخنة؟.

وفجأة صمتت ورود، وبدأت تحدّق بجانيت التي كانت مذهولة مصدومة، لا تعرف ماذا تفعل، فحتى تلك اللحظة كانت جانيت تظن ورود مجرد مخلوق، استطاعت استحضاره من عالم السحر... ولكنها بدأت تدرك أن ورود هي طفلة عادية وليس ما كانت تعتقد أو تظن.

فرفعت سمّاعة الهاتف وطلبت من الخادمة إحضار كوب من الشوكولاتة الساخنة وفطيرة فراولة، فوراً وفي الحال ابتهجت ورود، وقالت لجانيت: أنتي التي أعطيتني الزهرة قبل أيام.. وأنا حضرت اليوم لأحصل على زهرة جديدة لأنّ زهرتي ذبلت ولم تعد جميلة.

قالت لها جانيت: حسناً سوف أعطيكِ كل ما تريدين، فقط قولي من أنت؟
بدأت ذات الخدود الوردية تحكي لجانيت عنها وعن أهلها وعن مربيتها وعن قطتها وعن كل شيء، وكانت تعيد الكلام وتكرره أكثر من مرة، ولكن كلّ مرة كانت الطريقة والقصة تكون أكثر

تفصيلاً وأكثر حميمية من قبل، وخاصة بعد أن أتت الخادمة ومعها مشروب الشوكولاتة وفطيرة تفاح، فلم يكن يوجد بالمنزل فطائر فراولة.

لم تدرِ الخادمة ماذا تقول سوى تفضلي يا سيدتي جانيت، ووضعت الصينية على الطاولة وذهبت... فلقد ذُهلت الخادمة عندما رأت ورود، ولم تصدق عينيها، رغم سماعها لورود وهي تتكلم بلغة أخرى غير اللغة الإنجليزية.
بدأت ورود على الفور بشرب الشوكولاتة وأكل الفطيرة دون أن تدرك أنها من نوع آخر، فلقد كانت جائعةً جداً. وبعد أن انتهت ورود من أكلها وشربها، قفزت من على السرير، وأمسكت يد جانيت وقالت لها: هيا نذهب لكي تعطيني الزهرة، حتى أعود إلى البيت قبل أن تأتي أمي من الخارج.

وبحركة لا إرادية، أمسكت جانيت بورود ورفعتها إلى صدرها، ونزلت بها إلى الحديقة. وكان في الحديقة كلا من الخادمة، التي كانت قد أخبرت البستاني، والذي كان قد أخبر الممرضة، فكانوا كلهم واقفون على شرفة المنزل أو على مقربة منها.

طلبت جانيت من البستاني قطف زهرة جميلة وكبيرة لتعطيها لورود، وطلبت من الممرضة أن تفحص ورود للتأكد من صحتها، وأثناء ذلك قالت جانيت للممرضة قصة ورود فهدأت الخادمة التي كانت تستمع للحوار الدائر بين جانيت والممرضة.

بعد أن أحضر البستاني الزهرة، أخذتها ورود وانطلقت عائدةً إلى السور والفتحة ومنها إلى البيت، فلم تجد أحد.. وبعد عدة ساعات ملّت وجاعت، ولكن الظلام كان قد حلّ فخافت البقاء لوحدها، وقررت العودة مرّة أخرى لمنزل جانيت، فعاودت الدخول مرة أخرى من الفتحة الموجودة في السور، وما أن دخلت حتى وجدت جانيت تجلس على الكرسي الهزّاز، ولكن هذه المرة كان الكرسي بجوار الفتحة، فقفزت ورود عليها من شدة الفرح، وبدون أن تسأل بدأت ورود تقول لها ما حدث، وأنها لم تجد أحداً في المنزل.

وهنا بدأت الشكوك تراود جانيت، فأرسلت البستاني إلى منزل ورود للتأكد، فذهب إلى هناك، ولم يجد أحداً، فعاد بعد أن ترك ورقةً على الباب مكتوب عليها، أن ورود الفتاة الصغيرة موجودة في المنزل المجاور، منزل جانيت، ووضع رقم الهاتف أيضاً.

لم يأتِ أحد للسؤال عن ورود طوال الليل، وفي الصباح الباكر قررت جانيت الاتصال بالمحامي صالح... صالح ذلك المحامي الطيّب الذي كان قد ساعد جانيت كثيراً خلال انتقالها للعيش في كندا.

حضر صالح على عجل، وبدأ من خلال علاقاته بالاتصال برجال الشرطة، فعلم ما حصل لمجدي ومريم، والدي ورود، وعلم أنه لا يوجد أحد من عائلتهما هنا في كندا، ولقد طلب منه الضابط الاحتفاظ بالطفلة ورود حتى حضور العاملة الاجتماعية لأخذها إلى أحد دور الرعاية بالأطفال.

أخبر صالح كل ما علمه لجانيت، وسألها إن كانت تحتاج إلى شيء آخر، فشكرته، شكرته وهي حزينة، شكرته وهي في أشد الحالات حزناً وأسىً.

لم تستطع جانيت النوم تلك الليلة، فرغم أنها أمضت طوال اليوم تلعب مع ورود، تأكلان وتشربان سوياً، إلا أنها كانت رغم ذلك حزينةً أولاً على موت والدي ورود، وثانياً على أن ورود لم تكن حلماً تحول إلى حقيقة، وثالثاً لأن ورود سوف تذهب في الصباح مع العاملة الاجتماعية لإحدى دور الراعية، ومن هناك إلى المجهول.

لقد أحبّب ورود حباً كبيراً، حباً أعاد لها الأمل في الحياة، حباً جعلها تشعر أنها أمٌ مرة أخرى، حباً أكبر بكثير من ذلك الحزن الذي تركه فقدان جانيت لأولادها وزوجها.

ورود كانت الأمل الذي أعاد جانيت إلى الحياة مرة أخرى، خشيت جانيت أن يتبخّر هذا الحلم، وخافت أن يصبح وهماً.

قبل أن يطلع صباح اليوم التالي، وقبل طلوع الشمس اتصلت جانيت مرة أخرى بالمحامي صالح، ورجته أن يحضر فوراً وحالاً لأمر عاجل... صالح ذلك المحامي المتقاعد، ورغم كبر سنه إلاّ أنه حضر إلى منزل جانيت فور إغلاق السماعة.

-خيراً يا عزيزتي جانيت، ماذا حصل؟

هذا ما قاله صالح، قال هذه الجملة وسكت، فبدأت جانيت تشرح له ما تكنّه من مشاعر اتجاه ورود، ومن خوفها على مستقبل هذه الطفلة الصغيرة.. كانت تحكي بألم، كانت تتكلم والدموع لم تفارقها.

أدرك صالح أنه إن لم تتمكن جانيت من الوصاية على ورود، فإنها سوف تنتحر.. أدرك ذلك رغم أن جانيت لم تقل ذلك، أدرك أن ورود هي أمل جانيت في الحياة، وأن لا حياة لها بلا ورود، فصالح أبٌ وجد، ولكبر سنه كان يدرك تلك المشاعر وأهميتها.. وكان صالح حافظاً للجميل، فلقد ساعده عايد كثيراً جداً عندما كان يمر بأزماتٍ، وعندما كان في بداية مشواره حياته. أدرك ما كانت تريده جانيت، وقرّر المساعدة.

بدأ المحامي صالح بمراجعة الإجراءات الواجب اتخاذها حول هذا الموضوع، وبشكل سريعٍ جداً منع تسليم ورود للعاملة الاجتماعية، وحصل على حضانة مؤقتة لصالح جانيت، وخلال أسابيع لم تكن طويلة، تمكّن من الحصول على الحضانة الدائمة... فلم يكن هناك أي شخص من عائلة المهندس مجدي وزوجته مريم في كندا، وكانوا كلهم في موطنهم الأصلي في بلاد الشام.

بدأت جانيت تستعيد عافيتها شيئاً فشيء، وبدأت تسخّر أدويتها الخاصة في أمور السحر إلى كل ما من شأنه أن يعيد إليها صحتها وعافيتها... فلقد شعرت أن للحياة معنىً وهدفاً. شعرت أن دورها في هذه الدنيا لم ينتهي وهناك ما بقي عليها إكماله.

خلال أيام، قامت جانيت بإحضار مربّية خاصة لورود وإحضار محرّرة خاصة لورود، رغم أن صحة ورود كانت في أحسن حال... وأحضرت لورود خادمة خاصة تجيد صنع جميع أنواع الحلويات والعصائر.

وبدأت رحلة العطاء المتواصل، العطاء الذي كان يزيد يوماً بعد يوم.. فتعلّمت ورود أصول اللغة العربية والإسبانية من جانيت من معلمة خاصة، كما تعلمت اللغة الإنجليزية والفرنسية من المدرسة التي بدأت بالدراسة فيها.

تعلمت حياكة الصوف، مثلما كانت جانيت تفعل بأوقات فراغها، وعلمت العمل على أحدث الأجهزة الإلكترونية مثل الحاسوب وغيره، على يد أفضل المهندسين المختصين.

تعلمت كيف تصنع الفطائر على الطريقة الشامية، مثل جانيت بالتمام والكمال، وتعلمت كيف تعد وتجهز أجمل أنواع الجاتوه والحلويات الغربية وحتى الشرقية على أفضل معلمات الطبخ.. كان وقت ورود مليئاً كل يوم بأشياء جديدة، وأصبحت تجيد كل فنون الإتيكيت وأصول التعامل.

ورود التي كانت لا تسكت أبداً، أصبحت لا تتكلم إلاّ عند اللزوم، أصبحت منضبطة جداً، تفوقت في دراستها، تعلمت قيادة السيارة رغم أن سنّها كان أصغر من السن القانوني للحصول على رخصة قيادة... تعلمت ركوب الخيل، وتعلمت عدة أنواع من فنون القتال والدفاع عن النفس.

أصبحت اليوم لورود أشواك قوية تدافع بها عن نفسها.. أصبحت جزءاً من الماضي، كما كانت تريد جانيت، وأصبحت جزءاً من الحاضر والمستقبل المتطور، كما كانت تريد جانيت أيضاً.
فلقد أرادت جانيت أن تسلّح ورود بكل أنواع الأسلحة والوسائل التي تساعد على البقاء والصمود في وجه تحديات الدنيا القاسية.

عندما أصبح عمر ورود خمسة عشر عاماً، قررت جانيت أن تبدأ بتعليم ورود علوم السحر... ذلك السحر الصوفي التي كانت تتقنه عائلة جانيت، وبدأت بهذه المهمة، وخلال مدة لم تتجاوز العامين، أصبحت ورود تجيد السحر بشكل كامل.

وهنا لم تكن ورود تعلم أن جانيت كانت تعلمها نوعاً واحداً من السحر، كانت جانيت طوّرته خلال السنوات الطويلة الماضية، وهو نوع خاص جداً جداً.. اسمه السحر الوردي.

أما أصول السحر الوردي، فلقد كانت تقوم على مبدأ واحد فقط لا غير، وهو محاربة الشر والفساد ومساعدة كل ضعيف ومحتاج... وهنا تحوّلت ورود الطفلة ذات الخدود الوردية، إلى ورود أميرة السحر الوردي.

لم تمارس سحرها إلاّ عند اللزوم فقط لا غير، لأن جانيت كانت تقول لها احذري من القوة التي بين يديك ، فهذه القوة تكبر كلما استعملتها، وعند ذلك تصبح قوة لا يمكن السيطرة عليها ما لم تكوني قويةً بما يكفي.
كان ذلك كله يمضي، والسنون تمضي أيضاً، فلقد أصبحت جانيت كبيرة جداً في العمر، وأصبحت تتنقل على كرسي متحرك، وكانت تمضي ساعات طويلة جداً في النوم والقيلولة.

وورود لم تكن تفارق جانيت أبداً، فلم تكن تحنّ أن يكون لها أصدقاء أو صديقات، كانت ترجع من المدرسة فوراً إلى حضن جانيت، وتبقى معها حتى موعد النوم... أدركت جانيت هذا الشيء، ولكنها أدركته متأخراً جداً، فلقد أدركت أنها صنعت ابنةً لها، ابنةً تحبها، ولكنها أبقتها من دون أن تعلم وتدري حبيسةً بداخل عالمها الخاص.

أدركت جانيت أن ساعة موتها قد اقتربت، وأن عليها أن تقوّي جانيت عبر إبعادها عنها، فقررت ذات يوم أن تبعد وورود عنها كي يصبح لها عالمها الخاص... فسجلت وورود في إحدى المدارس الخاصة ذات السكن الداخلي، وكانت المدرسة بعيدة جداً في ولاية ومدينة أخرى، بحجة أن هذه المدرسة أفضل لوورود.

وورود لم تقتنع، ومع ذلك ذهبت إلى المدرسة الخاصة، وبقيت فيها عدة أشهر، وكانت جانيت تطمئن عن أخبار وورود من إدارة المدرسة، وتتابع كل شؤونها من دون أن تدري وورود، وكانت أيضاً تتصل كل أسبوع للاطمئنان على وورود... وكانت جانيت تقول للخادمة في المنزل أن يقولوا لوورود إذا اتصلت، أن جانيت نائمة وأن لا يزعجوها، رغم أنها لم تكن نائمة.. فلقد أرادت من وورود أن تبدأ بصنع عالم خاص بها، عالم واقعي حقيقي بعيداً عن جانيت.

ومع مضي الأشهر، اشتد المرض على جانيت، فقررت أن تسافر إلى فنزويلا، إلى كراكاس، حيث مكان دفن زوجها وأبنائها، فلقد كانت قبل سفرها قد بنت بيتاً صغيراً بجوار قبور أحبابها، سافرت إلى هناك لأنها أدركت أن أيامها أصبحت معدودةً جداً... وصلت إلى البيت الصغير بصحبة ممرضتها وخادمتها والبستاني، فلقد كانوا كلهم من ذوي الأصول اللاتينية، أي أصول جنوب أمريكية.

وكانت كلما تحاول وورود الاتصال بالبيت في كندا، لا يرد عليها أحد، كانت تحاول وتحاول... دون جدوى، فقرّرت الهروب من المدرسة.. الهروب إلى هناك إلى بيت أمها وجدتها جانيت، وصلت لكنها لم تجد أحداً سوى الحارس، الذي لم يرد إخبار وورود عن مكان سيدته جانيت، فلقد منعته جانيت من قول أي شيء، وحتى أنها صنعت نوعاً خاصاً من السحر الذي ينسيه جزءاً من الذاكرة.

أصرّت ورود على معرفة مكان جانيت، واستعملت كل طرق السحر الصوفي من أجل جعل الحارس أن يتذكر ويقول ماذا حدث، لكن سحرها كان أضعف من سحر جدتها جانيت، فلم تنجح.
وفجأة تذكرت المحامي صالح، فقررت الذهاب إليه وسؤاله عن جانيت...

في ذلك الوقت، كان صالح قد أصبح كبيراً في العمر، ولم يكن يعلم مكان جانيت، لكنه قال لورود أن جانيت ما تزال على قيد الحياة، وأنها قد تركت وصيتها عند ابن صالح الذي يعمل محامياً في مكتب صالح.

ذهبت ورود على الفور إلى مكتب صالح، لتقابل ابنه، وسألت عن جانيت، فقالت لها أن جانيت قد طلبت منه منذ عدة أسابيع إعداد وصية توصي بها بكل ما تملك لصالح ورود فقط لا غير، وسجلت هذه الوصية، وأنها طلبت منه أن يعطيها لورود في نهاية العام الدراسي، لأنها لم تكن تظن أن ورود سوف تهرب من المدرسة، وتبدأ عملية البحث عنها.

لم يكن كل ما قاله المحامي مهم لورود، فكل ما يهمها هو شيء واحد فقط، وهو أين أمي، أين جدتي... أين جانيت؟.
لكن المحامي لم يكن يعلم شيئاً، فعادت ورود إلى صالح لتحاول معرفة قصة جانيت، فأخبرها صالح قصة جانيت من أولها إلى آخرها بكل تفاصيلها الكبيرة والصغيرة.

هنا أدركت أميرة السحر الوردي ضرورة السفر إلى كراكاس للبحث هناك عن جدتها جانيت.. وبعد عدة أيام وصلت، ولكن جانيت كانت قد غادرت الدنيا، لقد توفيت ودفنت بجوار أحبابها، دفنت هناك بل هنا.. هنا قرب من تحب.
حزنت ورود حزناً شديداً، فلم يبق لها أحد في هذه الدنيا، وقرّرت البقاء بجوار جانيت.. بجوار قبرها.

كراكاس عاصمة فنزويلا الجميلة، قررت ورود البقاء فيها، وبدأت بدراسة المحاماة، وأصبحت أحد أهم المحاميات الشابات، وكانت تتردّد على النادي العربي الذي كان يلمُّ شمل كلّ المغتربين العرب، وخاصة ذوي الأصول الشامية من لبنان وسوريا والأردن وفلسطين... بدأت بمدّ يد المساعدة لكل محتاج.. فلقد كانت محامية، وكانت ثرية جداً، لأنها ورثت ثروةَ جانيت وزوجها عايد، وكانت أيضاً أميرة السحر الوردي.

كانت جانيت حيةً بكل ما تحمل الكلمة من معنى في داخل ورود.. وهكذا استطاعت ورود وجانيت مساعدة الكل، الفقير والضعيف والمحتاج.

أصبح لورود أصدقاء كثيرون جداً، أصبح كل من في النادي العربي أصدقاء ورود.

أحبّت ورود شاباً يعمل طبيباً، وسافرت معه إلى فلسطين لمساعدة المصابين بسبب الحرب الصهيونية عليهم، وهناك في فلسطين بدأت ورود وزوجها "أكرم" مرحلةً جديدةً من العطاء.. العطاء اللامحدود لكل محتاج على أرض فلسطين....

ففلسطين تحتاج المساعدة.. والمساعدة الصادقة التي من دون مصلحة.. هي التي تفيد فلسطين.

جانيت وورود...
أين أنتم يا من تحبون فلسطين...
تعالوا لتساعدوا أهلها، ولتحموا كنيسة المهد والمسجد الأقصى...
تعالوا لتحموا كنيسة القيامة والمسجد القدسي.. تعالوا.. تعالوا.. تعالوا.

بقلم: عبد الله البرغوثي